

د. محمد قدري سعيد ▲ د. عبد المنعم سعيد

الأفكار والأسرار

١١ سبتمبر ٢٠٠١

الطبعة الثانية

الأفكار والأسرار
١١ سبتمبر ٢٠٠١

◆ مطبوعات ◆
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية-

رئيس التحرير
نبيل عبد الفتاح

مدير التحرير
ضياء رشوان

المدير الفنى
السيد عزمى

خطوط
حامد العويضى

سكرتارية التحرير الفنية
حسنى ابراهيم

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام .

شارع الجلاء – ت : ٥٧٨٦٠٣٧

القاهرة ٢٠٠٢
الطبعة الثانية



الأفكار والأسرار
١١ سبتمبر ٢٠٠١

د. محمد قدري سعيد   د. عبد المنعم سعيد

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية :

لم يمض شهر واحد على صدور هذا الكتاب إلا ونفذت طبعته الأولى، وكانت تلك هي المرة الثانية في تاريخ مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية التي يحدث فيها ذلك، بعد نفاذ الطبعة الأولى من العدد الأول لتقرير الحالة الدينية في مصر عام ١٩٩٧. ولاشك أن ذلك قد أثلج صدر مؤلفيْ الكتاب، خاصة بعد الإشادة التي جاءت عنه ممن عرضوه أو أشاروا إليه، وفي مقدمتهم الكاتب الكبير أحمد بهجت الذي اعتبره أفضل ما كُتِب عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١.

ومع ذلك، فإن الإقبال على الطبعة الأولى لم يكن فقط بسبب ما جاء فيها، وإنما كان راجعا للموضوع ذاته، والذي لا تزال آثاره وتبعاته، تتفجر على الساحات المحلية والإقليمية والعالمية. فلم يعد هناك موضوع اقتصادي أو سياسي أو استراتيجي مطروح في مصر إلا وقد فرض نفسه عليه عالمُ ما بعد ١١ سبتمبر؛ ولا جرت مناقشة أو حوار يتعلق بالصراع العربي-الإسرائيلي أو العراق أو أي أمر من قضايا الشرق الأوسط إلا ومَسَّت أحداث ذلك اليوم؛ ولا نجا النظام العالمي وحركة القوى فيه وإعادة ترتيبها من آثار الأحداث التي لم تفجر فقط برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك ومبنى وزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن، وإنما تعدت ذلك إلى آفاق بعيدة. باختصار فقد تغير العالم، ولا يزال يجري تغييره بفعل نتائج وتوابع يوم الزلزال العظيم، والأهم من ذلك كله أن القارئ المصري والعربي يريد -وبشدة- فهم ما جرى ويجري.

وبصراحة فقد أنصف القارئُ مؤلفيْ هذا الكتاب، الذي كان بشكل ما خروجا على التقاليد المستقرة لمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية بأكثر من نهج. فمن ناحية جاء الكتاب عن حدث لا يزال في طور البوح بمكوناته، والأخطر، فقد كانت قصته كلها ممتلئة بالغموض والالتباس، والأحمال الأيديولوجية والدينية والسياسية. وكانت العادة في هذه الحالة هي الانتظار حتى تكتمل الصورة أو يتضح ويتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ومع ذلك فقد تم الخروج عن هذه العادة. وكان التقدير أن هناك حاجة من القراء لتقرير وتحليل عن الحدث الذي بدا لنا أنه ربما لن يكتمل أبدا، أو على الأقل، ليس في المستقبل المنظور.

ومن ناحية ثانية، فقد دخل الكتاب في الموضوع من زاوية "الأفكار والأسرار"، من خلال الفحص الدقيق للمصادر العلنية المتاحة لكل الناس، والتي فرضت نفسها عليهم من خلال مصادر الإعلام المتنوعة منذ وقوع الحدث وحتى بعد عام منه عند صدور الكتاب. وكان ذلك بشكل ما مغامرة تعتمد على أن تجميع عناصر الصورة يشكل تكوينا أرقى معرفيا من أجزائها المتفرقة، ومرة أخرى كان ذلك خروجا على تقاليد مركز الأهرام التي تغوص في ما هو أكثر من المصادر المباشرة.

ومن ناحية ثالثة، ولأول مرة في كتب مركز الأهرام يجري الاستخدام الكثيف للصور والخرائط والرسومات التوضيحية وبالألوان أيضا. وبشكل ما فقد كان التقليد الشائع أن الكتب هي للنظريات والحقائق وليس للمؤثرات البصرية، ومع ذلك فقد كان يصعب استكمال "الحقيقة" ما لم يُتَحْ للقارئ صور لأسامة بن لادن، والرئيس بوش، وآلات الدمار، وحالة النساء تحت حكم طالبان في أفغانستان، وتمثال بوذا، والشهيدة وفاء إدريس. فعندما تجري الكتابة والبحث في أحداث جرت ولا تزال تجري فإن شخوصها ورموزها وتعبيراتها النفسية والعاطفية تصبح جزءًا من "مشاهد" الحقيقة التي يتم البحث عنها واكتشاف أبعادها.

ومع ذلك، فإن القارئ يظل هو البطل الحقيقي لهذه القصة الفرعية تماما لكتاب عن حدث بات الجمهور الواعي جزءا من تفاعلاته. فوسط الكثير من الروايات وأحاديث المؤامرات المتنوعة وردود الفعل المتتالية بسرعة الضوء لتوابع وأحداث تجري باتساع المعمورة، كان القارئ على استعداد لكي يبحث بالعقل والحكمة فيما جرى ودلالاته؛ فلم يكن مقصودًا من المؤلفَيْن تقديم إجابات وترجيحٌ لقصص وبراهين متضاربة، وإنما كان القصد هو أن نعطي للقارئ ما يكفي من المادة العلمية والاتجاهات الفكرية المختلفة في تحليلها لكي يقوم هو أيضا بواجبه في اتخاذ الموقف الذي يراه.

والله ولي التوفيق،،،

د. محمد قدري سعيد **د. عبد المنعم سعيد**

القاهرة ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٢

تـقـديــــم :

فى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حدثت مجموعة من الحوادث فى الولايات المتحدة الأمريكية تعد أغرب من الخيال ، حينما قامت طائرتان مدنيتان بضرب بُرجى مركز التجارة العالمى بمدينة نيويورك فى واقعة سجلتها كاميرات التلفزيون، وبعدها بقليل قامت طائرة مدنية أخرى بضرب مبنى وزارة الدفاع الأمريكية أو البنتاجون بمدينة واشنطن، وبعدها سقطت طائرة مدنية رابعة فى ولاية بنسلفانيا وهى فى طريقها لضرب هدف غير معروف، ربما يكون مبنى الكونجرس أو البيت الأبيض أو هدفا آخر لا يتخيله أحد ولا يخطر ببال بشر. وكان الحدث مذهلا بكل المقاييس، وكأنه جاء إلى العالم، أو المشاهدين، من قلب أكثر الأفلام السينمائية إثارة وغموضا وعنفا، أو أنه جاء من جوف تاريخ طويل حشدت فيه الإنسانية كل أحقادها ومآسيها. وحمل الحدث فى مقوّماته قصص ثلاثة آلاف قتيل وقتيلة من كل الملل والجنسيات والأديان والألوان، ودُفن معهم تحت الأنقاض مستقبلا كان يقينا سوف يأتى مزدحما بابتسامات ودموع. وأكبر من القصص الفردية التى تخللته كانت السياسة التى جاءت فى أنقى صورها عندما تكون تعبيرا عن استخدام القوة فى أقسى صورها، مولّدة سلسلة من ردود الأفعال التى هى أشبه بانصهار قلب المُفاعل النووى تحت وطأة تفاعلات يعجز عن تحملها. ومع انصهار قلب المفاعل الدولى أصبح العالم مكانا يتفجر بتفاعلات أخرى جديدة ومستحدثة تفرض على العقول تحديات هائلة.

ولفترة طويلة قادمة فإننا لن نعلم ما جرى بيقين كامل، وعلى الأرجح أن أحدا لن يكون قادرا على حل ألغاز هذا اليوم من أيام الهول. وليس مقصودا هنا فقط التعرف على حقيقة قصة الهجوم بالطائرات المدنية على الأهداف الحيوية، فربما يكون الاقتراب من ذلك ممكنا، ولكن ما هو أعقد أن نعرف لماذا حدث ما حدث، وما هى تلك القوى التى تفاعلت حتى صهرت مُفاعل العالم، والأهم إلى أين تقودنا وتقود معنا البشرية كلها. فرغم أن الحدث كان سببا فى مقتل ما يُعَدُّ بمعايير المعارك الحربية عددا صغيرا، إلا أن التعبيرات الحضارية له، وما جره من تحولات فى العلاقات الدولية، وما فتحه من صراعات صريحة وكامنة، لا نكاد نجد له مثيلا فى التاريخ.

هذا الكتاب هو محاولة من جانب مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام للاقتراب من لغز هذا اليوم وما جرى فيه وما ترتب عليه من نتائج. ولا يدعي المركز أنه قام بحل هذا اللغز، وإنما هى محاولة للتعرف على أجزائه ومكوناته، واستكشاف مواطن الظلمة فيه، والأهم من ذلك التعرف على بعض من آثاره. وقد بدأ العمل فى هذا الكتاب فى أعقاب الحدث مباشرة، عندما بدأ تجميع ما جاء فى المصادر العلنية المعروفة، وبعدها بدأت عملية إعادة تركيب الموضوع مرة أخرى لكى يكون الموضوع، والحدث، واللغز، منطقيا إلى حد ما بعد أن استعصى كثيرا على الفهم والتحليل.

وإذا كان هناك انحياز فى هذا الكتاب فهو لا يوجد إلا للعقل فقط، فعلينا أن نعترف أن عددا هائلا من القصص قد تزاحم مع القصة التى جاءت نتيجة التحقيقات الأمريكية، ورغم أننا أوردنا جل ما تردد من قصص وحكايات ومؤامرات إلا أننا لم نعطها اهتماما كبيرا. وكان ذلك راجعا إلى أن أيا منها لم يستند إلى وقائع محددة لها تواريخ، وأفراد محددين لهم أسماء، وجهات ومؤسسات لها وثائق ومصادر، وعلى الأغلب فإن هذه القصص قد قامت على أساس البحث عن كل من استفاد بصورة أو أخرى من الحدث واعتباره مرتكبا إياه بالضرورة.

وربما كان الأفضل، وبدون الدخول فى تفاصيل ترى الأحداث من منظور جنائى، التركيز على الحدث ونتائجه باعتباره تصادما عنيفا بوسائل القوة بين قوى سياسية تاريخية كان مقدرا لها أن تصطدم فى هذا الحدث أو غيره على أى حال.

ولذلك فإن هذا الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، الأول منها هو تشريح الحدث ورده إلى عناصره الأولية، وما سبقه ولحقه من تطورات، وما نجم عنه مباشرة من الحرب فى أفغانستان كاستمرار للمواجهة فى ساحة مختلفة فى قلب آسيا بعد أن بدأت فى أمريكا الشمالية. والجزء الثانى يعود إلى القوى والأطراف المباشرة المحركة للحدث، وهى تنظيم القاعدة وقائده أسامة بن لادن وحركة طالبان من جانب، واليمين الأمريكى المسيطر على الإدارة الأمريكية من جانب آخر. أما الجزء الثالث فإنه يعود خطوة أخرى إلى الخلف مع خطوتين إلى الأمام، فهو يعيد توقيع الحدث ضمن أربع قضايا هى "العولمة وصدام الحضارات" و"الأصولية الإسلامية" و"الفكر العسكرى" و"الصراع العربى – الإسرائيلى". كل هذه الموضوعات لم تُخْلَق مع انفجارات مركز التجارة العالمى، وإنما كانت حاضرة وفاعلة، وربما سوف تستمر معنا لوقت طويل بعدها. لكن الانفجارات غيَّرتها وغيَّرَت من طبيعتها، وأضافت لها أبعادا لم يتخيلها أحد من قبل.

لقد كـان هذا الكتـاب نتـاج جهد مشـترك مـن مؤلّفيْه، وبينمـا كـان البنـاء المعمـارى وتحديد المفاهيم نتيجة مناقشات وحوارات عميقة بينهما امتدت على مدى عام كامل، إلا أن طبيعة تخصص كل منهما قد فرضت الأجزاء التى يتحمل مسئوليتها كل منهما. ويتوجه المؤلفان بالشكر والتقدير للباحثة/ عبير ياسين التى قامت بجهد هائل فى متابعة البحث، والحفاظ على مخطوطاته المختلفة، والتأكد من التواريخ والمراجع بالإضافة إلى إعداد بعض الأوراق الخلفية فى عدد من الفصول، كما يتوجهان بالشكر للدكتور/ محمد علام الذى راجع المخطوطة، وتأكد من تكاملها، بالإضافة إلى إعداد الرسوم التوضيحية والجداول التى تحافظ للقارئ على ترتيب الأحداث وتتاليها.

وفى النهاية لا يسعنا إلا الأمل أن يكون هذا البحث عند المستوى الذى يطلبه القارئ الكريم، والله ولى التوفيق.

د. محمد قدرى سعيد   **د. عبد المنعم سعيد**

القاهرة ١١ سبتمبر ٢٠٠٢

الجزء الأول

الحدث .. والأسرار

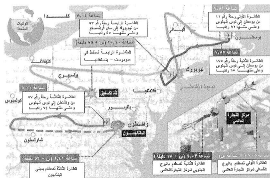
- الهجوم على أمريكا - ١١ سبتمبر ٢٠٠١
- الطريق إلى ١١ سبتمبر
- من الذى فعلها؟ - القصة الأمريكية
- روايات وتأويلات أخرى
- التقصير.. ما الذى كانت تعرفه إدارة بوش؟
- الحملة العسكرية على أفغانستان

الهجوم على أمريكا - ١١ سبتمبر ٢٠٠١

دخل التاريخ الأمريكي خلال دقائق معدودة من الزمن منعطفا جديدا في الصباح الباكر من ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بعد أن تعرضت رموز أمريكا السياسية والعسكرية والاقتصادية لهجوم انتحاري خاطف أسفر عن التدمير الكامل لمركز التجارة العالمي في نيويورك المكون من برجين عملاقين، بالإضافة إلى تدمير الجانب الشمالي الغربي من البنتاجون معقل وزارة الدفاع الأمريكية. وأهم ما أطاح به الحدث ذلك اليقين الراسخ في وجدان الشعب الأمريكي وحكومته ومؤسساته السياسية والشعبية بأن أمريكا، خلف مياه المحيط الواسع وفي حماية قوتها العسكرية الأسطورية، آمنة بعيدة عن مشاكل العالم ومخاطره. ووسط ذهول الصدمة التي انتشرت أمواجها من موقع الحدث إلى داخل الولايات المتحدة ثم إلى أرجاء المعمورة خارجها، انبعثت تساؤلات كثيرة تبحث عن إجابات وسط الركام والدخان المتصاعد إلى عنان السماء، والذي لم ينقشع إلا بعد عدة شهور من حدوث المأساة. ورغم أن قائمة التساؤلات كانت طويلة، إلا أن عددا قليلا منها سبق الجميع يبحث عن وصف مناسب لما حدث، ودلالاته الأمريكية والدولية، وعن كيفية نجاح مجموعة صغيرة من البشر في القيام بتلك المهمة المعقدة ضد معاقل أمريكية من المفترض أنها حصينة وتحت حماية كاملة، وعن الظروف الدولية والأمريكية التي سبقت الأحداث وأدت إليها وأثرت فيها. وهيمن على العالم مناخ ثقيل مفعم بالكآبة والأسى انتظارا لرد فعل أمريكي وشيك محمل بتوقعات سياسية وعسكرية، وتداعيات قريبة وبعيدة.

بدأ الهجوم صباح يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الساعة ٨٤٥ توقيت نيويورك، باصطدام انتحاري مباشر لطائرة ركاب تجارية من طراز بوينج ٧٦٧ تابعة لشركة أميريكان إيرلاينز تحمل على متنها ٩٢ شخصا بالجزء العلوي من البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في نيويورك، بعد أن قام مختطفو الطائرة بالانحراف بها عكس مسارها الأصلي بين بوسطن ولوس أنجلوس. وفي التاسعة وثلاث دقائق اصطدمت طائرة ثانية من طراز بوينج ٧٦٧ تابعة لشركة يونايتد إيرلاينز بالبرج الثاني الجنوبي وكانت تقل ٦٥ شخصا، بعد أن تم تحويل مسارها بين بوسطن ولوس أنجلوس إلى نيويورك أيضا، وأعقب ذلك في التاسعة وثلاث وأربعين دقيقة اصطدام طائرة بوينج ثالثة من طراز ٧٥٧ تابعة لشركة أميريكان إيرلاينز قادمة من مطار دالاس الدولي بواشنطن بمبنى البنتاجون، محدثة فيه فتحة واسعة عرضها مائة قدم مما أدى

إلى مقتل ٦٤ شخصا هم كل ركاب الطائرة وحوالى ١٢٥ من العاملين فى البنتاجون. وفى العاشرة وعشر دقائق، سقطت طائرة رابعة من طراز بوينج ٧٥٧ تابعة لشركة يونيتد إيرلاينز فى سومرست بالقرب من مدينة بيتسبيرج بولاية بنسلفانيا، وكان على متنها ٤٥ راكبا، وكانت فى رحلة بين نيويورك وسان فرانسيسكو. وهناك اعتقاد أن نية خاطفى هذه الطائرة كانت الاصطدام بالبيت الأبيض أو مبنى الكابيتول أو منتجع كامب ديفيد أو الاصطدام بطائرة الرئيس أثناء تحليقها فى الجو. وهناك افتراض آخر أن المجموعة التى خطفت الطائرة قد واجهت مقاومة داخلية من الركاب أدت فى النهاية إلى سقوطها أو أنها أسقطت بواسطة طائرات السلاح الجوى الأمريكى بعد أن رفض مختطفوها الاستجابة للأوامر الصادرة إليهم بالاستسلام.



الطائرات المهاجمة ـ التوقيتات والمسارات

ولقد تسبب هجوم الطائرات المحملة بالوقود فى الانهيار الكامل للبرجين الذى يصل ارتفاعهما إلى ٤١٧ و ٤١٥ مترا مقسمة إلى ١١٠ طابقا، ويعمل بهما حوالى أربعين ألف شخص ويزورهما يوميا قرابة ١٥٠ ألفا، وكان انهيار البرج الجنوبى فى العاشرة وخمس دقائق والشمالى فى العاشرة وثمانية وعشرين دقيقة. وأدى انهيار البرجين إلى

تطاير آلاف الأطنان من الحطام في الشوارع المجاورة، وخلف سحابة ضخمة من الغبار الكثيف غطت كامل منطقة جنوب مانهاتن بطبقة سمكها نصف بوصة من التراب. وأعلن أيضا وسط تلك الأجواء عن انفجار سيارة بالقرب من مقر وزارة الخارجية الأمريكية في واشنطن.

كان وصف المراقبين المبكر للحدث بأنه "بيرل هاربر"[1] أخرى بداية لوضعه في مصاف الأعمال العسكرية الخاطفة الكبرى وعدم الاكتفاء بالنظر إليه على أنه مجرد عملية اختطاف عادية لطائرات مدنية برغم أن تنفيذ العملية كلها لم يستغرق إلا حوالى ساعتين من الزمن. ومع توالى الكشف عن التفاصيل بدت عملية الهجوم المذهلة عملا رفيعا من أعمال القوات الخاصة ذات التخطيط المحكم والإعداد المتأنى، وتجلى تفردها في اختيار الأهداف وما تمثله من قيمة ورمز، وأيضا في الإصرار على إنجاز المهمة حتى الموت. ومن ناحية الخسائر، أوحت مشاهد الدمار من اللحظة الأولى بأنها ستكون هائلة بكل المقاييس بشريا وسياسيا وعسكريا.

فبجانب الخسائر البشرية حفرت الأحداث المتسارعة علامات في التاريخ الأمريكي مؤلمة ومهينة معظمها يسبقه وصف "لأول مرة". فلأول مرة تُغلق المطارات الأمريكية كلها أمام الطيران المدني، ولأول مرة يتعرض البنتاجون لضربة عسكرية منذ انتهاء بنائه في ١٩٤٣، وكذلك كان يحدث لأول مرة إغلاق بورصة الأوراق المالية، وقاعة الاستقلال، ومترو الأنفاق، وديزني لاند ، وغير ذلك من الأماكن ذات القيمة الاقتصادية والثقافية الفريدة والتي تعرف بها أمريكا بين بلاد العالم. وأكثر من ذلك ظلت الولايات المتحدة وقيادتها لعدة ساعات رهينة تخطيط مجموعة من المهاجمين، فقد اندفع نائب الرئيس ريتشارد تشيني إلى مخبأ حصين تحت البيت الأبيض مصمم على أساس تحمل الهزة الناجمة عن انفجار قنبلة نووية، أما الرئيس بوش، الذي كان في فلوريدا، فلم يجد مكانا آمنا يلجأ إليه إلا طائرته ومركز القيادة الحصين في ولاية نبراسكا، قبل أن يرجع في نهاية اليوم إلى مكتبه البيضاوي في البيت الأبيض.

[1] في السابع من ديسمبر ١٩٤١ خلال الحرب العالمية الثانية هاجمت ٣٥٣ طائرة يابانية الأسطول الأمريكي الموجود في "بيرل هاربر" في جزيرة أواهو بهاواي. أسفر الهجوم عن مقتل ٢٣٤١ جنديا أمريكيا و ٥٤ مدنيي كما أدى إلى تدمير وغرق ١٢ سفينة حربية أمريكية وإلحاق الضرر بتسع سفن أخرى، وتدمير ١٦٤ طائرة حربية وإلحاق الضرر بـ ١٥٩ طائرة أخرى. وأدى الهجوم الياباني المفاجئ إلى إعلان الولايات المتحدة الحرب على اليابان ودخولها الحرب العالمية الثانية.

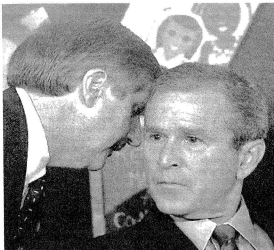


النيران تلتهم مركز التجارة العالمى



ألسنة اللهب تتصاعد من مبنى البنتاجون

كـان الـرئيس بـوش لحظـة تفجـر الأحـداث فـى زيـارة لمدرسـة إمـا بـوكر للأطفـال بساراسوتا بولاية فلوريدا عندما تم إبلاغه بالحادث. ومن هناك صرح للصحفيين على عجل فى التاسعة والنصف أن "البلاد تعرضت لهجوم إرهابى" ولم يكن قد حدث فى تلك اللحظة إلا الاصطدام الأول مـع البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى. غادر الرئيس بوش فلوريدا حوالى العاشرة واتجه إلى قاعدة باركسديل الجوية بولاية لويزيانا ومن هناك صرح أن كل الإجراءات الأمنية قد تم اتخاذها وأن القوات المسلحة داخل وخارج الولايات المتحدة قد وضعت فى حالة طوارئ عليا، وقال أن الولايات المتحدة سوف تطارد وتعاقب من اقترف هذا الفعل الجبان. وغادر بوش قاعدة باركسديل وطار إلى قاعدة أوفوت الجوية بنبراسكا ومنها عقد بالتليفون اجتماعا لمجلس الأمن القومى فى حين لجأت كوندليزا رايس مستشارة الأمن القومى وريتشارد تشينى نائب الرئيس إلى مكان آمن داخل البيت الأبيض. أما وزير الدفاع دونالد رامسفيلد فقد كان على الهاتف وقت الهجوم على البنتاجون يتابع أخبار الرعب القادمة من نيويورك.



صورة الحدث على وجه الرئيس بوش لحظة إبلاغه بنبأ الهجوم

فى حوالى الساعة الرابعة والنصف غادر الرئيس بوش نبراسكا إلى واشنطن، وحوالى السادسة وأربعين دقيقة عقد دونالد رامسفيلد مؤتمرا صحفيا أعلن فيه أن مبنى البنتاجون برغم ما حدث يعمل بصورة طبيعية. وصل الرئيس بوش إلى واشنطن حوالى السابعة مساء وهبطت طائرته التى كانت تحرسها ثلاث مقاتلات فى قاعدة أندروز الجوية ومنها إلى البيت الأبيض حيث عقد أول مجلس حرب مع نائب الرئيس ريتشارد تشينى وكولين باول وزير الخارجية وكونداليزا رايس مستشارة الأمن القومى وجون أشكروفت النائب العام وأندرو كارد رئيس موظفى البيت الأبيض. وفى الثامنة والنصف وجه بوش خطابا إلى الأمة قال فيه إن "الشر قد قضى على آلاف الأفراد" وأضاف أن "هذا العمل قد مزق الحديد لكنه لن يخدش العزيمة الأمريكية"، وقال إن "الولايات المتحدة لن تميز بين الإرهابيين وبين من يؤويهم ويوفر لهم الحماية". وفى

يوم الأربعاء ركز بوش على تأكيد أن الولايات المتحدة ملتزمة بالحرب ضد من قام بهذه الجريمة وحصل على تفويض مجلس النواب والكونجرس خلال يومين فقط بدون نقاش طويل مثل الذى حدث قبل حرب الخليج. وفى يوم الجمعة ألقى خطابا مؤثرا فى كنيسة واشنطن القومية وخلفه جلس آل جور والرئيس السابق بيل كلينتون. ثم اتجه إلى موقع الحدث حيث يعمل عمال الإنقاذ والمطافئ وقال من مكبر صوت رفعه فى يده "إن هؤلاء الذين دمروا هذا المكان سوف يسمعوننا جميعا قريبا جدا".

بيان الطائرات المخطوفة والأهداف

الساعة	الهدف	نوع الطائرة	شركة الطيران	رقم الرحلة	المسار الأصلى للرحلة	عدد الركاب +الطاقم
٨٤٥	البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى	بوينج ٧٦٧	أميريكان إيرلاينز	١١	بوسطن - لوس انجلوس	١١+٨١
٩٠٣	البرج الجنوبى لمركز التجارة العالمى	بوينج ٧٦٧	يونيتد إيرلاينز	١٧٥	بوسطن - لوس أنجلوس	٩+٥٦
٩٤٣	البنتاجون	بوينج ٧٥٧	أميريكان إيرلاينز	٧٧	واشنطن - لوس أنجلوس	٦+٥٨
١٠١٠	سقوط الطائرة فى سومرست بنسلفانيا	بوينج ٧٥٧	يونيتد إيرلاينز	٩٣	نيويورك - سان فرانسيسكو	٧ + ٣٨

كانت عملية الهجوم على أمريكا مكتملة الأركان، فلم يقتصر تأثيرها على بث الذعر والخوف كعادة العمليات الإرهابية التقليدية بل دمرت أهدافا محددة مدنية وعسكرية ووضعت الدولة الأمريكية وقيادتها فى حالة طوارئ مستمرة من ساعة الكارثة وربما لسنوات طويلة تالية. ولم يمنع تدفق الأحداث ونتائجها المأساوية من الشعور بالصدمة إزاء حجم القصور فى أداء أجهزة الأمن والدفاع الأمريكية، وانتشرت علامات الاستفهام عن السبب الذى منع اعتراض الطائرات المهاجمة قبل وصولها إلى أهدافها أو إسقاطها بالصواريخ أو النيران الأرضية الأخرى. لقد كان الوقت كافيا لملاحظة أن الطائرات المخطوفة قد "ارتدت" عائدة إلى الشرق فى عكس مسارها المقرر نحو الغرب. كما توفرت فسحة وقت معقولة بين ضرب البرج الأول وضرب البرج الثانى، وبين الاصطدام بالبرجين ولحظة مهاجمة مبنى البنتاجون. فقد انقضت الطائرة على البنتاجون بعد حوالى ٥٨ دقيقة من ضرب البرج الأول و ٤٠ دقيقة من مهاجمة البرج الثانى فى نيويورك .

الأحداث الهامة في يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١

الساعة	الحدث
٨٤٥	اصطدام طائرة أميريكان إيرلاينز رحلة رقم ١١ بالبرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في نيويورك.
٩٠٣	اصطدام طائرة يونايتد إيرلاينز رحلة ١٧٥ بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي في نيويورك.
٩٣٠	الرئيس بوش يعلم بحدوث الهجوم لأول مرة أثناء وجوده في مدرسة للأطفال بساراسوتا بولاية فلوريدا.
٩٤٠	إغلاق كل المطارات لأول مرة في التاريخ الأمريكي.
٩٤٣	تعرض مبنى البنتاجون للهجوم.
٩٤٥	إخلاء البيت الأبيض.
١٠٠٥	انهيار البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي.
١٠١٠	سقوط طائرة رابعة مختطفة في بنسلفانيا.
١٠١٣	إخلاء مبنى الأمم المتحدة.
١٠٢٨	انهيار البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي.
١٠٤٥	إخلاء كل مكاتب الحكومة الفيدرالية.
١٠٥٤	إخلاء أماكن البعثات الدبلوماسية الإسرائيلية في أمريكا.
١٦٣٠	رحيل الرئيس بوش من قاعدة أوفوت في نبراسكا التي طار إليها من فلوريدا.
١٧٢٠	انهيار مبنى ثالث في مركز التجارة العالمي.
١٨٥٤	عودة الرئيس بوش إلى البيت الأبيض.
٢٠٣٠	الرئيس بوش يوجه خطابا إلى الأمة الأمريكية.

وبسبب جسامة المصيبة ورغبة الشعب الأمريكي في أن يبدو موحدا في مواجهتها بعد أن وجد نفسه فجأة في حالة حرب مع عدو خفي، لم يحدث تبادل فوري للاتهامات ولم تبادر الإدارة إلى توجيه لوم صريح إلى أحد. إلا أن المناخ العام كان معبأ بالشكوك في أن قصورا معلوماتيا ومخابراتيا فادحا قد حدث، وأن أجهزة الأمن الأمريكية قد أخفقت في اكتشاف عملية طويلة ومعقدة خلال مراحل التخطيط لها، أو أثناء فترات التدريب عليها والاتصال بين أفرادها قبل أن يصلوا إلى مرحلة التنفيذ الفعلي. وامتدت الشكوك أيضا إلى الفشل الواضح في استجابة نفس الأجهزة للحدث بعد وقوعه والتعامل معه بالسرعة الواجبة. فقد كان هناك أكثر من ٤٥ دقيقة بين لحظة انحراف

الطائرة الثالثة رحلة ٧٧ عائدة من مسارها المعتاد وبين اصطدامها بمبنى البنتاجون، وهو وقت كاف لرفع درجة الاستعداد واعتراض الطائرة قبل أن تصل إلى أسوار البنتاجون.

وبجانب الأداء الضعيف لأجهزة الأمن الأمريكية كانت هناك عوامل أخرى حاسمة ساهمت بشكل رئيسي في نجاح العملية، منها استخدام الطائرات المدنية في الهجوم واستغلال مسارات النقل الجوى الداخلى المزدحم والكثيف في الولايات المتحدة، الأمر الذى شتت انتباه نظم التوجيه الأرضية بعيداً عن ملاحظة ما يحدث وتفسيره بطريقة سليمة. وقد ثارت شكوك لم يتم التيقن منها حتى الآن حول وجود تعاون بين المختطفين وبعض العاملين فى مجال التوجيه الجوى، أو أن الحاسبات التى تولت توجيه الطائرات ومراقبة مساراها من الأرض قد تم التلاعب فى برامجها. أما العامل الثانى الذى ساهم فى نجاح العملية فقد كان "انتحارية" الهجوم.

ومنذ اللحظات الأولى للحدث واجه العرب والمسلمون انحيازا إعلاميا ضاريا ضدهم، وشحنا للرأى العام، ومحاولة دفع نتائج التحقيق الأولية فى اتجاه إلصاق التهمة بهم. واتجهت الإدارة الأمريكية إلى إضفاء طابع السرية الشديدة على التحقيقات الجارية وعلى تداول المعلومات، وتبنت حملة واسعة للدعوة إلى حتمية الحل العسكرى ضد الإرهاب، وقامت بتوجيه أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة وزعيمه أسامة بن لادن.

ولقد أفرز الحدث بعد وقوعه مباشرة بعض التداعيات السريعة والمبكرة. فبجانب الخسائر المادية الفادحة باتت مصداقية القوة العسكرية الأمريكية وقدرتها الحقيقية على الأداء والفعل فى الميزان. وترددت تعليقات عن جدوى بعض التوجهات العسكرية للإدارة الأمريكية مثل حماسها لإقامة مشروع النظام الدفاعى المضاد للصواريخ وأهمية النظر فى مدى جدواه وأولويته فى الوقت الحالى وفى المستقبل. وأيضا كيفية التعامل مع الإرهاب وأسلوب مكافحته، وهل يتم ذلك بعملية عسكرية تُرضى نزعة الانتقام عند أمريكا، أم بتكاتف النظام الدولى من أجل بناء نسق متكامل تشارك فيه كل الدول على أسس قانونية وثقافية بجانب الأسس الأخرى الأمنية والسياسية والعسكرية. وطرح على مائدة النقاش مستقبل السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وموقفها من العراق وإيران وليبيا وكوريا الشمالية وكل ما تطلق عليه الدعاية الغربية "الدول المارقة"، واحتمالات تحول حدث الهجوم على أمريكا إلى نقطة انفجار وصدام مع هذه الدول، أو أن يصبح منعطفا للحوار معها واحتوائها داخل المنظومة الدولية.

لقد أسفرت أحداث ١١ سبتمبر عن مقتل أكبر عدد من المدنيين الأمريكيين فى يوم واحد خلال التاريخ الأمريكى كله، الأمر الذى أشعل المشاعر الوطنية الأمريكية بصورة لم تحدث من قبل. فزاد الطلب على شراء العلم الأمريكى بواسطة الأفراد

والمؤسسات وارتفع ثمنه بصورة مفاجئة إلى عشرة أمثاله قبل الكارثة. حتى أن عدد العاملين في قسم شحن المنتجات بمصنع "أنين" لإنتاج الأعلام ارتفع من ثمانية أفراد إلى ١٠٥ فردا، ووصلت مدة تنفيذ الطلبيات إلى أكثر من ثمانية أسابيع. وعرضت بعض المصانع الصينية المساعدة لتغطية الفجوة في إنتاج الأعلام. ولم يقتصر طلب شراء الأعلام على التلويح بها بل لاستخدام أعداد كبيرة منها في لف أجساد الضحايا.

ويبدا جليا أن الكارثة قد وحدت الأمريكيين بصورة لم تكن ظاهرة من قبل، ودفعتهم إلى التعبير بوضوح عن هذا التماسك والوقوف بصلابة خلف إدارة الرئيس بوش. ولقد ظهر ذلك في مظاهر واضحة مثل التطوع لمساعدة أسر الضحايا والتخفيف عنهم، وطلب الالتحاق بالقوات المسلحة وأجهزة الأمن والمخابرات، والتقدم لتعلم العربية بعد أن اكتشفت مؤسسات الأمن الأمريكية أنها تعاني من نقص حاد في ذلك المجال. وكانت سرعة العودة للأحوال الطبيعية هدفا واضحا للجمهور الأمريكي، وفي نفس الوقت القبول معنويا وماديا بحقيقة أن الولايات المتحدة سوف تدخل حربا طويلة، وأن التركيز على أمن المطارات والطرق وباقي الأماكن الحساسة سوف يزيد فوق المعدلات المعتادة المعروفة للجمهور. الحدث أيضا جذب الضوء إلى ضرورة مراجعة مناهج التعليم في اتجاه معرفة أفضل بالعالم، وتطوير التكنولوجيات اللازمة لتحقيق استقلال الإرادة الأمريكية في العديد من المجالات وعلى رأسها الطاقة.

وترك أعضاء الكونجرس الأمريكي الجمهوريون والديموقراطيون خلافاتهم جانبا، وعقدوا لقاء مشتركا في مدخل الكونجرس لإعلان تأييدهم للرئيس بوش ووقوفهم خلفه، واندفعوا في موجة غناء جماعي "ليبارك الله أمريكا"، وبدون أدنى معارضة خصص الكونجرس أربعين بليون دولار لأغراض التعويضات وتخفيف آثار الأزمة. وفي هذا الإطار طرح الناس أيضا فكرة البحث عن الأسباب التي أدت بالإرهابيين إلى اقتراف تلك الجريمة، لكن البعض رفضوا أن يضعوا اللوم على السياسة الأمريكية الخارجية أو إسرائيل واعتبروا أن الإرهاب شر في كل الأحوال.

وتفجرت في أعقاب الحادث مباشرة مظاهر التأييد والمساندة للولايات المتحدة. ففي جميع الدول الأوربية دعي الناس للوقوف ثلاث دقائق حدادا على أرواح الضحايا. وأعلن اتحاد كرة القدم الدولي تأجيل مباريات كأس الاتحاد الأوروبي يومي الأربعاء والخميس التي تلت الحدث، وألغي المعرض الدولي للسيارات في فرانكفورت، واندفعت موجات التعزية من عامة الناس والشخصيات الرسمية إلى السفارات الأمريكية في العواصم المختلفة.

ولم يكن سهلا على الولايات المتحدة تجنب الخيار العسكري بعد كل ما حدث نتيجة الضغوط الناشئة من الرغبة في الانتقام والرغبة في استعادة الهيبة الأمريكية أمام

العالم. ولم تمض إلا أيام قليلة حتى تشكلت الملامح الأولى لحملة عسكرية وتآلف دولى واسع ضد أفغانستان ونظام طالبان الحاكم بعد أن اتهمتهم بإيواء عناصر تنظيم القاعدة ورئيسه بن لادن.

على الجانب الآخر أنكر أسامة بن لادن مسئوليته عن العملية فى بيان بثه من خلال صحيفة باكستانية، وأبدى مع ذلك سروره لما حدث ومدح من قاموا بتنفيذ العملية. كما قدمت حركة طالبان فى أفغانستان تعازيها للشعب الأمريكى ونفت تورط بن لادن فى العملية ووعدت أن تحقق فى الموضوع بعد فحص الأدلة المقدمة.

لاشك أن مهمة الرئيس الأمريكى بوش بنهاية يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم تكن بنفس درجة وضوح مهمة سلفه الرئيس فرانكلين روزفلت عندما انقض الطيران اليابانى على الأسطول الأمريكى الرابض فى بيرل هاربر فى السابع من ديسمبر ١٩٤١. فالعدو هذه المرة ليس ظاهرا للعيان ولا يمتلك أركان الدولة المعروفة المحددة، ولا يمكن وصفه بسهولة بأنه فرد أو مجموعة أفراد أو جماعة أو عدة جماعات وربما أيضا يساند ويتعاطف مع هؤلاء دول وشعوب. والمعضلة الثانية التى انتهى بها يوم ١١ سبتمبر أن مواجهة ما عسكرية قادمة لا محالة ولا يمكن تجنبها بعد كل ما حدث، ورأى بعضهم أن هذه المواجهة لا تعكس عداء بين دول بقدر ما تعكس رفضا بين أديان وحضارات وطريقة تفكير وحياة. وقد وضعت هذه المعضلة العرب والمسلمين فى مواجهة محتملة مع الولايات المتحدة إذا لم يتم معالجة الأمر بالسياسة والحكمة، كما فرضت على الرئيس الأمريكى أن يختار مهمة طويلة الأمد غامضة النهاية أطلق عليها "الحرب ضد الإرهاب". أيضا كان على رأس قائمة مهام الرئيس بوش معرفة حقيقة ما حدث ومن أين جاء هؤلاء الناس وكيف انتشروا داخل الولايات المتحدة دون أن يشعر بهم أحد.

ومع مطلع شمس يوم الأربعاء ١٢ سبتمبر ٢٠٠١ وجدت الولايات المتحدة أنها قد فقدت أشياء مهمة من رموزها الوطنية، ونعت آلافا من أبنائها بعد أن فقدوا حياتهم. فى يوم واحد فقدت أمريكا أكثر من ٢٨٠٠ قتيل من العاملين فى البرجين العملاقين لمركز التجارة العالمى فى نيويورك، وفقدت ٢٦٦ شخصا كانوا على متن الطائرات الأربع المخطوفة، بالإضافة إلى فقد ٢٦٥ رجل مطافئ و٨٥ رجل بوليس. وفى النهاية افتقد الأمريكيون الطمأنينة التى كانوا ينعمون بها منذ عقود بعيدة.

الطـــريـــق إلـــــى ١١ سبتمبر

بالنسبة للأمريكيين، وربما بالنسبة للعالم كله، يبدو العالم بعد ١١ سبتمبر مختلفا كثيرا عما كان عليه قبله، لكن من يدقق فى مسار الأحداث وتفاصيلها منذ انتهاء الحرب الباردة وحتى يوم الهجوم على أبراج مركز التجارة العالمى فى نيويورك سوف يكتشف أن الأمور كانت تتحرك، وكانت الأحداث تتراكم فى اتجاه وقوع حدث كبير من هذا النوع؛ ومع ذلك فشلت الأجهزة الأمنية فى الغرب بشكل عام وفى الولايات المتحدة بشكل خاص فى رؤية هذا التحرك والتنبؤ بالنتيجة التى سوف يفضى إليها قبل وقوعها. وحتى يمكن فهم ما حدث، فمن المهم أن نرجع قليلا إلى الوراء ونلقى نظرة على سنوات التسعينات، بعد أن تحول العالم من حالة الحرب الباردة والقطبية الثنائية إلى حالة القطب الواحد والدولة العظمى الوحيدة..الولايات المتحدة الأمريكية.

بداية الطريق المؤدى إلى ١١ سبتمبر كانت فى أفغانستان، عندما قررت الولايات المتحدة فى الثمانينات مساعدة المجاهدين المسلمين ودعمهم بالمال والسلاح لمحاربة واستنزاف القوات السوفييتية الموجودة هناك. لقد كانت الولايات المتحدة فى الحقيقة هى صاحبة فكرة استخدام مفهوم الجهاد فى الإسلام لزعزعة أركان الاحتلال السوفييتى فى أفغانستان. وظلت الولايات المتحدة حتى ١١ سبتمبر تعتقد أن عملية تسليح وتدريب المجاهدين المسلمين كانت من أنجح العمليات السرية لوكالة المخابرات الأمريكية خلال الحرب الباردة، لكن العملية كلها انفجرت فى الاتجاه المعاكس لأن الولايات المتحدة تركتهم وشأنهم بعد أن تحقق لها ما كانت تريد. ومن المفارقات أن بعض الأسلحة الأمريكية التى أعطتها أمريكا للمجاهدين لاصطياد الطائرات السوفييتية ـ مثل الصاروخ "استنجر" المضاد للطائرات ـ كانت من الممكن أن تمثل خطرا على الحملة العسكرية التى شنتها الولايات المتحدة بعد ذلك على أفغانستان فى أكتوبر ٢٠٠١.

لقد بدأ الطريق إلى ١١ سبتمبر مع انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان وعودة أعداد كبيرة من المجاهدين إلى بلادهم، ولجوء أعداد أخرى إلى الولايات المتحدة بجوازات سفر وتأشيرات دخول رتبتها لهم وكالة المخابرات الأمريكية. ولم يكن أمام هؤلاء المجاهدين بعد أن قاتلوا لسنوات طويلة تحت رايات دينية وبعد أن جمعتهم الظروف مرة أخرى معا فى "مكتب الخدمات" فى بروكلين بنيويورك أو "معسكر

الكفاح" كما كانوا يطلقون عليه إلا أن يفرغوا طاقاتهم النفسية والفكرية في نفس اتجاهها السابق. فهؤلاء المجاهدون لم يكونوا مرتزقة يغيرون جلودهم بمجرد انتهاء مهمتهم، لكنهم كانوا من البداية أصحاب فكر ديني راديكالي يتفق تماما مع جهادهم ضد الروس الملحدين، ويتفق أيضا وربما أكثر مع حربهم بعد ذلك ضد الولايات المتحدة والغرب وإسرائيل المعادين من وجهة نظرهم للإسلام. بالنسبة لهم كانت أفغانستان مجرد مكان يتدربون فيه لتغيير الأحوال في بلادهم وأيضا لتغيير العالم مثل أي مشروع فكري وسياسي طموح. وفي الحقيقة لم تقتصر عودة المجاهدين إلى الولايات المتحدة، بل عاد عدد كبير منهم إلى بلادهم واستأنفوا الجهاد كما يرونه من وجهة نظرهم في مصر والجزائر واليمن وباقي المنطقة العربية. وبشكل عام تعرض العالم العربي والإسلامي لاجتياح فكري متطرف ومسلح تزامن مع سقوط الفكر الاشتراكي والشيوعي على مستوى العالم، ومع انتصار الثورة الإسلامية في إيران وقيام نظام للحكم داخله من القادة الدينيين.

في تلك الفترة من نهاية الثمانينات برزت شخصية السيد نصير داخل مكتب الخدمات بنيويورك وظهر معه صديقه الحميم محمود أبوحليمة. السيد نصير كان مهندسا أما أبو حليمة فقد عمل في إزالة الألغام أثناء وجوده في أفغانستان. ومن داخل مكتب الخدمات انطلقت أول عملية على مسرح الجهاد الجديد في نيويورك عندما أطلق نصير في ٥ نوفمبر ١٩٩٠ النار على حاخام يهودي متطرف يسمى مائير كاهانا داخل صالة مزدحمة بفندق ماريوت. كان كاهانا بالغ العداء والكراهية للعرب والمسلمين، ولم يكن يخفي أمنيته في تخليص إسرائيل من "الكلاب العرب" على حد وصفه. ووجدت المباحث الفيدرالية عند تفتيش شقة نصير أوراقا بها معلومات عن كيفية صنع القنابل، وصورا لمبانٍ مشهورة داخل الولايات المتحدة مثل مبنى الإمباير ستيت ومركز التجارة العالمي في نيويورك.

ولم يمض إلا وقت قصير حتى انفجرت سيارة في ٢٦ فبراير ١٩٩٣ بها ٧٠٠ كيلوجرام من المواد المتفجرة داخل جراج مركز التجارة العالمي في نيويورك. ونتج عن هذا الحادث مقتل ستة أفراد وجرح أكثر من ١٠٠٠ شخص. واكتشف المحققون أن الهدف من العملية كان تدمير المركز بالكامل، وأن المادة المتفجرة كانت مخلوطة بمادة السيانيد التي تحولها عند انفجارها إلى سلاح كيماوي سام. واكتشف المحققون أيضا علاقة المنفذين للعملية بالشيخ عمر عبد الرحمن الزعيم الروحي لتنظيم الجماعة الإسلامية في مصر والذي دخل الولايات المتحدة أيضا بمساعدة المخابرات الأمريكية، وكان للرجل صلة بالمجموعة التي اغتالت الرئيس السادات في أكتوبر ١٩٨١. كان من بين المنفذين لهذه العملية رمزي يوسف الذي قبض عليه بعد فراره إلى باكستان، وبعد القبض على صديقه عبد الحكيم مراد الذي كان يخطط لقتل بابا روما في فبراير

١٩٩٥. مـارَسَ رمـزى يوسف وعبد الحكيم مراد معًا التفكير فـى عمليات إرهابيـة مبتكرة، منها نسف مبنى وكالة المخابرات الأمريكية، ومنشآت نووية، وغير ذلك من الأفكار غير التقليدية الجديدة، وحرص عبد الكريم مراد أيضا على حضور دروس لتعلم قيادة الطائرات.

وفى ديسمبر ١٩٩٤ قامت جماعة الجيش الإسلامى الجزائرية باختطاف طـائرة إيرباص تابعة لشركة إيرفرانس تحمل ٢٧٢ مسافرا. كانت الخطة بعد خطف الطـائرة الاندفاع بها إلى فرنسا والاصطدام ببرج إيفل الشهير فى عملية انتحارية. المشكلة التى واجهت المختطفين عدم استطاعة أى منهم قيادة الطـائرة، وتمكن قائدها من خداعهم وهبط بها فى مدينة مارسيليا الفرنسية حيث تمكنت قوات الأمن من اقتحام الطـائرة وإنقاذ الرهائن.

ومن الواضح أن بيروقراطية رجال المخابرات الغربية قد منعتهم من الانتباه لتلك الأفكار الجديدة فى اختيار الأهداف وفى طرق تدميرها، واعتبرت التصميمات والأوراق التى وجدتها عند تفتيش مقر إقامة هؤلاء المتطرفين مجرد أفكار خيالية. المفاجأة أن تلك الأفكار تحولت فى ١١ سبتمبر إلى حقيقة واقعة. وكان القبض على رمزى يوسف وإعدامه بعد محاكمته خطوة مهمة فى الحرب ضد الإرهاب، لكنه لم يمثل مؤشرا لصحوة انتباه حقيقية فى فكر نظم تلك المخابرات تتفق مع حجم الخطر الداهم.

برز أسامة بن لادن على مسرح الأحداث مشاركا فى الجهاد ضد الوجود السوفييتى فى أفغانستان، ثم انتقل إلى السودان فى ١٩٩١ وتعاون مع النظام الإسلامى هناك، ثم عـاد إلـى أفغانسـتان فـى سـنة ١٩٩٦ ليؤسـس فـى فبرايـر ١٩٩٨ "الجبهـة الإسلامية العالميـة للجهـاد ضـد اليهـود والصـليبيين"؛ وهـو اتحـاد مـن مجموعـة مـن الفصـائل الإسلامية يتبنـى توسـيع فكـرة الجهـاد إلـى العـالم كلـه، وظهـر بيـان إنشـاء التنظـيم فـى صـحيفة القـدس العربـى اللندنيـة بتوقيـع بـن لادن عـن تنظـيم القاعـدة، وتوقيـع أيمـن الظـواهرى عن تنظـيم الجهـاد، وتوقيـع أبـو رمضـان ياسين عن الجماعـة الإسلامية، والشيخ مير حمزة عن جمعية العلماء الباكستانية، وفضل الرحمن خليل عن الحركة الإسلامية ببنجلاديش.

شـهدت سنوات التسعينات عملية مراجعـة عميقة لدور الأجهزة الأمنية فـى الدول الغربيـة، فتمّ الاستغناء عن أعداد كبيرة من الجواسيس بعد أن قلت الحاجة إليهم مـع انتهـاء الحـرب البـاردة، وخُفضـت الميزانيـات المخصصـة للحصـول علـى المعلومـات السـرية. وبـدأ الحديث عـن دور جديد للمخـابرات يميل أكثر ناحيـة جمـع المعلومـات الاقتصـادية والتكنولوجيـة؛ أمـا مـن ناحيـة الأدوات المسـتخدمة وطـرق العمـل فقد ازداد

الاعتماد على الوسائل التكنولوجية مثل التجسس البصرى باستخدام الأقمار الصناعية، والتجسس الإشارى على وسائل الاتصالات الهاتفية وعلى رسائل الإنترنت. وتحول الاهتمام إلى جمع المعلومات من مصادرها العلنية مثل الصحف والمجلات ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والتجمعات المدنية بهدف تطوير رؤية جديدة للسيطرة الاجتماعية والسياسية.

ومع تصاعد خطر الإرهاب واحتمالات تعرض الأرض الأمريكية نفسها لتهديدات جديدة من الخارج يمكن أن تضرب بنيتها العمرانية والبشرية والمعلوماتية، بدأ الإلحاح على أهمية التنسيق بين وكالة المخابرات الأمريكية (سى آى إيه) ومكتب التحقيقات الفيدرالى (إف بى آى) لمواجهة الطبيعة الخاصة للإرهاب نظرا للتداخل المتوقع بين مصادره الداخلية والخارجية. واستجابة لذلك، تم إنشاء مركز لمقاومة الإرهاب فى الدور الأرضى داخل مبنى قيادة وكالة المخابرات الأمريكية فى لانجلى بفرجينيا. ومن خلال التطبيق العملى برزت صعوبات كثيرة فى التنسيق بين الإدارتين وفى بناء جسور مشتركة بينهما. فالمخابرات المركزية تفضل وتجيد المراقبة وجمع المعلومات على مهل، أما المباحث الفيدرالية فتميل أكثر إلى سرعة الوصول إلى الجانى والقبض عليه. ولم يكن هناك من الناحية المؤسسية على مستويات الحكومة العليا من يملك السلطة التى تؤهله لفرض التعاون والتنسيق على الوكالتين ولوم أو معاقبة الخارج منهما عن المسار، خاصة أن موضوع الإرهاب لم يكن ملحا بالنسبة لإدارة الرئيس كلينتون المشغولة فى ذلك الوقت بمشكلة البوسنة.

فى هذا التوقيت الحرج الذى تمر فيه أجهزة الأمن والمعلومات فى الولايات المتحدة بتحولات هيكلية وفكرية تعرضت معسكرات الجيش الأمريكى فى أبراج الخُبَر بقاعدة الملك عبد العزيز الجوية فى الظهران بالمملكة العربية السعودية لهجوم بعربة معبأة بشحنة كبيرة من المتفجرات فى ٢٥ يونية ١٩٩٦، نتج عنه مقتل نحو عشرين أمريكيا ومئات آخرون من الجرحى. وعكست عملية الخبر حدود التعامل مع الإرهاب كجريمة عادية، وكذلك صعوبات التعاون والتنسيق بين أجهزة المخابرات والتحقيقات الأمريكية والسعودية نتيجة اختلاف القيم وأساليب العمل ورفض السلطات المحلية تدخل الأجهزة الأمنية الخارجية فى عملها.

وفى أغسطس ١٩٩٨ وبنفس أسلوب استخدام العربات المفخخة بالمتفجرات تم تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى تنزانيا وكينيا، وقتل فى العملية أكثر من ٢٢٤ شخصا منهم ١٢ أمريكيا. فى هذه العملية الكبيرة سجل تنظيم القاعدة نقاطا كثيرة لصالحه، فقد استطاع تفجير سفارتين فى بلدين مختلفين فى توقيت واحد وبدقة عالية، وبدا واضحا فشل المخابرات الأمريكية فى التنبؤ بالحادث قبل وقوعه، وأيضا فشلها فى اختراق شبكة تنظيم القاعدة. واشتعلت بين القاعدة ووكالات الأمن الأمريكية حرب

ضروس علنية حينا وخفية فى معظم الأحيان، وكثفت الوكالات الأمريكية من أنشطة التنصت على اتصالات تنظيم القاعدة فى مواجهة نشاط مضاد من تنظيم القاعدة لإغراق الوكالات الأمريكية فى سيل من المعلومات المشوشة. وانتقاما لتدمير السفارتين استخدمت الولايات المتحدة صواريخ الكروز بعيدة المدى فى ضرب مصنع أدوية فى السودان بحجة قيامه بإنتاج مواد تصلح لتطوير أسلحة كيماوية، وفى ضرب معسكرات تدريب للقاعدة فى أفغانستان. واكتشفت وكالة المخابرات المركزية أهمية استخدام عملاء يجيدون العربية ويتولون بدورهم تجنيد عملاء آخرين فى محاولة لاختراق خلايا تنظيم القاعدة. وفى تلك الفترة تعرفت المخابرات الأمريكية على علي محمد وهو ضابط مصرى سابق التحق بالجيش الأمريكى واتصل بـ سيد نصير فى مكتب الخدمات وسافر إلى أفغانستان وحارب مع المجاهدين وعمل بعد ذلك كعميل مزدوج بين الأمريكيين والجماعات الإسلامية المتطرفة، ومن خلاله عرفت المخابرات الأمريكية بوجود صلة بين بن لادن وبين محاولة تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك سنة ١٩٩٣. وهذا الرجل هو أيضا أول من شرح للمخابرات الأمريكية كيفية استخدام بن لادن للعملاء "النائمين" وكيفية تنشيطهم عند اللزوم ودفعهم إلى أماكن معينة لتنفيذ عمليات إرهابية جديدة.



أبراج الخُبَر فى الظهران بعد الهجوم فى يونية ١٩٩٦

وشـهدت السـنوات الأخيـرة مـن التسـعينات أكثـر مـن فشـل لوكالـة المخـابرات الأمريكية، وبدا ضعفها في جمع المعلومات الضرورية لتنفيذ عملياتها الخارجية، مثل عملية قصف مصنع الأدوية في السودان، وقصف معسكرات التدريب في أفغانستان، وأيضا فشلها في القضاء على بن لادن في نفس العملية. وخلال السنة الأخيرة من ولاية الرئيس كلينتون تصاعد قلق الإدارة الأمريكية من خطر الإرهاب، وقال ساندي برجر مستشـار كلينتـون للأمـن القـومي أنـه "ينـتفض صـاحيا كـل ليلـة متوقعـا أن يـرن جـرس التليفون معلنا عن وقوع عملية إرهابية جديدة".

ولم تتوقف محاولات الإدارة الأمريكية عن صيد بن لادن برغم وجود أمر رئاسي صدر في ١٩٧٦ يمنع اغتيال القادة الأجانب، إلا أن كلينتون استثنى قادة الإرهاب من هذه الميزة وأصدر فـي ١٩٩٨ أمـرا يعفـي رجـال المخـابرات مـن المسـاءلة فـي حالـة قيـامهم باغتيـال بـن لادن. وحاولـت الحكومـة الأمريكيـة أيضـا الـتخلص مـن بـن لادن بالتعاون مع المعارضة الأفغانية التي حاولت بالفعل ضربه بقذيفة بازوكا لكن القذيفة أصـابت عربـة أخرى في القافلة. وأصبح بن لادن علـى رأس قائمـة مـن عشـرة أفراد مطلوب القبض عليهم بواسطة المباحث الفيدرالية التي أعلنت عن ٥ ملايين دولار لمن يقدم معلومات تؤدي إلى القبض عليه.

وحاول رئيس وكالة المخابرات الأمريكية جورج تينيت التحذير من خطر بن لادن والقاعدة، لكن الكـونجرس فسـر الأمـر بأنـه محاولـة للحصـول علـى تمويـل إضـافي للمخـابرات. وارتفع القلق إلـى مسـتويات غير مسبوقة عندما بدأ التفكير فـي احتمـال اسـتخدام أسـلحة الـدمار الشـامل الكيماويـة والبيولوجيـة والنوويـة فـي عمليـات إرهابيـة. وبرغم كل هذا الاهتمام والعمليات التي لا تتوقف من هذا الطرف أو ذاك ، كان الشعور السائد يميل إلى الاعتقاد بأن الخطر حقيقي لكنه ليس عاجلا، وأن بن لادن سوف يستمر في توجيـه ضـرباته إلـى أهداف سهلة في الشرق الأوسط أو أوروبـا، لكن الخيـال لـم يذهب بعيدا إلى عمليات يتم تنفيذها داخل الولايات المتحدة برغم كل المحـاولات القليلـة السابقة.

ووسط هذا التوتر دق جرس الإنذار بشدة في أذن الحكومـة الأمريكيـة عندما حدث مـا عـرف فـي ذلـك الوقـت بـمؤامرة الألفيـة Millennium Plot. فقبـل أعيـاد رأس السـنة ٢٠٠٠ وقبـل بدايـة الألفيـة الجديـدة تـم القبض علـى أحمـد رسـام بواسـطة أحـد رجـال الجمارك في لحظـة دخولـه إلـى الولايـات المتحدة من الحدود الكندية ومعه تصميمات قنبلة. وكان رسام جزءا من مؤامرة هدفها تنفيذ عملية كبيرة مع بداية القرن الجديد في لوس أنجلوس بتوجيه ضربة إلى هدف مشهور مثل مطـار المدينـة أو أي هدف آخر لـه قيمة رمزية عالية. وكان رسام عضوا في جماعة الجيش الإسلامي في الجزائر، وهي التي قامت من قبل بمحاولة فاشلة لاختطاف طائرة إير فرانس والاصطدام بها مع برج

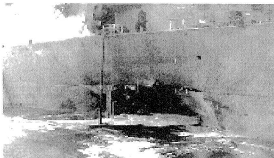
إيقل في سنة ١٩٩٤. وهي نفس المنظمة التي نفذت عدة تفجيرات داخل مترو الأنفاق في باريس خلال سنوات التسعينات. وأخبر رسام المحققين أنه قد عاد لتوه من زيارة لأحد مراكز التدريب التابعة لبن لادن. وهناك بعض التفسيرات ترجح أن بن لادن قد اتخذ من كندا منصة للهجوم على الولايات المتحدة، وأن عددا من المهاجمين الانتحاريين في ١١ سبتمبر قد عبروا الحدود إلى الولايات المتحدة من خلال الحدود الكندية.

وفي أكتوبر ٢٠٠٠، وأثناء قيام المدمرة الأمريكية كول بالتزود بالوقود في ميناء عدن اليمني، تعرضت لعملية انتحارية استخدم فيها قارب مُحمَّل بالمتفجرات اصطدم بها وهي واقفة ونتج عن الانفجار مقتل ١٧ جنديا أمريكيا أما المدمرة نفسها فقد أشرفت على الغرق. ولم تكن تلك العملية المحاولة الأولى في تلك المنطقة ضد سفن أمريكية عسكرية، فقد غرق قارب من قبل يحمل متفجرات قبل أن يصل إلى هدفه، وتكررت المحاولة التي نجحت في ١٢ أكتوبر ٢٠٠٠. واستُقبل فريق التحقيقات الأمريكي استقبالا باردا في اليمن التي أصرت أن يجري التحقيق من خلال الأجهزة الأمنية اليمنية، وعندما أصر الفريق الأمريكي على حمل سلاحه الشخصي معه ولجه معارضة من السلطات في اليمن، وغادر الفريق الأمريكي اليمن بدون أن يكمل عمله.

وتعتبر عملية المدمرة كول محطة مهمة في الصراع بين القاعدة والولايات المتحدة، فقد تبين بعد ذلك من خلال التفاصيل الدقيقة أن عددا من الذين شاركوا بالتخطيط في العملية كان لهم بعد ذلك دور مباشر في تنفيذ الهجوم على أمريكا بالطائرات في ١١ سبتمبر. فمن بين هؤلاء الذين كان لهم دور في العمليتين نجد خالد المحضار ونواف الحزمي اللذيْن تحركا إلى الولايات المتحدة بتعليمات من مركز عمليات القاعدة. وقد تردد بعد ذلك اسما المحضار والحزمي كخاطفيْن لطائرة أميريكان إيرلاينز رحلة ٧٧ التي اصطدمت بالبنتاجون. ومن الطريف أن وكالة المخابرات الأمريكية كانت قد وضعت اسميْ المحضار والحزمي في قائمة المشتبه فيهم بعد عملية المدمرة كول وطلبت متابعة تحركاتهم، وجاءها الرد في ٢١ أغسطس ٢٠٠١ بأن الشخصين المطلوب الاستعلام عنهما موجودان بالفعل داخل الولايات المتحدة.

هناك اسم مهم آخر تجدر الإشارة إليه حيث يعتقد البعض أنه القائد الحقيقي على المستوى التنفيذي لعملية ١١ سبتمبر. إنه محمد عطا الذي يُعتقد أنه قاد الطائرة البيونج ٧٦٧ التابعة لشركة أميريكان إيرلاينز الرحلة رقم ١١ وضرب بها البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في نيويورك. شخصية محمد عطا لا ينطبق عليها الوصف التقليدي للإرهابي الانتحاري القادم من أصول فقيرة أو متوسطة أو أنه ضحل الثقافة أو التعليم. فوالده محامٍ مشهور في القاهرة وأسرته تعيش في مسكن فاخر وسط القاهرة

وله أختان حاصلتان على شهادة الدكتوراه وتعملان فى الجامعة. وقد حصل محمد عطا على شهادة البكالوريوس من القاهرة سنة ١٩٩٠ وسافر بعد ذلك إلى ألمانيا والتحق بالجامعة الفنية فى هامبورج لعمل دراسات عليا فى هندسة المدن.



الفتحة التى خلفها الانفجار فى المدمرة كول



المدمرة كول أثناء جرها خارج ميناء عدن

فى أكتوبر ١٩٩٩ عاد محمد عطا إلى مصر ثم غادرها بعد قليل متعللا بأنه سوف ينهى عمله فى رسالة الدكتوراه. وخلال فترة وجوده فى هامبورج بألمانيا كانت له فترات غياب طويلة فسرت بعد ذلك على أساس أنه كان يقابل رؤساءه من تنظيم القاعدة. وفى تلك الفترة سجلت المخابرات الأمريكية أن عطا قد قابل رجل مخابرات عراقيًا فى دولة التشيك. ونفى والد محمد عطا لوسائل الإعلام اشتراك ابنه فى عملية الهجوم على أمريكا، وقال أنه ضحية مؤامرة إسرائيلية لإحداث وقيعة بين الولايات المتحدة والإسلام وأنه قد تم اغتياله بواسطة الموساد. وكرر والده أن العملية قامت بها الموساد باستخدام طيارين أمريكيين.

خلال الشهور القليلة التى سبقت يوم ١١ سبتمبر ظهر بجانب محمد عطا أثناء وجوده فى الولايات المتحدة شخصية أخرى مهمة اسمها مروان الشيحى. يعتقد مكتب التحقيقات الأمريكى أن الشيحى هو قائد الطائرة الثانية لشركة يونيتد إيرلاينز رحلة ١٧٥ التى اصطدمت بالبرج الجنوبى. وذكرت التحقيقات أن عطا والشيحى قضيا معا وقتا طيبا فى فلوريداء والتحقا بمدرسة جونز لخدمات الطيران Jones Flying Service School لكنهما طردا منها ، وذهبا أيضا معا إلى لاس فيجاس للسياحة والتحقا بمراكز رياضية وفى هذه المراكز كانا يطلبان التدريب على مهارات خاصة.

الطريق إلى ١١ سبتمبر ٢٠٠١

التاريخ	الحدث
ديسمبر ١٩٧٩	الغزو السوفييتى لأفغانستان
فبراير ١٩٨٩	انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان
٥ نوفمبر ١٩٩٠	مقتل الحاخام اليهودى المتطرف مائير كاهانا بواسطة السيد نصير
٢٦ فبراير ١٩٩٣	تفجير أسفل مركز التجارة العالمى فى نيويورك بواسطة سيارة تحمل ٧٠٠ كجم متفجرات
٣ أكتوبر ١٩٩٣	مقتل ١٨ من مشاة الرينجرز فى مقديشيو بالصومال
٢٤ ديسمبر ١٩٩٤	اختطاف طائرة إير فرانس بغرض الاصطدام ببرج إيفل بباريس
٢٥ يونية ١٩٩٦	تفجير معسكر الجيش الأمريكى بمدينة الخبر فى السعودية بواسطة عربة محملة بالمتفجرات
أغسطس ١٩٩٨	تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى تنزانيا وكينيا بواسطة عربات مفخخة
١٢ أكتوبر ٢٠	الهجوم الانتحارى على المدمرة الأمريكية كول أثناء تزودها بالوقود على ساحل عدن باليمن
١١ سبتمبر ٢٠٠٢	الهجوم على مبنى التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون بواشنطن العاصمة

ارتفعت حرارة المواجهة بين تنظيم القاعدة والمخابرات الأمريكية خلال شهور الصيف التى سبقت شهر سبتمبر ٢٠٠١، وقام التنظيم خلال تلك الفترة بعمليات تمويه واسعة لتحويل الأنظار بعيدا عن الحدث القادم. وبسبب هذه العمليات صدرت تحذيرات متتالية أغلقت على أثرها بعض السفارات، وأرسلت السفن الحربية إلى عرض البحر، ورُفِعَت درجة الاستعداد فى بعض قطاعات القوات الأمريكية فى الخارج. وقامت لجنة الأمن القومى التى تجتمع فى البيت الأبيض مرتين كل أسبوع بإرسال الكثير من التحذيرات حتى أنها بدت فى بعض الأحيان متعارضة مع بعضها البعض. وفى نهاية يولية التقطت السلطات معلومات عن وجود مؤامرة لضرب السفارة الأمريكية فى باريس. وفى هذه الحالة لم يكن معروفا على وجه اليقين هل كان التهديد حقيقيا أم أنه كان لتحويل الأنظار بعيدا عن العملية الرئيسية التى يجرى التخطيط والإعداد لها. لقد استخدمت الولايات المتحدة فى تلك الفترة كل ترسانتها فى جمع المعلومات من وسائل التجسس البشرى والتنصت الإشارى الأرضى والفضائى. واتبعت سياسة إصدار تحذيرات علنية تمت إذاعتها فى وسائل الإعلام المختلفة وبشكل ظاهر ومتكرر لاتخاذ إجراءات طوارئ معينة، ولقد حدث ذلك بالفعل عدة مرات فى ٢٢ يونية و ١٧ يولية ٢٠٠١ قبل حادث سبتمبر بأقل من شهرين.

من الواضح أن الحكومة الأمريكية خلال السنوات العشر التى سبقت ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانت مشتبكة فى معركة مع القوى الراديكالية الإسلامية وعلى رأسها تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن. وأن هذه المعركة كانت حامية فى الشهور القليلة التى سبقت الحدث وأنها اعترضت رسائل بالفعل تحمل جُمَلا مثل "نحن جاهزون للتحرك" و "هناك شئ كبير قادم على الطريق" و "سوف يدفعون الثمن"، لكن هذه الرسائل بجانب أشياء أخرى لم تأخذ حقها من التحليل. لم يكن هناك نقص فى المعلومات، ولكن النقص كان فى تخيل الأشياء والارتفاع بها إلى مستواها الصحيح. كان التخيل الغالب أن أمريكا دولة قوية وأن الشعب الأمريكى آمن برغم الظروف العالمية، وأن الإرهابيين مجرد مجموعة من المجرمين لا يمثلون تهديدا مميتا للدولة. كانت هناك حالة من القبول بأن التطرف الإسلامى قد يمثل خطرا للآخرين ولكن ليس لأمريكا حتى بلغ الأمر إلى حد احتضان كبار الإرهابيين فى الولايات المتحدة وأوروبا تحت حجة اللجوء السياسى واستخدامهم وقت الحاجة للضغط على حكوماتهم.

وبرغم الإمكانيات الهائلة التى تتمتع بها الولايات المتحدة فقد كان أداؤها فى الواقع تقليديا وبطيئا، وعجزت عن تفعيل هذه الإمكانيات والوسائل لدرء الخطر القادم. لقد قفزت ميزانية مكافحة الإرهاب من ٢ بليون إلى ١٢ بليون دولار خلال عقد التسعينات، وبلغ الإنفاق السنوى على وكالات وأجهزة جمع المعلومات وتحليلها حوالى ٣٠ بليون دولار، ولم يكن بن لادن مجهولا بالنسبة لهم، بل على العكس كان

موضـوعهم الأساسـي لدرجـة أن هنـاك حجـرة شـهيرة فـي مبنـي وكالـة المخـابرات الأمريكيـة أُطلق عليها "حجرة بن لادن" كانت مقرا لاجتماعات مكثفة على مدى شهور طويلة بل سنوات قبل ١١ سبتمبر. ومن المؤكد أن شيئا ما جوهريا قد حدث في معنى ومستوى خطورة ما نطلق عليه الإرهاب. لقد أخذت أيضا مهمة مكافحة الإرهاب بعدا جديدا مختلفا عمـا كانـت عليـه قبل أن تصـبح العمليـات الانتحاريـة العمـاد الأساسـي للإرهاب، وبعد الربط بينها وبين الاستشهاد من أجل الدين. باختصـار تحولت مهمة مكافحة الإرهاب إلى محاولة الإجابة عن سؤال مفاده: كيف يمكن القضاء على شخص هو أصلا يريد أن يموت؟ ومما ضاعف من صعوبة المهمة بالإضافة إلى ما سبق حجمها الكبير، فلم يعد الأمر مجرد خلايا متفرقة هنا أو هناك، ولكنه ينتظم بحرا واسعا من الأفراد والفصائل والجماعات والتجمعات المضادة للدولة وللنظام العالمي كله.

من الذى فعلها ؟ - القصــة الأمريكيـــة

السؤال الذى طرح نفسه مباشرة بعد انتهاء أحداث ١١ سبتمبر المأساوية كان عن هوية الفرد أو المجموعة التى اقترفت هذه الجريمة البشعة وصدمت العالم كله من أقصاه إلى أقصاه. وبرغم نداءات من هنا وهناك بالتروى وعدم إصدار أحكام متسرعة إلا أن الولايات المتحدة حسمت الأمر بسرعة بتوجيه أصابع الاتهام إلى منظمة القاعدة وقائدها أسامة بن لادن المقيم منذ فترة طويلة فى أفغانستان. وجاء أول تصريح فى هذا الاتجاه حوالى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١١ سبتمبر من ديفيد إنسور مراسل شبكة سى إن إن لشئون الأمن القومى، قال فيه أن المسئولين فى الإدارة الأمريكية قد توفرت لديهم "مؤشرات جديدة جيدة" بأن أسامة بن لادن المتهم من قبل بالتخطيط لنسف السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا، متورط أيضا فى هذا الهجوم. وبالتوازى مع ذلك أيضا ذاعت تصورات مختلفة وضعت المسئولية فى رقبة جماعات متنوعة لها أيضا مصلحة فى النيل من الولايات المتحدة مثل أنصار الرئيس اليوغسلافى السابق سلوبودان ميلوسوفيتش، وعصابات مافيا المخدرات، واليمين الأمريكى المتطرف، وأيضا المخابرات الإسرائيلية "الموساد" بغرض إلصاق التهمة بالعرب والمسلمين وإفساد العلاقة بينهم وبين الولايات المتحدة.

ومع تطور الأحداث المتلاحق ذاع التصور الأمريكى المبنى على أن تنظيم القاعدة بزعامة بن لادن هو المسئول الأول عن التخطيط والتنفيذ لهذا العمل وكان وراء ذلك أسباب عدة:

- السبب الأول أن الولايات المتحدة ممثلة فى أجهزتها الأمنية كانت مشتبكة بالفعل فى معركة ساخنة -كما ذكرنا من قبل- وعلى مدى عقد كامل مع تنظيم القاعدة، تلقت فيها الولايات المتحدة لطمات متتالية كان آخرها ضرب المدمرة الأمريكية "كول" فى ساحل عدن اليمنى، بالإضافة إلى اعتراض أجهزة التنصت الأمريكية لرسائل كثيرة بين أعضاء التنظيم خلال شهرى يونية ويولية ٢٠٠١ محملة بمؤشرات منذرة بعمل إرهابى جديد قادم. وكانت علاقة بن لادن بالولايات المتحدة قد وصلت إلى حد أنه أصبح منذ فترة رئاسة كلينتون على رأس قائمة المطلوب القبض عليهم. وأية مراجعة سريعة للمجلات والجرائد المتخصصة فى الشئون الأمنية والصادرة بالتحديد من الولايات المتحدة وبريطانيا خلال شهور يونية ويولية وأغسطس ٢٠٠١ تظهر أنها كانت تعج بأخبار وتحاليل عن بن لادن وتنظيم القاعدة حتى أن صورة الغلاف لمجلة

"جينز إنتليجينس ريفيو" Janes Intelligence Review عدد أغسطس ٢٠٠١ (قبل الحدث بشهر واحد) كانت لأسامة بن لادن وكان عنوان موضوع الغلاف "تقطيع أوصال القاعدة" Cutting Al-Qaeda down to size .

● السبب الثاني أن قدرا من الغموض الذي يلف تنظيم القاعدة كان قد تبدد بعد أن حدث نوع من الاختراق المعلوماتي لنظمها الداخلية أثناء محاكمة المتهمين في تفجير السفارتين الأمريكيتين، وكانت هذه المحاكمة هي الأولى من نوعها داخل الولايات المتحدة لمتهمين في جرائم إرهاب ارتكبوها خارج الأرض الأمريكية.

● السبب الثالث أن أجهزة الأمن الأمريكية كانت قد اكتشفت خلال شهر أغسطس تسلل شخصين لهم علاقة بالتخطيط لعملية المدمرة كول وظهرت أسماؤهم بعد ذلك بين أسماء الطائرات المخطوفة في عملية ١١ سبتمبر.

● السبب الرابع احتجاز السلطات الأمريكية في ١٧ أغسطس ٢٠٠١ لشخص فرنسي من أصل مغربي يدعى زكريا موسوي بسبب ما أثاره من شكوك أثناء تلقيه دروسا في الطيران من مدرسة مينسوتا للطيران عندما طلب من معلمه التركيز فقط على قيادة الطائرة أثناء وجودها في الجو وأنه ليس في حاجة للتدريب على كيفية الصعود أو الهبوط بها(!).

● السبب الخامس أن أجهزة الأمن الأمريكية كانت قد وصلت إلى تصور سريع أنها أمام عملية اختطاف انتحارية لأربع طائرات وأن الأمر لم يقتصر على الاختطاف فقط بل امتد إلى "قيادة الطائرات" نفسها بواسطة الخاطفين للتحكم في توجيهها صوب الأهداف المطلوب تدميرها. ومن هنا بدأ الربط بين أسماء ركاب الطائرات الأربعة وأسماء الأفراد العرب والمسلمين الذين تلقوا تدريبا على الطيران داخل المراكز والمدارس الأمريكية التي تقدم هذه الخدمة. بالإضافة إلى أن القبض على زكريا موسوي وتتبع آثاره في أوروبا قد فتح الطريق أمام أجهزة الأمن الأوروبية والأمريكية لاكتشاف شبكة خلايا أوروبية يتبعها نفس أسماء الأشخاص المسجلة أسماؤهم كركاب في الطائرات الأربع، والمسجل بعضها في مدارس تعليم الطيران.

● السبب السادس أن أسامة بن لادن نفسه بعد أن شنت أمريكا حملتها العسكرية على أفغانستان تكلم إلى الرأي العام من خلال قناة الجزيرة القطرية عدة مرات معلنا بشكل واضح مباركته لما حدث واعترافه أنه كان على علم بالعملية والقائمين بها وتوعد الولايات المتحدة الأمريكية بمزيد من تلك العمليات في المستقبل.

ويمكن القول أن "زكريا موسوي"، و"مدارس تعلم الطيران"، و"الشبكة الأوروبية والألمانية منها على وجه الخصوص"، قد كونت معا الأضلاع الثلاثة

لمسرح المعلومات الـذى نسجت منـه سلطات الأمن الأمريكية تصورها لحادث ١١ سبتمبر وأبطاله ، وإجابتها عن السؤال الصعب: من الذى فعلها؟!

أطلق مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى أكبر عملية بحث وتحقيق فى التاريخ تحت الاسم المختصر "بنتبوم" PENTTBOM اختصارا للكلمات Pentagon Twin Towers Bombing. قاد العملية نائب مدير المكتب تـوم بيكـارد مـن مركـز "المعلومـات والعمليات الخاصـة" فـى واشنطن ، وعمـل معـه فريـق مـن ٤٠٠٠ عميـل مهمتـهم الأساسية جمـع المعلومـات بالإضافة إلـى ٣٠٠٠ محلل للمعلومـات التـى يتم جمعها. وكانت الأولوية تجميع كل الآثار الممكنة والأوراق والملفات لمجموعة الأفراد الذين نفذوا هجوم ١١ سبتمبر والداعمين لهم بعد أن وضعت قائمة أولية بالأسماء. وتطلب ذلك البحث والتفتيش فى كل الأماكن المحتمل مرورهم بها مثل أماكن التعليم والتدريب والفنادق والبنوك وغيرها داخل وخارج الولايات المتحدة.

ونشأ فى البداية تصور مبدئى أن مجموعة العمل المشـاركة فـى هجـوم ١١ سـبتمبر يصل عددها إلى حوالى ٣٠ شخصا ، وأن فصيلة التنفيذ أو "الضرب" لـم تكـن وحدهـا بل كانت محاطة بمجموعات أخرى مالية وإدارية ومعلوماتية ، أما الأفراد فقد كـانوا حاملين لجوازات سفر لدول مختلفة مثل السعودية والإمارات ولبنـان. وهنـاك قـدر مـن الإجماع على أن التحقيق الذى جرى حـول أحداث ١١ سـبتمبر كـان غيـر مسـبوق فـى حجمه وتفاصيله وعدد الأفراد والوكالات والدول التى شاركت فيه. وقد أفضـى التحقيـق بسرعة إلى الكشف عن خلايا منتشرة لتنظيم القاعدة على امتداد قارات العـالم الرئيسـية من أمريكا اللاتينية إلى أوروبا إلـى آسيا وإفريقيـا ، وأن التخطيـط للعمليـة قـد بـدأ علـى الأرجح فى سنة ١٩٩٩ مع بداية التحاق عدد من المشـاركين بمدارس تعليم الطـيران فـى الولايات المتحـدة ، وأن الـهجوم نفسـه علـى الأهـداف الأمريكيـة قـد قـام بـه ١٩ فـردا مقسمين إلى أربع مجموعات مستقلة من ناحية مكان العمل والهدف المطلـوب تحقيقـه ، لكن يجمعهم قيادة واحدة خفية ربما داخل أمريكا أو خارجها ، مع وجود اعتقاد آخـر أن محمد عطا كان هـو رئيس العملية كلـها. ومن ناحية التقسيم العام يمكـن النظـر إلـى المجموعة كلها على أساس أنها مقسمة إلـى نوعين مـن الأفـراد: النـوع الأول وعددهـم ستة يمثلون القادة وهم الأكبر سـنا وقـد وصلـوا إلـى الولايـات المتحـدة مبكـرا فـى سـنة ٢٠٠٠ ومعظمهم إما يحمل رخصة قيادة للطائرات أو تدرب لفترات معينة فى مـدارس تعلـم الطـيران بغـرض الاستعداد للعمليـة. والنـوع الثـانى وهـم مـن الأفـراد الأقـل سـنا وعددهم ثلاثة عشر شخصا وصلـوا إلـى الولايـات المتحـدة قبـل العمليـة بشـهور قليلـة وكانت وظيفتهم السيطرة على ركاب الطائرة. وليس معلوما حتى الآن إذا ما كان أفـراد المجموعة كلهم كانوا يعرفـون منـذ البدايـة بأنـهم مقبلـون علـى عمليـة انتحاريـة، وأنـهم جميعا سوف يموتون لا محالة ، أم أن ذلك كان معروفا فقط بالنسبة لمجموعـة القيـادة؟ أما بالنسبة لجنسيات المختطفين التسعة عشر فلم تتحدد بدقـة حتـى الآن ، لكـن أجـهزة

التحقيق استغلت ما عثرت عليه من بطاقات ائتمان ورخص قيادة وفواتير دفعت لتأجير السيارات والإقامة في الفنادق في تتبع حركة الخاطفين وتحديد أماكن تواجدهم حتى قيامهم بعملية الهجوم.

وأولى الحقائق المهمة التي أظهرها التحقيق هو أن عددا كبيرا من مجموعة ١١ سبتمبر الانتحارية أعضاء في شبكة أوروبية سرية تعمل تحت الأرض منذ سنوات ولها علاقة وطيدة بتنظيم القاعدة. واكتشفت أجهزة المخابرات الأوروبية خلايا عديدة لهذه الشبكة في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأسبانيا وبريطانيا ، ووجدت بينها تنسيقا وصلات قوية. وفي الحقيقة لم تكن المخابرات في البلاد الأوروبية جاهلة تماما بمثل هذه التجمعات واتجاهاتها الدينية والسياسية لكن الصورة الكلية كانت على الأرجح غائبة ، فقد تحركت المخابرات الألمانية في الشهور الأخيرة من سنة ٢٠٠٠ ونجم عن عمليات التفتيش في مدينة فرانكفورت القبض على أربعة جزائريين مسلمين في ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٠ وأعقب ذلك شن عمليات تفتيش أخرى أدت إلى الكشف عن خلايا جديدة.

والجديد أن المعلومات والشهادات التي جمعتها أجهزة التحقيق الأمريكية والأوروبية عن مجموعة الأفراد المشاركين في عملية ١١ سبتمبر لم تقدم نفس الصورة النمطية الشائعة في الغرب عن الإرهابي المتعصب الأصولي في عقيدته الصارم المتجهم الوجه والجاهل بالعالم الخارجي. فمعظم المشاركين في العملية لم يكن لهم علاقة بحرب المجاهدين في أفغانستان ، وكانوا يعيشون حياة طبيعية يفعلون كما يفعل الناس ويلبسون كما يلبسون ويتصرفون مثلهم. ويبدوا متعلمين مثقفين يمتلكون مهارات فنية عالية وينتمون إلى الطبقة المتوسطة العليا ويمكنهم الانتقال من بلد غربي إلى آخر بدون أن يلفتوا إليهم الأنظار. ولا أحد يعرف بعد كيف تم تجنيدهم وما هو مصدر رغبتهم في العنف ومصدر عزيمتهم التي لم تلن لتنفيذ خطة استمر تنفيذها على مهل شهورا وربما سنين. هذه الصورة الجديدة للإرهابيين القادمين من الشبكة الأوروبية رسمت بعدا جديدا لديناميكية العنف مما جعل مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي يعتقد في وجود خلايا "نائمة" لتنظيم القاعدة داخل أمريكا ذاتها بنفس النمط الأوروبي. وطبقا لجريدة واشنطن بوست في ٢٤ سبتمبر ٢٠٠١ يعتقد مكتب التحقيقات في وجود من ٤ إلى ٥ خلايا نائمة في أمريكا ، أعضاؤها دخلوا الولايات المتحدة بصورة قانونية، وهذه الخلايا موجودة تحت المراقبة منذ فترة طويلة ولم يصدر عنها شئ حتى ذلك التاريخ ..

وقد ساعد على استكمال صورة التحقيقات الأوروبية والأمريكية أن دولة الإمارات العربية كانت قد قبضت في يولية ٢٠٠١ على جمال بغال وهو فرنسي مسلم من أصل جزائري أثناء عبوره من دبي قادما من باكستان إلى فرنسا. اعترف بغال بأنه يرأس شبكة من الخلايا في أوروبا ، وأنه قد تلقى تعليمات لمهاجمة أهداف في أوروبا عن

طريق أبو زبيدة مبعوث بن لادن. وكان أبو زبيدة المقبوض عليه في الولايات المتحدة قد قام بمثل هذا الدور في عملية تفجير السفارات الأمريكية وفي عملية مؤامرة الألفية. وأدت المعلومات التي حصلت عليها أجهزة الأمن الفرنسية من الإمارات إلى منع كثير من التفجيرات في أوروبا قبل حدوثها. ونتج عن هذا التنسيق في بداية ٢٠٠١ إحباط عدد آخر من العمليات الإرهابية ضد سفارة الولايات المتحدة في إيطاليا، وضد السفارة الأمريكية والمركز الثقافي الأمريكي في باريس، وأشارت بعض التقارير إلى أن البرلمان الأوروبي في ستراسبورج كان أيضا هدفا محتملا للإرهاب.

مثلت ألمانيا عقدة اتصال أساسية بالنسبة لعملية ١١ سبتمبر، فقد كشفت التحقيقات أن عددا من المشاركين في العملية قد عاش في ألمانيا لفترات طويلة قبل أن يذهب إلى الولايات المتحدة للتدريب على قيادة الطائرات. وفي سجلات "الجامعة الفنية" Technical University بهاربورج القريبة من مدينة هامبورج وجدت أسماء سبعة طلاب مسجلين في الجامعة ضمن قائمة لثلاثة عشر اسما قدمها مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى عميد الجامعة. وكانت المباحث الألمانية قد استطاعت قبل ذلك تحديد أربعة أسماء لطلبة درسوا في مدينة هامبورج لهم تصرفات مشبوهة وظهرت أسماؤهم ضمن الحاجزين لأماكن على الطائرات المخطوفة في أمريكا. ومع تقدم البحث ظهر أن اثنين من الذين قادوا الطائرات بعد خطفها، وهما مروان الشيحي ومحمد عطا، قد عاشا معا في شقة واحدة في هامبورج حتى يونية ٢٠٠٠، وكانت لهما علاقة وثيقة بتاجر سوري غني اسمه مأمون دركاز انلي يمتلك صلاحيات الصرف من حساب مالي لأحد قياديي القاعدة. وقد جمدت حسابات دركاز انلي في البنوك بواسطة السلطات الأمريكية والأوروبية ضمن حسابات سبع وعشرين شخصية وهيئة أخرى. أما مروان الشيحي فهو من الإمارات العربية، وعاش في ألمانيا لسنين طويلة، وخلال الفترة من ١٩٩٧- ١٩٩٨ سجل الشيحي نفسه في جامعة بون تحت اسم مستعار، وفي سنة ١٩٩٩ انتقل إلى هامبورج لدراسة الإلكترونيات في "الجامعة الفنية". وليس معروفا على وجه التحديد أين تمت عملية تجنيد مروان الشيحي وهل بدأت في الإمارات أم على الأرجح في ألمانيا.

يعتقد الكثيرون أن محمد عطا هو القائد التنفيذي الحقيقي لعملية ١١ سبتمبر. ويعتقد أنه قاد الطائرة البيونج ٧٦٧ لشركة أميريكان إيرلاينز الرحلة رقم ١١ وضرب بها البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في نيويورك. ومن غير المعروف على وجه التحديد كيفية اتصال محمد عطا بالقاعدة وأسامة بن لادن، وهل تم الاتصال عن طريق أصدقاء مشتركين قابلهم في بعض المنتديات الإسلامية أو عن طريق آخر. ويلفت النظر كثرة التحركات التي سجلتها التحقيقات لمحمد عطا فبجانب لقائه مع رجل مخابرات عراقي يدعى أحمد خالد العاني في براغ، لوحظ أيضا سفره إلى أسبانيا في يناير ٢٠٠٠ وقضاء بعض الوقت في منتجع سالو قبل أن يسافر إلى الولايات المتحدة

فى يولية ٢٠٠٠. وعاد عطا ثانية إلى أوروبا فى يولية ٢٠٠١ فى زيارة قصيرة قبل عملية الهجوم بشهرين وزار مدريد بأسبانيا واستأجر عربة قادها لمسافة ٢٠٠٠ كم على الأرجح مع مروان الشيحى ، وقضى الرجلان يوما واحدا فى زيورخ. وذكرت صحيفة أسبانية أن محمد عطا ومروان الشيحى قابلا فى أسبانيا كلا من وليد الشهرى ووائل الشهرى اللذين كانا فى الطائرة التى صدمت البرج الشمالى لمبنى التجارة العالمى.

إن عطا هو الذى لفت نظر المحققين إلى أهمية ألمانيا بالنسبة للعملية كلها. لقد بينت تصرفاته وعلاقته مع الآخرين وسفره إلى أوروبا أنه قد يكون المسئول عن العملية كلها إلا أن ذلك لم يتأكد بصورة كاملة. لقد أوضحت مراقبة التليفونات فى أوروبا أن مجموعة هامبورج على علاقة بزكريا موسوى الذى يعتقد أنه العضو رقم ٢٠ فى مجموعة ١١ سبتمبر الانتحارية. درس موسوى إدارة الأعمال فى جامعة سوث بانك فى لندن وتخرج فى سنة ١٩٩٥. وغادر لندن فى فبراير ٢٠٠١ إلى الولايات المتحدة، حيث قبض عليه فى ١٧ أغسطس ٢٠٠١. ويعتبر موسوى واحدا من ضمن ستة تحفظ عليهم مكتب التحقيقات الفيدرالى كشهود إثبات على وجود المؤامرة. وربما يكون زكريا موسوى هو موضوع "الدليل" الذى هللت له الحكومة الأمريكية بدون أن تذكر اسمه صراحة وكشفته فقط لبعض الحكومات حتى تضمن تأييدها فى حربها ضد أفغانستان. وتعتقد السلطات الفرنسية أنه سافر عدة مرات إلى أفغانستان وتحيط به شكوك فى أنه عضو فى منظمة الجهاد وأحد العناصر الرئيسية لمنظمة القاعدة ، وكان قد وضع على قائمة الاشتباه منذ سنة ١٩٩٩.

بحث البوليس الألمانى أيضا عن شاب آخر يسمى زياد سمير جراح بعد أن وجدوا اسمه مسجلا على الطائرة التى سقطت فى بنسلفانيا. وبالبحث وجدوه مسجلا كطالب فى كلية "التعليم المستمر" فى هامبورج وله صديقة فى بلدة بوخوم قالت إنه لم يظهر منذ ١١ سبتمبر ، وقد عثر فى مسكنها على كتيبات عن الطيران والطائرات. وكان جراح قد جاء إلى ألمانيا لأول مرة سنة ١٩٩٦ وبدأ فى دراسة الطيران وتكنولوجيا النقل سنة ١٩٩٧ ووجد مسجلا فى الجامعة حتى سنة ٢٠٠١. وبحثت أجهزة التحقيق الألمانية أيضا عن الطالب سعيد باحاجى باعتباره مسئول الشئون اللوجيستية والإدارية للخلايا الإرهابية، وكانت مهمته تسهيل الحصول على تصاريح الدخول لأفراد المجموعة عند سفرهم للخارج وتوفير إقامة لهم فى هامبورج. ويحمل باحاجى الجنسية الألمانية وهو من أصل مغربى وخدم فى الجيش الألمانى فى سنة ١٩٩٩ حتى تم إعفاؤه لأسباب صحية. وزوجته التى تعيش فى ألمانيا لا تعرف عنه شيئا الآن، وعثر فى شقته على أوراق تعبر عن إعجابه بالقيادات الإسلامية ومنهم بن لادن ولوحظ أنه قد غادر ألمانيا إلى أفغانستان فى ٣ سبتمبر ٢٠٠١. وعضو آخر فى الشبكة تم اكتشافه هو رمزى بن الشيبة، عمره ٢٩ سنة ، سجل اسمه فى إحدى مدارس تعليم الطيران فى

أمريكا لكنه لم يستطع الحصول على تصريح الدخول ، ولهذا السبب لم يتمكن مـن تعلـم الطيران فى الولايات المتحدة ، وكانت آخر مرة شوهد فيها فى هامبورج فـى أغسطس ٢٠٠١.

ومع استمرار التحقيقات فى أوروبا بدأت تتشكل صورة الشبكة الإرهابيـة الموجـودة هناك، ولكن حقيقة علاقاتها بالقاعدة ظلت غامضة. فنوعية الأعضاء مختلفة عن هؤلاء المحيطين ببن لادن مـن ناحية التعليم والثقافة والحالـة الأسـرية والمعرفـة بالحيـاة العصرية الغربية. المجموعة التى تم اكتشافها فى ألمانيا كانت تعيش حيـاة عادية هنـاك بدون أن يشك فيهم أحد. وقد قبض على ستة أفراد فـى ألمانيـا يعتقد أنـهم علـى علاقـة بالخاطفين وبن لادن، ومن هؤلاء ممدوح محمود سالم المولود فى السـودان ويعتقد أنـه كان مديرا لأعمال بن لادن ومسئولا عـن بعض شئونه المالية. وقد قبض عليـه فـى ألمانيا عام ١٩٩٨ لمحاكمته هناك.

شخص آخر مهم مرتبط بالقضيـة هو لطفى الريسـى مـن الجزائـر ويعمـل طيـارا، وتعتقد السلطات الأمريكيـة أنـه المدرب الرئيسـى لأربعـة علـى الأقـل مـن الخـاطفين الانتحاريين أثناء وجودهم فـى ولايـة أريزونـا الأمريكيـة فـى صيف ٢٠٠١، وكشـف التحقيق أنه التقى على الطائرة المتجهة إلى أريزونا مع هانى حنجور الذى شـارك بعـد ذلك فى خطف طائرة أميريكان إيرلاينز رحلـة رقم ٧٧ وضـرب بـها البنتـاجون. وقد ألقى القبض على لطفى الريسى فى لندن فى ٢١ سبتمبر ٢٠٠١ متـهما بإعطـاء بيانـات غير صحيحة علـى طلـب كـان قد تقدم بـه للحصـول علـى رخصـة طـيران منـذ أربـع سنوات.

ثلاثة من المختطفين: محمد عطا ومروان الشـيحى وزيـاد سمير جـراح يُعتقد أنـهم شاركوا فى اختطاف وقيـادة الطـائرتين اللتين اصطدمتـا بـالبرجين الشـمالى والجنوبـى والطائرة الثالثة التى سقطت فى بنسلفانيا. هذه المجموعـة مـن الأفـراد تزاملـوا معـا فـى "الجامعة الفنيـة" فـى هـامبورج ، وسـافروا إلـى فلوريـدا بالولايـات المتحـدة فـى يوليـة ٢٠٠٠. الفرد الرابع من خلية هامبورج النائمة سعيد باحـاجى كـان علـى علاقـة برجـل أعمال سورى، وهذا الأخير كان بدوره على علاقة بوديـع الحـاج الأمريكـى مـن أصـل لبنانى والمتهم بالتورط فى تفجير السفارات الأمريكيـة فـى نـيروبى ودار السـلام عـام ١٩٩٠.

خلال الحملة الانتخابية لاختيار رئيس أمريكى جديد ثم بعدهـا خـلال النصـف الأول من سنة ٢٠٠١ كان محمد عطا ومـروان الشيحى يقضيـان وقتـهما فـى التدريـب علـى الطـائرة "السيسنا" الصغيرة فوق شواطئ فلوريدا. بدأ الاثنان برنامج التدريب فى شـهر يولية ٢٠٠٠ فـى مدرسة هوفمان أفيشن بفلوريدا. وأجروا حجرة أقاموا فيها فـى مـنزل موظف يعمل فى مكتبة المدرسة اسمه تشارليز فوس. كان عطا والشيحى فى عجلة مـن

أمرهم، خاصة بالنسبة لتعلم قيادة الطائرات النفاثة الكبيرة دون اكتراث بضرورة أن يستكملوا ألف ساعة من الطيران على الطائرة الصغيرة كشرط للانتقال إلى الطائرات الأكبر. ولم يكن متوفرا في المدرسة جهاز محاكاة "مقلد" متقدم يمكنهم من التدريب على الحركات الخطرة المطلوبة. دفع عطا والشيحي ١٥٠٠ دولار للتدريب لمدة ٦ ساعات على المقلد الموجود في مدرسة مركز المحاكاة في منطقة أوبا لوكا. وبدأ التدريب على الحركات الأساسية مثل الإقلاع والهبوط والدوران. ولم تكن ساعات التدريب كثيرة لكنها كانت كافية لإعطاء الطيار المبتدئ إحساسا بكيفية التعامل مع طائرة نفاثة تعمل بثلاثة محركات. وبهذا القدر من التدريب يعتقد أن الشيحي أقدم على قيادة الطائرة التابعة لشركة يونايتد إيرلاينز رحلة رقم ١٧٥ والتي انقضت على البرج الجنوبي بمركز التجارة العالمي، ونفس الشيء ربما ينطبق على حالة محمد عطا الذي قاد طائرة أميركان إيرلاينز رحلة رقم ١١ إلى الاصطدام بالبرج الشمالي.

لم يكن محمد عطا ومروان الشيحي وحدهما في الولايات المتحدة، ففي نفس الوقت كان هناك آخرون يحاولون تعلم قيادة الطائرات في وقت قصير. ومنذ سنة ١٩٩٦ تدرب هاني حنجور على قيادة الطائرات وعمل في مركز "سي آر إم" للتدريب على الطيران المدني في منطقة سكوتسدال في ولاية أريزونا. وفي عام ١٩٩٩ وصلت ساعات طيران حنجور إلى ٢٥٠ ساعة وأهله ذلك للطيران مع ممتحن من هيئة الطيران المدني ونجح فعلا في الحصول على رخصة قيادة للطائرات النفاثة. وخلال سنة ٢٠٠١ أقام حنجور مع رجلين آخرين: نواف الحزمي وخالد المحضار في شقة بمدينة سان دييجو.

كانت أسماء بعض المشاركين التسعة عشر في مؤامرة ١١ سبتمبر على قائمة اشتباه وكالة المخابرات الأمريكية، وأكدت المعلومات في صيف ٢٠٠١ أن بعض الأسماء مثل خالد المحضار ونواف الحزمي لهما علاقة بعملية تدمير المدمرة كول. ثم فجأة في يولية ٢٠٠١ تأكد وجودهما في الولايات المتحدة من خلال سجلات خدمة الهجرة والتجنيس التي بينت أنهما سبق أن زارا الولايات المتحدة لوقت قصير سنة ٢٠٠٠، وأنهما يقيمان بعد عودتهما في يولية ٢٠٠١ في فندق ماريوت نيويورك. في ٢٣ أغسطس تم إرسال اسميهما إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي لوضعهما على قائمة المراقبة، وبحث المكتب عنهما في طول البلاد وعرضها بدون فائدة لأنهما لم يتركا وراءهما عنوانا له قيمة، ولم يستطع مكتب التحقيقات الوصول إليهما حتى لحظة هجوم طائرتهما على البنتاجون. وأخيرا وبعد ١١ سبتمبر فقط نجح المكتب في الاستدلال على عنوانهما في منطقة كليرمنت في سان دييجو.

مجموعة الرحلة ١١ – اصطدمت بالبرج الشمالى لمركز التجـارة العالمى



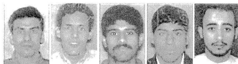
عبد العزيز العمرى — محمد عطـــا — وائل الشهـــرى — وليـــد الشهـــرى — سطام السقامـــى

مجموعة الرحلة ١٧٥– اصطدمت بالبرج الجنوبى لمركز التجارة العالمى



مهند الشهرى — حمزة الغامدى — أحمد الغامدى — فايز الشهرى — مروان الشيحى

مجموعة الرحلة ٧٧– اصطدمت بمبنى البنتاجون



هانى حنجور — سالم الحزمى — نواف الحزمى — ماجد مقعد — خالد المحضار

مجموعة الرحلة ٩٣– سقطت فى بنسلفانيا



زياد جراح — أحمد النعمى — أحمد الحزناوى — سعيد الغامدى

فى يوم الثلاثاء وصل أفراد الخلايا الأربع إلى مطارات الإقلاع. مجموعتان كل منهما مكونة من خمسة أفراد توجهتا إلى مطار بوسطن ، والثالثة مكونة من أربعة أفراد توجهت لمطار نيوآرك ، والرابعة مكونة من خمسة أفراد توجهت إلى مطار دالاس بواشنطن. المجموعة الأولى مكونة من وائل الشهرى ووليد الشهرى ومحمد عطا وعبد العزيز العمرى وسطام السقامى صعدوا إلى طائرة أميريكان ايرلاينز الرحلة رقم ١١ المتجهة إلى لوس أنجلوس وصدموا بها البرج الشمالى لمركز التجارة العالمى فى نيويورك ساعة ٨٤٥. وبعد ذلك بدقائق قليلة استقل مروان الشيحى وفايز الشهرى ومهند الشهرى وحمزة الغامدى وأحمد الغامدى طائرة يونيتد ايرلاينز رحلة ١٧٥ وبعد تحويل مسار الطائرة اندفعوا بها فى اتجاه جسم البرج الجنوبى لمركز التجارة العالمى بعد ١٨ دقيقة من الهجوم على البرج الأول. وصعد إلى طائرة أميريكان ايرلاينز رحلة رقم ٧٧ من مطار دالاس الدولى خالد المحضار وماجد مقعد ونواف الحزمى وهانى حنجور وسالم الحزمى واتجهوا بها إلى البنتاجون واصطدموا به الساعة ٩٤٣. ومن مطار نيوآرك استقل طائرة يونيتد ايرلاينز رحلة رقم ٩٣ كل من سعيد الغامدى وأحمد الحزناوى و أحمد النعمى وزياد جراح الذين سقطت الطائرة بهم ومعهم الركاب والطاقم فى بنسلفانيا.

١١ سبتمبر .. روايات وتأويلات أخرى !

برغم اعتماد الرواية الأمريكية على تاريخ طويل ممتد للأحداث بينها وبين تنظيم القاعدة وزعيمه أسامة بن لادن، وبرغم ما نشر من تفصيلات وأسماء لم تنفها معظم أجهزة الأمن الغربية والعربية والإسلامية، وبعضها صرح أنه قد أرسل تحذيرات قوية لواشنطن عن مؤامرة قادمة وشيكة، وبرغم الأحاديث المذاعة لبن لادن وبعض من قادة تنظيم القاعدة ، إلا أن غموض الحدث وعنصر المفاجأة فيه وموت من قاموا به فتح الطريق لروايات أخرى معظمها لأفراد قدموها في صورة كتب أو محاضرات أو لقاءات تليفزيونية أو من خلال مواقع مخصصة لهذا الغرض على شبكة الإنترنت. واعتمدت هذه الروايات بصفة عامة على البحث في الثغرات الموجودة في الرواية الأمريكية، والصعوبات الفنية التي تحول دون تنفيذ عملية الهجوم طبقا لهذه الرواية، وأيضا محاولة العثور على دوافع وراء جماعات أخرى غير تنظيم القاعدة بعضها أمريكي أو يهودي يمكن أن تؤدي بهذه الجماعات إلى اقتراف ما حدث. وفي معظم هذه الروايات كان بن لادن وتنظيم القاعدة من الأبرياء ، وفي قلة منها اعتبر بن لادن حليفا لأمريكا أو عميلا لها وأنه ربما اختلف معها أو تمرد عليها أو نفذ العملية من أجل خدمة مصالحها العليا بصرف النظر عن موت أمريكيين فيها.

ومن أشهر هذه الروايات ما قدمه الكاتب الفرنسي تييري ميسان في كتابه "١١ سبتمبر: الخدعة الرهيبة" 11 September 2001 : L'Effroyable Imposture والذي يحمل على غلافه صورة لمبنى البنتاجون وتحتها عبارة مثيرة: "لم تصطدم أي طائرة بالبنتاجون!". وظل الكتاب لفترة طويلة من أكثر الكتب مبيعا في أوروبا والعالم، وأصدر مركز زايد للتنسيق والمتابعة في أبو ظبي نسخة عربية للكتاب واستضاف الكاتب الفرنسي الذي ألقى محاضرة تشكك في الرواية الرسمية لما جرى في نيويورك وواشنطن. وبالإضافة إلى كتاب تييري ميسان نجد موقعاً على شبكة الإنترنت للمرشح الأمريكي الديموقراطي السابق لمنصب الرئيس الأمريكي على امتداد ست دورات "ليندون لاروش" الذي شكك في الرواية الأمريكية المذاعة وانحاز لفكرة أن قوى أمريكية عسكرية هي التي تولت التخطيط وتنفيذ الحدث لصالح اليمين الأمريكي وجناحه العسكري.

وبالنسبة للتفسيرات المستنبطة من صعوبة العملية نفسها وأنها من الناحية الفنية أكبر من أن يقوم بها مجموعة من العرب القادمين من أماكن مختلفة، نجد مثلا التأكيد على صعوبة التحكم فى طائرة ضخمة من نوع البوينج والاصطدام بها فى منتصف مواجهة برجى مركز التجارة العالمى، وأيضا صعوبة ارتطام طائرة كبيرة بهذا الحجم بمبنى منخفض الارتفاع مثل البنتاجون ويرجح التفسير أن البنتاجون قد تم تدميره من الداخل والدليل على ذلك طبقا لهذا الرأى أن الطائرة التى صدمت البنتاجون لم تظهر فى الصورة الأولى التى نشرت بعد الحادث مباشرة؟

وتستبعد هذه النوعية من الروايات قيام أفراد يعيشون فى مغارات أفغانستان بالتخطيط لمثل هذا العمل المحكم؛ وبالتالى فلابد أن يكون منفذو الحدث من جهة متفوقة تقنياً وتكنولوجياً، ولديها جميع عناصر اللعبة لكى تديرها كما تشاء وهذه الجهة لن تكون سوى جهة عسكرية أمريكية، وأن غاية ظهور بن لادن فى الأحداث هى مساعدة الدعاية الأمريكية على توجيه الاتهام إلى العالم العربى والإسلامى. وتذكر هذه التقارير عن مجلة "لوفيجارو" الفرنسية أن أسامة بن لادن كان يعالج فى المستشفى الأمريكى فى دبى فى يوليو ٢٠٠١ حيث زاره مسئول مكتب المخابرات الأمريكية هناك. وتتشكك هذه الروايات أيضا فى إمكان إفلات الطائرة التى ضربت البنتاجون من الرادارات والأقمار الصناعية بعد أن قطعت ٥٠٠ كيلومتر من الطيران فى الجو، وتستبعد أن تدخل الطائرة المجال الجوى للبنتاجون دون أن يتم إسقاطها بواسطة بطاريات الصواريخ التى تحمى المبنى.

وهناك تحليلات أخرى تركز أيضا على استحالة وجود منظمة أو جماعة فى العالم كله تستطيع تنفيذ مثل هذه العملية بمستوى الدقة والتنسيق الذى تابعه الناس على شاشات التليفزيون، وتشير إلى أن الصعوبة لا تقتصر فقط على إمكانية توفر الخبرة والتكنولوجيا لمثل هذه الجماعات، بل الأهم على وجود متعاونين وعملاء فى أرفع مستويات المسئولية فى داخل البنتاجون وغيره من المراكز الحساسة التى تسيطر على الإدارة الأمريكية، وإلا فمن يستطيع تفسير إصابة أجهزة الإنذار بالشلل فى طول أمريكا وعرضها لمدة تقارب الساعة علمًا بأن هذه الأجهزة مبرمجة منذ سنوات الحرب الباردة على العمل الفورى بحيث تنطلق الطائرات الحربية إلى السماء فى بضع دقائق بعد انطلاق الإنذار. وفوق ذلك كيف تمكنت أربع طائرات من الخروج عن المسار المعتاد دون أن تقع حادثة اصطدام واحدة؟ وكيف لم تصادف أى من الطائرات المنحرفة عن خطوط سيرها العشرات – بل المئات – من الطائرات التى تزدحم بها السماء؟ وكيف لم يبلغ أى طيار أبراج المراقبة عن وجود طائرات منطلقة على هواها علمًا بأن الطائرات بقيت خارج مسارها المحدد لها لأكثر من نصف ساعة؟

وتتشكك هذه الروايات في تركيز القصة الأمريكية الرسمية على التحاق المختطفين بمدارس تعليم الطيران على أساس أن الدروس التي تعطى للهواة في هذه المدارس تشتمل فقط على قيادة الطائرات الصغيرة، ولا يستطيع المتدرب قيادة طائرات مدنية ضخمة وأن يخرج بها عن مسارها المحدد دون خريطة جوية للمسار الجديد وأن يطير بها على ارتفاع منخفض بين ناطحات السحاب فوق مدينة يزدحم جوّها بعشرات الطائرات في كل لحظة، ثم يصيب هدفه بعد ذلك بدقة كبيرة. ولماذا لم يرسل أي طيار - من قائدي الطائرات الأربع - رسالة استغاثة عند حدوث عملية الاختطاف؟ حيث لا يحتاج إلا إلى ثوان معدودات، ويستحيل على الخاطف أن يكمل عملية الخطف بسرعة البرق دون مرور بضع دقائق لا بضع ثوان. ولا توجد حادثة اختطاف واحدة في تاريخ الطيران لم يستطع فيها قائد الطائرة إبلاغ برج المراقبة بأن الطائرة قد اختطفت. كما أن الصندوق الأسود لم يكن يحتوي على أي حوار. ولا يستبعد الذين لا يثقون في القصة الأمريكية إمكانية تزييف الوقائع وإدراج أي حوار مزيف في الصناديق السوداء ما دام الأمر بيد هذه القوى الخفية المسيطرة والتي لها علاقات نافذة داخل المؤسسات الأمريكية.

وهناك أيضا من يشير إلى أن الولايات المتحدة بدأت منذ عام ١٩٨٤ سلسلة تجارب للسيطرة عن بُعد على الطائرات والتحكم في سيرها "كما في حالة الطائرات بدون طيار"، وأنها نجحت في تجاربها هذه قبل ثماني سنوات تقريبًا. وقد أجرت تجربتها الأولى الناجحة على طائرة مدنية من نوع بوينج خالية من الركاب ومن طاقم الطائرة. وقد أقلعت هذه الطائرة باستخدام هذه التكنولوجيا، ثم هبطت بسلام في إحدى القواعد. وكانت الغاية من التجربة — علاوة على التأكد من إمكانية القيادة والتحكم في الطائرة عن بُعد — اختبار هل تحترق الطائرة عند هبوطها على الأرض دون إنزال عجلاتها مع استخدام وقود غير سريع الاشتعال؟ ومثل تلك التجارب تُستخدم بالفعل في الأبحاث الخاصة بسلامة الطائرات ومحاولة تصور النتائج الناجمة عن الحوادث. وتردد القصة أن الولايات المتحدة قد أنفقت على اكتشاف وتطوير نظام التحكم في الطائرات المدنية عن بعد مبلغ ٣,٢ مليار دولار. فإذا دخلت أي طائرة - سواء أكانت مدنية أم عسكرية - مجال هذا النظام، استطاع مشغل النظام فكّ رموز وشفرات نظام الطيران في الطائرة - حتى وإن لم يقم الطيار بإعطائه هذه الرموز - ثم يكمل السيطرة على الطائرة وتوجيهها إلى الهدف الذي يريده. كما يتم إسكات جميع أجهزة الاتصال والتخابر الموجودة على الطائرة. وطبقا لهذا التصور يمكن الاستنتاج من تسلسل أحداث الهجمات - التي تمت على نيويورك وواشنطن - أن الطائرات لم تُختطف، بل تم التحكم فيها عن بُعد، وأجبرت على السير نحو الأهداف المرسومة لها من قبل. ومن العبث إذن القيام بالبحث عن خاطفين لهذه الطائرات؛ لأنها في الواقع لم تختطف، بل وُجِّهت عن بُعد إلى الأهداف المرسومة لها. ولكن لما كان من شروط اللعبة اتهام

العرب والمسلمين بتنفيذ الضربة الجوية، كان من الضروري ترتيب سيناريو خطف الطائرات من قِبَل إرهابيين عرب.

ويستغل هذا الجانب ما ظهر من حالة ارتباك في أجهزة الأمن الأمريكية بالنسبة لأسماء العرب والمسلمين الموجودين على قائمة الطائرات المخطوفة، فعندما أعلنت الخطوط الجوية الأمريكية أول قائمة بأسماء الركاب لم يكن فيها اسم أي عربي طبقًا للرواية، وتم تغيير القائمة فجأة ودون ذكر مبرر للتغيير، وقدمت قائمة تحتوي على أسماء ١٩ راكبًا عربيًا اتجهت إليهم أصابع الاتهام. وتبين أن القائمة الجديدة تحتوي على أسماء أشخاص توفُّوا قبل سنتين، كما وردت فيها أسماء أشخاص أحياء ويعملون حاليًا في بلدان أخرى. كما ظهر أن المختطفين استخدموا هويات عربية مسروقة أو مفقودة قبل ١١ عامًا ولم يكن أسامة بن لادن قد شكّل منظمة القاعدة بعد.

والسمة البارزة والغريبة في نفس الوقت أن هذه الروايات المضادة للقصة الرسمية تحاول إلصاق التهمة بالأمريكيين أنفسهم بصرف النظر عن موقعهم داخل الإدارة أو خارجها وهي تعتمد في ذلك على رصيد من عدم الثقة المأخوذ من كثير من الحوادث الأمريكية التي مازالت مثيرة للجدل مثل حادثة مقتل الرئيس الأمريكي كينيدي. والخلاصة من وجهة نظر من يتبنى مثل هذا الطرح أنه نعم يمكن للأمريكيين أن يقتلوا مواطنيهم لتحقيق أغراض سياسية عليا ، وفي هذا الإطار تُروَى قصة بدون دليل واضح تتحدث عن قيام قيادة أركان القوات الأمريكية في عام ١٩٦١ بالتخطيط لهجمات داخلية ضد الأمريكيين، ولكنّ تدخلاً عاجلاً من الرئيس كينيدي آنذاك أحبط المخطط في اللحظة الأخيرة، ثم قُتل الرئيس نفسه بعد ذلك بأسبوعين في عملية مريبة مازالت أسرارها غير معروفة حتى الآن.

وفي هذا السياق يتم الإشارة إلى كتاب "كتلة الأسرار: تحليل لأدق أسرار وكالة الأمن القومي" Body of Secrets: Anatomy of the Ultra-Secret National Security Agency للكاتب الأمريكي "جيمس بامفورد James Bamford" وهو من العاملين السابقين بوكالة المخابرات المركزية والصادر سنة ٢٠٠٠، وفي هذا الكتاب يكشف المؤلف الستار عن وثائق سرية تعود لعهد الرئيس كينيدي، عندما فشل الإنزال الأمريكي في خليج الخنازير؛ وهي عملية كانت تستهدف الإطاحة بالرئيس الكوبي كاسترو. وقد قامت هيئة الأركان العامة الأمريكية ـ طبقًا لما جاء بالكتاب ـ بوضع خطة أخرى أطلقت عليها اسم "نورثوودس Northwoods" وكانت ترى أن العسكريين سينجحون فيما فشل في تحقيقه المدنيون في إشارة إلى رجال المخابرات الأمريكية. وقام رئيس الأركان الأمريكي في ١٣ مارس ١٩٦٦ بتقديم ملف كامل إلى الرئيس كينيدي حيث جاء في باب شرح المبررات الموجبة للتدخل العسكري في كوبا: "ستبدأ العملية بعد تصعيد التوتر بين الولايات المتحدة وكوبا، وبعد سلسلة متعاقبة من

العمليات المرتبة تجعل الرأى العالمى والأمم المتحدة تحت تأثير وقناعة بأن حكومة كوبا تتصرف بشكل غير مسئول وأنها تشكل تهديدا للغرب والعالم". ومن بين هذه العمليات المقترحة، قيام الجيش الأمريكي بإلباس موظفين من أصل كوبى من العاملين فى القاعدة البحرية الموجودة فى خليج "جوانتانامو" – من الذين سبق لهم الهجرة إلى الولايات المتحدة – الملابس العسكرية الكوبية، ثم قيام هؤلاء بإشعال حريق فى القاعدة العسكرية والهجوم على عدد من الطائرات وإحراقها وكذلك إغراق سفينة حربية فيها. أى أن رئيس الأركان الأمريكية كان يخطط لعملية يحرق فيها بعض طائراته الحربية وبعض سفنه.

ويضيف الكاتب الأمريكي إلى خطته تفاصيل أخرى فيقول بأن التخطيط كان يشمل: "القيام بحملة إرهابية فى ميامى وفى فلوريدا بل حتى فى واشنطن؛ ففى فلوريدا، يتم إغراق زورق يحمل مهاجرين كوبيين ، كما يتم تفجير بعض القنابل فى بعض الأماكن والمحلات المختارة. ويعقب ذلك القبض على بعض العملاء الكوبيين وتسريب بعض الوثائق التى تبرهن على عزمهم ارتكاب عمليات إرهابية أخرى. كما سيقوم بواسطة طائرة ميج سوفيتية مزيفة بالتعرض لبعض الطائرات المدنية والتحرش بها، وكذلك فتح النيران من قبلها على بعض سفن النقل التجارية وعلى بعض الطائرات العسكرية التى تقوم بمهمات الحراسة وسوف ترتب حادثة تبدو وكأن هذه الطائرة السوفيتية قد أسقطت طائرة مدنية فى المجال الجوى الكوبى". لكن الرئيس كيندى رفض الخطة المدبرة، وأمر رئيس الأركان بإتلاف جميع الوثائق المتصلة بعملية "نورثوودس" لكن بعض الضباط سربوا عددا من الوثائق المتعلقة بها إلى هذا الكاتب. ومن هنا يمكن أن يستنتج رواة تلك القصص المناقضة للقصة الأمريكية أنه ليس مستبعدا أبدا قيام بعض القوى بتنفيذ مثل هذه العمليات لكى تؤثر على الرأى العام الأمريكى والعالمى؛ ولكى تشكل مبررا للقيام بشن عمليات حربية للوصول إلى أهداف معينة.

واعتمادا على التحليلات السابقة يشير الاتهام فى عملية ١١ سبتمبر إلى الجيش الأمريكى وإلى حكومة ظل عسكرية داخل الولايات المتحدة يرأسها صقور الإدارة الأمريكية، وأنهم هم اللذين قاموا بالتخطيط لهجمات ١١ سبتمبر من أجل دعم مؤسسات الصناعة العسكرية الأمريكية، وإقامة ما يسمى بالجيش الفضائى بغية تحقيق هيمنة أمريكية مطلقة على العالم. أما الهدف الأبعد من هذه الآلية العسكرية الرهيبة فهو إثارة صراع للحضارات يضعون فيها العالم المسيحى واليهودى فى جانب والعالم الإسلامى فى الجانب الآخر كما تشير أصابع الاتهام بشكل خاص إلى "لوبى المصالح النفطية" متمثلاً فى نائب الرئيس دتشينى وكونداليزا رايس مستشارة الرئيس للأمن القومى.

التقصــــير

ما الذى كانت تعرفه إدارة بوش؟

برغم جسامة الأحداث التى وقعت فى يوم ١١ سبتمبر والآثار الخطيرة المترتبة عليها لم يوجه أحد اللوم إلى الرئيس بوش، ولم تتهم إدارته بالتقصير، حتى ظهرت فجأة فى وسائل الإعلام - وبعد مرور ثمانية أشهر تقريبا من الحدث - بعض المعلومات التى تقول إن الرئيس كان يعلم بوجود تهديدات محددة، وإنه لم يتخذ الإجراءات الواجبة لمحاولة إجهاض العملية الانتحارية قبل حدوثها. وأثار الكشف عن تلك الأخبار تساؤلات عن طبيعة المعلومات التى كانت متوفرة عند الرئيس بوش، وهل كان فى إمكانه أن يفعل شيئا لإحباط العملية من البداية؟ ولماذا فشلت أجهزة الأمن الأمريكية بكل ما تملكه من إمكانيات فى الكشف عن المؤامرة برغم حدوثها داخل الولايات المتحدة وباستخدام طائرات ووسائل أمريكية؟ وتركزت القضية فى مناقشة مدى كفاية المعلومات التى كانت فى حوزة الرئيس ورجال إدارته، وهل كان أداؤهم على مستوى خطورة النتائج التى أصابت الولايات المتحدة والعالم أجمع من حيث القدرة على رؤية التهديد وتمييزه واتخاذ القرارات الصحيحة لمواجهته.

وبشكل عام كانت الإدارة الأمريكية على بينة من أنها مشتبكة بالفعل فى معركة ساخنة ومستمرة مع الإرهاب، لكن هذه المواجهة كانت محصورة داخل إطار معين من العمليات الإرهابية مثل تفجير السفارات والمعسكرات الأمريكية فى الخارج، بالإضافة إلى احتمالات تعرض القوات الأمريكية والقطع البحرية المنعزلة إلى هجمات انتحارية كما حدث للمدمرة كول. وبرغم أن بعض العمليات المحدودة حدثت داخل الأرض الأمريكية، مثل تفجير سيارة أسفل مبنى التجارة العالمى فى نيويورك عام ١٩٩٣، إلا أنها بدت غير قابلة للتكرار. لكن ما حدث فى ١١ سبتمبر يختلف كثيرا عما كان قبله، حيث ضرب الهجوم الانتحارى بنجاح منقطع النظير رموز القوة الاقتصادية والعسكرية فوق الأرض الأمريكية نفسها، وجعل السلطة الوطنية ممثلة فى الرئيس وأفراد إدارته فى موضع الخطر المباشر.

ويمكن التأكيد أنه حتى ١١ سبتمبر كان الوعى العام بوجود تهديد إرهابى يحيط بالولايات المتحدة متوفرا بالفعل ومنذ فترة بعيدة، إلا أن الأمر كان مختلفا بالنسبة لمدى حساسية الأجهزة على الرؤية الصحيحة للأشياء والتفسير السريع لما تراه، أو كما يقولون "أن تتعرف على الشيء بمجرد رؤيته". وهناك بالطبع عشرات الأمثلة لدول وأجهزة مخابرات كانت ترى الخطر واضحا وضوح الشمس أمامها، لكنها فقدت القدرة على التعرف عليه وتفسيره حتى وهى فى حالة استنفار كامل.

تنقسم المساحة الزمنية التى يدور داخلها هذا التحليل إلى مرحلتين: الأولى تمتد من لحظة انتقال السلطة فى يناير ٢٠٠١ من إدارة كلينتون إلى إدارة بوش حتى يونية من نفس السنة، والثانية تركز على الشهور الثلاثة السابقة على الحدث من يونية إلى سبتمبر والتى جرت فيها تحركات محمومة وسريعة من المجموعة المسئولة عن تنفيذ العملية الإنتحارية وكان ينبغى على الأجهزة الأمنية أن تشعر بهذه التحركات وهى فى عنفوان قوتها.

تبادل السلطة: تسليم وتسلم

مع اقتراب فترة رئاسة كلينتون على الانتهاء قرر ساندى برجر مستشار الأمن القومى للرئيس كلينتون عقد سلسلة من الاجتماعات بين فريق العمل التابع له وفريق العمل القادم التابع للسيدة كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومى للرئيس بوش والتى سوف تحتل مكانه. وأخذت هذه الاجتماعات صورة محاضرات قصيرة من معاونى برجر حاولوا من خلالها تلخيص الموقف الأمنى المحيط بالولايات المتحدة بجوانبه المختلفة إلى فريق العمل القادم. ولم يحضر ساندى برجر هذه الاجتماعات إلا اجتماعا واحدا كان مخصصا لموضوع "الإرهاب الدولى" مع التركيز على منظمة القاعدة. وبعد انتهاء المحاضرة أكد برجر لرايس داخل مكتبها أنه يتوقع أن الإدارة الجديدة سوف تعطى وقتا للإرهاب الدولى ولمنظمة القاعدة أكثر من أى موضوع آخر.

قدم ريتشارد كلارك المحاضرة الخاصة بالإرهاب وهو من الذين عملوا مع إدارة بوش الأب ثم كلينتون حيث كان مسئولا عن ملف الإرهاب. وبعد حادثة الهجوم على المدمرة كول تولى كلارك تحضير خطة لمهاجمة منظمة القاعدة فى صورة ورقة استراتيجية قدمها إلى برجر وعدد من وكالات الأمن الأخرى فى ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٠، لكن برجر ورجال إدارته وجدوا أنه من الأفضل تجميد الخطة لقصر المدة الباقية لهم فى البيت الأبيض فقد كان من الصعب أن يشنوا حربا ثم يلقون بها فى حجر الإدارة الجديدة. والخطة التى وضعها كلارك كانت تقوم على تقطيع أوصال القاعدة والقبض على أعضائها وتحطيم هيكلها المالى وتجفيف منابع التبرعات لأنشطتها. وأهم ما ركز عليه كلارك زيادة النشاط المخابراتى فى أفغانستان لحرمان القاعدة من الحماية التى

تحصل عليها هناك ومنعها من إنشاء معسكرات تدريب، ودعم تحالف الشمال لكونه القوة الوحيدة القادرة على التصدى لحركة طالبان. ومن جانبهم نفى رجال إدارة الرئيس بوش ما تردد فى وسائل الإعلام بأنهم تلقوا خطة رسمية من كلارك وقالوا إنهم تلقوا فقط مجرد توصيات بإعطاء أهمية للموضوع.

وبرغم أن الإدارة الجديدة قد احتفظت بريتشارد كلارك مسئولا عن ملف الإرهاب إلا أن خطته لم تحظ بالعناية الكافية من المناقشة والاستماع حتى نهاية إبريل ٢٠٠١ ثم أخذت أربعة شهور أخرى حتى وصلت إلى يد الرئيس. كان دونالد رامسفيلد وزير الدفاع مشغولا خلال تلك الفترة بمراجعة الهيكل العسكرى للقوة الأمريكية ومشروع النظام الدفاعى المضاد للصواريخ، وكان النائب العام جون أشكروفت مشغولا بخطط لمقاومة الجريمة الداخلية، وكانت كونداليزا رايس مشغولة بتشكيل فريقها الأمنى. وكانت إدارة الرئيس بوش بأجنحتها المختلفة السياسية والعسكرية والأمنية قد قررت مراجعة موضوع الإرهاب الدولى كله على مهل على أساس القضاء تماما على منظمة القاعدة، ولكن القدر لم يسعف هؤلاء، ففى نفس فترة المراجعة كانت مجموعة تنفيذ عملية ١١ سبتمبر قد أخذت طريقها من أماكن مختلفة على مستوى العالم إلى فلوريدا وكاليفورنيا لتعلم الطيران داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

قُبَيْل الحدث

المساحة الزمنية التى يدور داخلها هذا الجزء من التحليل حول تقصير الإدارة الأمريكية هى على الأكثر الشهور الثلاثة السابقة على الحدث، والتى جرت فيها تحركات محمومة وسريعة من المجموعة المسئولة عن تنفيذ العملية الإرهابية، وكان ينبغى على الأجهزة الأمنية أن تشعر بهذه التحركات وهى فى عنفوان قوتها. وللعجب فقد حدث بالفعل فى يولية ٢٠٠١ أن وجد بيل كيرتز - أحد مسئولى مكتب التحقيقات الفيدرالى فى مدينة فوينكس - وهو يتابع التحقيق حول عدد من المتطرفين الإسلاميين أن واحدا من رجاله يُدعى كينيث وليامز قد لاحظ أن معظم الأفراد المطلوب التحقيق معهم كانوا مقيدين فى برامج تدريب على قيادة الطائرات. وزادت الشكوك عندما عرف أن عددا من أفراد هذه المجموعة كانوا يستفسرون عن أمن المطارات.

وبسبب أن كيرتز قد عمل من قبل فى الوحدة التى تحمل اسم أسامة بن لادن والتابعة لقطاع الإرهاب داخل مكتب التحقيقات الفيدرالى فقد استشعر من واقع المعلومات المثارة أمامه أنه أمام موضوع كبير من المحتمل أن يكون له أبعاد خطيرة. ولم يشأ كيرتز أن يضيع وقتا فكتب مذكرة أرسلها إلى رؤسائه بناء على ملاحظة وليامز تشير إلى أن بن لادن ربما يستخدم مدارس تعليم الطيران للنفاذ إلى شبكة الطيران المدنى الأمريكى، وتحمل كيرتز فى سبيل ذلك سخرية زملائه بأنه يرى شبح

أسامة بن لادن في كل شئ متأثراً بخدمته الطويلة في هذا الموضوع. وتضمنت المذكرة توصيات مقدمة لمكتب التحقيقات الفيدرالي بمراقبة المدارس والمراكز والكليات والجامعات التي تقوم بتدريس الطيران المدني. ولم يكن حظ كيرتز ووليامز جيداً، فقد كان التجاهل نصيب المذكرة المقدمة منهما، والسبب ربما يتعلق ببعض القيود الموضوعة على حركة الأمن لحساسية الأمريكيين الشديدة إزاء التدخل الحكومي في شئون الفرد والحريات المدنية. لم يُكتب لمذكرة كيرتز أن تخترق القيود البيروقراطية كي تصل إلى مستويات الإدارة العليا، ولم يتم إرسالها إلى وكالة المخابرات الأمريكية بسبب العلاقة التنافسية بين المؤسستين، وبسبب أن الرجل الذي على رأس هذه الوكالة – جورج تينيت، وهو أحد القلائل المتبقين من إدارة كلينتون – كان من المنادين بشكل متكرر بأن بن لادن هو الخطر العاجل والداهم المحدق بأمريكا.

لم تكن الإشارات والإرهاصات غائبة، ففي نفس الفترة التي أرسل فيها كيرتز مذكرته شعر الرئيس بوش لأول مرة في يولية ٢٠٠١ بالقلق وعدم الفهم لسيل التحذيرات المنهمر عن عمليات إرهابية وشيكة ضد الولايات المتحدة الأمريكية. وفي ٥ يولية وجه بوش نظر كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومي للبحث فيما يجري ويدور داخل الولايات المتحدة. وبعد ذلك بشهر كامل تقريباً بدأ الرئيس يتلقى ملخصاً يومياً حول الوضع تضمن احتمال تعرض الولايات المتحدة في الداخل لهجوم بطائرات مدنية مخطوفة، وتحديداً فقد ركز الملخص المقدم للرئيس في ٦ أغسطس على تاريخ بن لادن وأسلوبه في تنفيذ عملياته.

وتزامن أيضاً مع مذكرة كيرتز أن قبض مكتب التحقيقات الفيدرالي في مينوبوليس على زكريا موسوي الطالب في أحد مدارس تعليم الطيران بدعوى أنه يُعِد لعملية إرهابية باستخدام طائرة تجارية كبيرة. وسجل أحد عملاء المكتب في ملاحظاته أن موسوي ربما يخطط للاصطدام بمركز التجارة العالمي، كل ذلك بدون أن يعرف هؤلاء العملاء شيئاً عن المذكرة المرفوعة من كيرتز.

يضاف إلى ذلك أن أحداً من المستويات العليا في الإدارة لم يكن يعلم - بعد أسابيع قليلة من تحذير كيرتز - أن وكالة المخابرات الأمريكية قد حصلت على معلومات عن وصول رجلين مشتبه في تورطهم في عملية المدمرة كول إلى الولايات المتحدة وهما خالد المحضار ونواف الحزمي. وبعد أن توصلت عملية البحث عنهما إلى وجودهما في كاليفورنيا لم يتبادر إلى الذهن البحث عن أسمائهم في دليل تليفونات سان دييجو وكان الحزمي مسجلا به، أو التفتيش في حسابات البنوك وكان لأحدهما حساب في أحد البنوك المحلية. وفي نهاية الأمر ظهر أن الرجلين قد شاركا مع باقي مجموعة الخاطفين في ١١ سبتمبر فكانوا على متن الرحلة ٧٧ لشركة أميريكان إيرلاينز التي ارتطمت بالبنتاجون.

ويبدو أن عددا من المؤسسات الأمريكية البعيدة عن شئون الأمن قد استشعرت بسبب تزايد الطلب على تعلم الطيران من العرب، وبسبب بعض المشاكل التى تولدت عن ذلك والأجواء العامة المشحونة بالتحذيرات أنه يتوجب عليها الانتباه لخطورة الموقف، فأصدرت إدارة الطيران الفيدرالية توجيها يحذر شركات الطيران من احتمال تعرضها لهجمات إرهابية، وقد صدر فى هذا الشأن حوالى من ١٠ إلى ١٢ تحذيرا فى الفترة من شهر يونية إلى ١١ سبتمبر. وقد تضمن اثنان على الأقل من هذه التحذيرات إشارة إلى احتمال حدوث اختطاف طائرة.

وفى نفس فترة اهتمام الرئيس بوش بالإرهاب وتنظيم القاعدة فى أوائل يولية كان أحمد رسام داخل السجن فى غرب الولايات المتحدة بعد اكتشاف أنه يخطط لتفجير مطار مدينة لوس أنجلوس مع احتفالات بداية الألفية. وبعد إدانته أمام المحكمة فى ربيع ٢٠٠١ بدأ فى إعطاء جهات التحقيق معلومات عن تشكيل منظمة القاعدة داخل الولايات المتحدة. ولم يترك حديث رسام أى شك فى أن جميع مطارات الولايات المتحدة مستهدفة وأنها أهداف للعمليات الإرهابية القادمة. وكان تبريره أمام المحكمة فى يولية أن المطارات لها حساسية خاصة سياسية واقتصادية. وقد أسهم شرح رسام فى صياغة توجيهات إدارة الطيران الفيدرالى لكنها لم تكن بنفس الدرجة من الفاعلية فى إقناع المسئولين بخطورة الموقف، وظلوا على قناعتهم الخاطئة بأن التهديد سيكون موجها لأهداف فى الخارج وليس فى الداخل.

وفى صيف سنة ٢٠٠٠ ظهرت تعقيدات أخرى بسبب تفاعل مواقف لم تكن فى الحسبان؛ ولكنها كانت من نسيج نفس الموضوع، عندما اكتشف القاضى رويس لامبيرث كبير قضاة المحكمة الفيدرالية الخاصة فى واشنطن أن أحد رجال مكتب التحقيقات الفيدرالى قدم طلبا بدون وجه حق للتنصت على مكالمات أحد المشتبه فيهم. عندئذ انفجر القاضى غاضبا وطلب من أشكروفت النائب العام فتح تحقيق فى ذلك. أحدث هذا الأمر هزة عنيفة داخل مكتب التحقيقات، وكانت من نتيجته أن أوقف مكتب التحقيقات الفيدرالى كل عمليات التنصت على كل المشتبه فيهم بسبب علاقتهم بتنظيم القاعدة أو بتفجير السفارات الأمريكية فى إفريقيا سنة ١٩٩٨. لقد تسبب هذا الموقف فى إلغاء ما بين عشر إلى عشرين عملية تنصت لها علاقة بتنظيم القاعدة، بالإضافة إلى عملية تنصت واحدة على تنظيم حماس. كما رفضت أيضا طلبات للتنصت من مكتب مينوبوليس ومن فيونيكس.

هكذا بدا الأمر شائعا ومعروفا على أكثر من مستوى: البوليس والقضاء ومؤسسات الطيران والمخابرات. ومع كل هذا الشيوع لم يكن الموضوع يحظى بأولوية ما على المستوى الوزارى أو الرئاسى، ولم يؤد إلى رفع مستوى الاستعداد فى المطارات إلى المستوى المطلوب، حتى إن تصريحات المسئولين فى شركات الطيران التى فقدت

طائراتها فى هجوم ١١ سبتمبر أظهرت أنهم بالكاد سمعوا بتحذيرات إدارة الطيران المدنى.

لقد كان نظام تحليل المعلومات فى أجهزة المخابرات والتحقيقات عتيقا متهالكا لدرجة تدعو إلى الرثاء، إضافة إلى أن مكتب التحقيقات فى عصر المدعى العام الجديد أشكروفت ركز على جرائم العنف الجنائى والمخدرات والإجهاض، واحتلت مكافحة الإرهاب أولوية متأخرة على عكس الوضع خلال إدارة كلينتون برغم أن إدارته قد سجلت أيضا نتائج متواضعة فى هذا المجال. ولم يكن أشكروفت وحده فى إدارة بوش الذى قلل من خطر موضوع الإرهاب، بل كان معه فى نفس الاتجاه دونالد رامسفيلد وزير الدفاع. وعلى سبيل المثال لم يكن رامسفيلد متحمسا للاستمرار فى تطوير الطائرة بدون طيار "بريداتور" والتى أسهمت بدور كبير بعد ذلك فى حرب أفغانستان وتعقب أسامة بن لادن.

أطلت أخبار مذكرة كيرتز فجأة لتثير مكنون الآلام من جديد فى قلوب أسر آلاف الضحايا، كرمز لافتقاد القدرة على رؤية الأشياء والمعانى والأدلة المحتشدة فى الأفق الأمريكى. وبسبب أن بوش قد أكد أكثر مرة أنه لم يكن على أدنى بينة من احتمال حدوث مثل هذا الهجوم، فقد حدث ذعر جماعى داخل الإدارة عندما بدأت المعلومات تتسرب عن وجود مذكرة مهمة تم تجاهلها وتلقفتها وسائل الإعلام المتعطشة إلى شىء مثير منذ فترة طويلة. ولأول مرة منذ بدء الحرب ضد الإرهاب فقد نشأ عن ذلك فجوة ثقة بين الرئيس والشعب برغم أن كونداليزا رايس قد حاولت التأكيد بأن الرئيس لم يعرف شيئا عن مذكرة كيرتز، وأن المذكرة قد توقفت فى مكان ما.

فشل على كل الجبهات

ويبعدا عن الأمور الشكلية فهناك شبه إجماع من المراقبين أن فشلا ما قد حدث على كل الجبهات خلال صيف ٢٠٠١ الذى سبق أحداث ١١ سبتمبر. فعلى مستوى مكتب التحقيقات الفيدرالى تمثل الفشل فى عدم استشعار الخطر المنتشر والمتحرك فى الداخل. وعلى مستوى وكالة المخابرات الأمريكية فبرغم تعرض المصالح الأمريكية لعمليات إرهابية متتالية فإنها فشلت فى ملاحظة اتساع الخروق الذى ينفذ من خلالها عملاء بن لادن والجماعات الإسلامية المتطرفة. ونتيجة الصراع بين المؤسستين الأمنيتين: وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى تمثل الفشل فى القصور فى تبادل المعلومات بينهما. ولم يكن الفشل إلا نتيجة منطقية للحالة العقلية الجامدة للإدارة الجديدة وتدنى قدرتها على الخروج من تلك الحالة ورؤية الواقع الجديد. وبصرف النظر عن معرفة الرئيس بوش بالخطر قبل وقوعه من عدمه فلم تكن إدارته

أصـلا مهتمـة بـأى موضـوع كانت الإدارة السـابقة توليـه الاهتمـام، فضـلا عن تقـاعس الإدارة الجديدة فى طلب معلومات أوفر عن خطورة الإرهاب ونشاط تنظيم القاعدة.

لقد جاءت الصدمة الكبرى من حقيقة أن الولايات المتحدة – وهى التى يقر العالم أجمع بسبقها فى تكنولوجيا المعلومـات - قد أصـيبت مـن هجـوم مفـاجئ بسـبب فشـل معلومـاتى فـى المقـام الأول. واكتشـفت الإدارة بالإضـافة إلـى ذلك أن كل جـزء منهـا لا يعلم مـا يعرفـه أو يعملـه الآخـرون. لقد كانت نذر التهديد تلـوح لـبعض المؤسسـات فى الداخل، ومثلها أيضا من الأدلة كانت تلوح لمؤسسات تعمل فى الخارج، لكن كل ذلك لم يلق الاهتمام الواجب.

الإدارة الأمريكية حاولت منذ اللحظة الأولى التنصل من المسئولية باختلاق أعذار مختلفة. روبرت موللر مدير مكتب التحقيقات الفيدرالى أكد بعد ستة أيام من الحادث أنه لم تكن هناك تحذيرات، وغضب كثيرا عندما تكشفت قصـة مذكرة كيرتز. كونداليزا رايس قالت "لا أعتقد أنـه كـان من الممكن لأى إنسـان التنبـؤ بـأن هـؤلاء النـاس سـوف يخطفون طـائرة ويصدمون بها مركز التجارة العالمى". وأضـافت "أن هذا الحديث عن اختطـاف الطـائرات كـان منصـبا علـى الاختطـاف التقليدى واحتجـاز رهـائن". والحقيقة كانت مخالفة لذلك، فاستخدام الطائرات فى تدمير أهداف معينة كان مطروحا باستمرار خلال سنوات التسعينات، وقد حذرت السلطات الإيطالية من ذلك أثنـاء قمـة جنـوا للـدول الثمانى الصناعية وحشدت فى المنطقة بطاريـات صـواريخ مضـادة للطـائرات بالتعـاون مع وكالة المخابرات الأمريكية. وهناك حجة أخرى جاهزة: فالثابت تاريخيـا أن معظم الدول التى واجهت هجوما خاطفا لم تنجح فى صده، وتضم قائمـة الـدلائل مـا حدث فـى بيرل هاربر سنة ١٩٤٢ بالنسبة للولايات المتحدة، ومـا حدث لفرنسـا وبريطانيـا سـنة ١٩٤٠، وكـذلك بالنسبة لألمانيـا فـى يونيـة ١٩٤٤، ثـم حديثـا فـى عمليـة غـزو العـراق للكويت فى أغسطس ١٩٩٠.

ويرى قسم آخر أن مراجعة ما حدث واستخلاص الدروس منه ليس مناقضا للوطنية حتى ولو كانت أمريكا فـى حالـة حـرب. إن فتح الموضـوع سـوف يمتد بالضـرورة إلـى الرؤيـة الدفاعيـة الأمريكيـة والمفاهيم السياسـية التـى تقوم عليهـا. الإدارة السـابقة كانـت عالمة تماما بخطورة الموقف، وخلال مقابلة ساندى برجر مستشار كلينتون بكونداليزا رايس ليقدم لها تلخيصـا للموقف قبل أن يغادر منصبه حذرها مـن بـن لادن وقـال لهـا إن عليهـا أن تعطـى وقتـا طـويلا لهذا الموضـوع. وطلبت رايس بمجـرد توليهـا للمنصب مراجعـة اسـتراتيجية للموقـف لكـن الموضـوع أهمـل بعد ذلك ولـم يعد ينـاقش بعد أن أعطت الإدارة معظم وقتها لمشاريع الدفاع ضد الصواريخ وموضوع العراق. وظهر للموضوع جانب آخر أيديولوجى: فإدارة بوش كانت تريد منذ البداية أن ترفـع يدها عن كثير من الأمور، وأن تخفف من وطأة قوانين منع غسيل الأموال. أما رامسفيلد فلم يكن

إرهاب بن لادن يعني بالنسبة له أكثر من مشكلة مجرم خارج على القانون، ووضع كل تركيزه على دفع العمل في مشروع الدفاع ضد الصواريخ وتسليح الفضاء ولم يكن يرغب في أن يضيع وقته فيما تركه كلينتون.

وبالنسبة لموقف الرئيس بوش فقد جاهدت كونداليزا رايس في إبعاد اللوم عنه، وقالت إن المذكرة التي قدمت له في ٦ أغسطس كانت مشوشة ومختصرة ولم تكن تزيد عن صفحة ونصف. ورفض نائب الرئيس أن يشهد رجال الإدارة أمام لجان التحقيق في الكونجرس لكن رجال المعارضة الديموقراطيين والجمهوريين طالبوا بالتحقيق وهزأوا من استغلال غطاء الوطنية والحرب في الهروب من البحث عن الحقيقة. كما عبرت بعض الشخصيات التي لها علاقة بضحايا الحادث عن تذمرها وامتعاضها من تهرب الإدارة من فتح تحقيق في الحادث، مثل كاثي أشتون التي فقدت ابنها حين قارنت بين تحقيق الكونجرس الفوري في حادثة انهيار شركة إنرون وبين الانتظار لأكثر من ثمانية شهور للتحقيق في مقتل نحو ثلاثة آلاف إنسان فوق الأرض الأمريكية بسبب أن المؤسسات المنوط بها حماية الشعب لم تقم بالعمل الذي كان من واجبها أن تقوم به.

الحملة العسكرية على أفغانستان

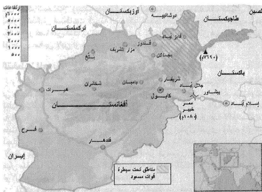
لم تمض إلا أسابيع قليلة بعد هجمات سبتمبر، حتى دخلت الولايات المتحدة أولى حروب القرن الحادى والعشرين ضد أفغانستان، ونظام طالبان الحاكم هناك، وتنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن، بعد أن اتهمته الولايات المتحدة بأنه المسئول الأول عن عملية الهجوم المأساوية عليها. شنت الولايات المتحدة حربها ضد أفغانستان داخل إطار واسع أطلقت عليه "الحرب ضد الإرهاب"، ونجحت فى أن تحشد لهذا الهدف تحالفا دوليا دعم حملتها العسكرية ضد أفغانستان وساعدها فى تعقب أعضاء تنظيم القاعدة فى دول العالم المختلفة. وبمساعدة فعالة من الجبهة الموحدة لتحالف الشمال الأفغانى المناوئ لطالبان استطاعت الحملة الأمريكية إسقاط نظام طالبان وإقامة حكومة مؤقتة مكانه، ورغما عن ذلك لم تنجح الحكومة الأمريكية حتى الآن فى الإمساك بزعيم القاعدة أسامة بن لادن أو زعيم حركة طالبان الملا عمر.

التخطيط للحرب

واجه التخطيط للحملة العسكرية الأمريكية ضد أفغانستان صعوبات أساسية تمثلت فى طبيعة الهدف المطلوب تحقيقه وهو الإمساك بأسامة بن لادن حيا أو ميتا، وتدمير تنظيم القاعدة والقبض على أعضائه، ثم الإطاحة بنظام طالبان وإقامة نظام حكم بديل له فى كابول. وتركزت الصعوبات الأخرى فى الطبيعة الجغرافية لأفغانستان، من حيث استحالة الوصول إليها برا أو جوا بدون المرور بدول أخرى، وقسوة أراضيها الجبلية وما تمثله من صعوبة حقيقية لأية حملة برية وما تمنحه للخصم الموجود على الأرض من ملاذ آمن ليس من السهل اكتشافه أو الوصول إليه. وبهدف الوصول إلى خيار مناسب لسيناريوهات الحملة العسكرية طرحت القيادة السياسية والعسكرية فى الولايات المتحدة على بساط البحث عددا من الخيارات:

- الاكتفاء بالحملة الجوية وتوجيه ضربة كاسحة من صواريخ الكروز والمقذوفات الموجهة الدقيقة بواسطة الطائرات القاذفة مثل ب-٥٢ و ب-٢. وميزة هذا الخيار أنه يجنب الولايات المتحدة التعرض لخسائر بشرية لكنه لا يحقق هدف الوصول إلى بن لادن إلا إذا قامت طالبان بتسليمه تحت وقع الضرب الجوى.

- غزو أفغانستان واحتلالها بالكامل باستخدام القوات البرية والجوية معا. وكان واضحا أن هذا الخيار يحتاج إلى أعداد كبيرة من الجنود وإقامة قاعدة أمريكية داخل الحدود الأفغانية والتخطيط للدفاع عنها.
- الاعتماد بشكل رئيسي على قوات الجبهة الموحدة لتحالف الشمال التى هى فى الأساس عدوة لطالبان والتى تمتلك قوة قوامها حوالى ٢٠٠٠٠ رجل متمركزين فى أماكن حاكمة بالنسبة للعاصمة تقع على مسافة ٥٠ كم وباقى مناطق أفغانستان. وكان من الواضح أن تحالف الشمال يمكنه بالإضافة إلى ما سبق تقديم عدد من الخدمات الحيوية للحملة الأمريكية مثل توفير المعلومات عن قوة طالبان وأماكن تمركزها وطريقتها فى القتال وشبكة القيادة التابعة لها، وتقديم الدعم والتوجيه العملياتى للقوات الأمريكية، كما يمكنه المساعدة فى فتح الطريق إلى إقامة حكومة مؤقتة موسعة بدعم من المجتمع الدولى.



الطبيعة الجبلية لأفغانستان ومناطق سيطرة قوات المعارضة فى الشمال

استعدادا للهجوم شرعت الولايات المتحدة فى تحريك أكثر من ١٠٠ طائرة إلى الخليج، أوزبكستان، طاجكستان، وقاعدة ديجو جارسيا البحرية ومن بين هذه الطائرات:

قاذفات B-1 — طائرة الإمداد بالوقود KC-10

مقاتلات F-16 — مقاتلات F-15E

طائرة الإمداد بالوقود KC-135 — أواكس E-3

مناطق انتشار القوات الأمريكية حول أفغانستان

فى كل السيناريوهات السابقة كان الحصول على مساعدة باكستان جوهريا لنجاح الولايات المتحدة فى هذه الحرب وكذلك باقى دول الشمال التى كانت تابعة من قبل للاتحاد السوفييتى. وكانت باكستان قد واجهت خيارا صعبا بعد أحداث ١١ سبتمبر، فإما أن تشارك الولايات المتحدة فى القضاء على أسامة بن لادن وشبكة القاعدة أو أن تستمر فى دعمها لنظام طالبان وتواجه العداء الأمريكى والإدانة الدولية. واحتاج الأمر من الرئيس مشرف ليس أكثر من ٢٤ ساعة ليعلن أن باكستان ستقدم عونها غير المحدود إلى الولايات المتحدة فى حربها ضد طالبان. وبعد أن اجتمع الرئيس مشرف مع القادة العسكريين فى الجيش الباكستانى وعلى رأسهم قادة الفيالق التسعة أعلن موافقة باكستان على فتح المجال الجوى أمام الطائرات والصواريخ الأمريكية، وتبادل المعلومات، وتقديم دعم لوجيستى للقوات الأمريكية يشمل استعمال قاعدتين جويتين فى يعقوب أباد وفى باسنى لاستخدامهما فى حالات الطوارئ والإنقاذ. ثم قام مشرف بعمل تغييرات أساسية فى قيادة القوات المسلحة الباكستانية وفى أجهزة المخابرات. وفى مقابل ذلك رُفعت كل صور الحظر عن باكستان، وقدمت الولايات المتحدة لها دعما ماليا وقرضا من البنك الدولى قدره ٣٧٩ مليون دولار مع تأجيل فى السداد وإعادة جدولة الديون.

ولقد استقر الأمر فى النهاية على شن حملة جوية مع تكثيفها لأقصى درجة ممكنة، والاستعانة بقوات تحالف الشمال المعارضة لحركة طالبان بعد إمدادها بالسلاح، واستخدام القوات الخاصة الأمريكية والبريطانية للقيام بعمليات مفاجئة على الأرض لإنجاز مهمة البحث عن بن لادن والملا عمر وباقى قيادات حركة طالبان وتنظيم القاعدة.

التمهيد للحرب

بدأ التمهيد للحملة العسكرية وسط ظروف سياسية مواتية، ففى إطار محاربة الإرهاب، تلقت الولايات المتحدة تأييدا من كل المنظمات الدولية الكبرى مثل حلف الناتو والاتحاد الأوروبى ومنظمة الدول الأمريكية ومنظمة الوحدة الإفريقية والأسيان والجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن. والأهم من ذلك تلقت الولايات المتحدة تأييد الجيران المباشرين لأفغانستان مثل باكستان والصين وإيران وتركمنستان وأوزبكستان وطاجيكستان، وحصولها على قرار من مجلس الأمن يفرض على كل الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة منع الإرهابيين من السفر وتحويل أموالهم إلى الخارج والتعاون فى تسليمهم إلى العدالة.

ومنذ اللحظة الأولى لهجمات سبتمبر، وبعد ٣٠ ساعة فقط من اصطدام أول طائرة مخطوفة بمركز التجارة العالمى، ساند حلف الناتو بقوة وبسرعة الولايات المتحدة فى الكارثة التى ألمت بها، وقام بتفعيل المادة الخامسة الخاصة بالدفاع المشترك لأول مرة منذ ٥٢ سنة. وكان قد تردد فى أروقة الحلف تساؤل عن طبيعة الهجوم، وهل يمكن اعتباره هجوما خارجيا ضد الولايات المتحدة حتى يمكن تفعيل المادة الخامسة الخاصة بالدفاع المشترك. وقد حسم النقاش ما تحقق من تعديل سابق قريب للمادة الخامسة وللمفهوم الاستراتيجى لعمل الحلف فى إبريل ١٩٩٩ بإضافة بند التصدى لخطر الإرهاب إلى مهام الحلف الأخرى. وتلا ذلك قيام مجلس "المشاركة الأطلسية الأوروبية" المكون من الحلفاء التسعة عشر و ٢٧ دولة أخرى بإعلان مساندة مماثلة، وفى تطور مهم اجتمع "المجلس الدائم لحلف الناتو وروسيا" وأعلن الطرفان - روسيا وحلف الناتو - أن تعاونهما المشترك سوف يشتد ويتعاظم لمواجهة خطر الإرهاب.

وفى حادث غير مسبوق، قام حلف الناتو بدفع ٥ طائرات أواكس إلى الولايات المتحدة لحماية الأرض الأمريكية نفسها، كما قام بنشر ٩ قطع بحرية من أسطول المتوسط التابع له فى شرق البحر المتوسط لمراقبة الوضع وإبراز تصميم الحلف وتأييده للولايات المتحدة الأمريكية. ووافقت باقى دول الناتو الثمانى عشرة على كل مطالب الولايات المتحدة الأخرى مثل: استخدام مجالها الجوى والفضائى وقواعدها الجوية والموانى وتسهيلات التزود بالوقود. كما تولى حلف الناتو تأمين القوات الأمريكية والبعثات الدبلوماسية الأمريكية فى أوروبا وتحمل مهام أية قوة أمريكية يتم سحبها من البلقان لأغراض الحرب فى أفغانستان. كما وضعت لجان الناتو المتخصصة، وهى حوالى ٥٠٠-٦٠٠ لجنة، فى حالة تأهب واستنفار لتقديم المشورة العسكرية للعمليات وخاصة ما يتصل منها بالحرب الكيماوية والبيولوجية.

وأبدت فرنسا وألمانيا رغبتهما فى المشاركة فى الحرب برغم أوضاعهم الخاصة داخل الناتو وتبعتهما أسبانيا وإيطاليا. وواجهت اليونان بعض المشاكل لوقوف اليونانيين ضد الحرب فى أفغانستان، أما تركيا فقد بدت متحمسة للمشاركة لكنها لم تتحمس لمد الحرب إلى بلاد أخرى. وبالنسبة لبلجيكا فلم تبد رغبة فى إرسال قوات أكثر من مشاركتها الحالية فى قوات حفظ السلام للأمم المتحدة وذلك لأسباب مالية، ولحاجتها إلى مزيد من القوات لحفظ أمنها الداخلى، كما أبدت دول مثل كندا والدانمارك وهولندا مواقف مماثلة. وبالنسبة للدول الجديدة فى حلف الناتو فقد عرضت بولندا أن تأخذ أماكن القوات المنسحبة من البلقان، وقدمت جمهورية التشيك معدات للحماية من الحرب الكيماوية، أما المجر فقد ظلت صامته ولم تبد رغبتها فى المساعدة.

مشاركات الدول فى الحملة الأمريكية ضد أفغانستان

الدولــة	الدعم المقدم للحملة العسكرية الأمريكية
المملكة المتحدة	٢ غواصة حاملة للصواريخ الكروز (Trafalgar and Triumph) طائرات تموين بالوقود VC-10 and Tristar tanker fleet ٢ طائرة استطلاع PR9 reconnaissance aircraft طائرة استطلاع إلكترونى "النمرود" Nimrod R1 electronic intelligence طائرة للإنذار المبكر E-3D airborne warning and control system
أستراليا	وحدة من القوات الخاصة من ١٥٠ فردا ٢ طائرة للتزود بالوقود فى الجو B707-338C ١ سفينة نقل برمائية Amphibious transport ship
كنــدا	١٨ سفينة قتال حربية Surface combatants ٣ طائرات نقل ثقيلة CC-130 Hercules transport aircraft ١ طائرة نقل استراتيجية من طراز بولاريس CC-150 Strategic Lifter ٢ طائرة دورية بحرية CP-140 Aurora maritime patrol aircraft وحدة مقاومة إرهاب Joint Task Force-2 counter-terrorism unit
فرنسا	طائرات استطلاع استراتيجى Mirage IVO strategic reconnaissance fighter طائرة استطلاع إلكترونى C-160G Gabriel electronic-intelligence aircraft سفينة جمع معلومات Bougainville intelligence gathering ship أقمار تصوير فضائى واستطلاع Helios 1A and 1B, Clementine Cerise قوات خاصة

"تابع" مشاركات الدول فى الحملة الأمريكية ضد أفغانستان

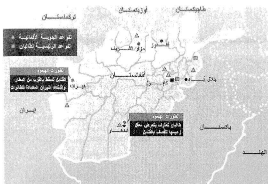
الدولـة	الدعم المقدم للحملة العسكرية الأمريكية
إيطاليا	٦-٨ طائرة تورنادو للاستطلاع التكتيكى Tornado multirole aircraft for tactical reconnaissance missions ١ طائرة تموين بالوقود Boeing 707-328B/-3F%C طائرة نقل تكتيكية C-130H tactical transport aircraft ٢ فرقاطة Maestrale-class frigate سفينة إمداد بالوقود Fleet replenishment vessel وعرضت إيطاليا تقديم دعم بقوات برية عند الحاجة: فوج مدرع (٢سرية دبابات سينتوريون)، كتيبة مشاة، ٤ هليوكوبتر، وحدة حرب كيماوية: نووية، كيماوية، بيولوجية. وحدة إمداد وتموين. ٤٠٠٠ فرد لحماية الأهداف الحساسة داخل إيطاليا
اليابان	أجرت اليابان عددا من التعديلات السريعة فى قوانينها لتتمكن من تقديم دعم عسكرى للولايات المتحدة. وسمحت هذه التعديلات بالآتى: تقديم دعم لوجيستى فى المناطق الخلفية لمسرح العمليات وخاصة مهام النقل حماية القوات الأمريكية فى اليابان (كان قاصرا من قبل على قوات البوليس) السماح لقوات حماية الشواطئ بفتح النيران على السفن والقطع البحرية المشتبه فيها
تركيا	قررت تركيا فى ١ نوفمبر بناء على طلب أمريكى فى ٢٦ أكتوبر إرسال ٩٠ رجلا من القوات الخاصة لتدريب قوات تحالف الشمال نظرا لعلاقات تركيا الخاصة العرقية بهذه القوات.

مستويات الهجوم فى الحملة الجوية والأسلحة المستخدمة

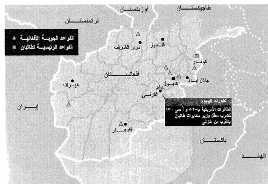
المـــدى	الذخيرة أو الســلاح
المدى البعيد خارج الأرض الأفغانية Long range	صواريخ الكروز من السفن أو الغواصات Ship -and-submarine-launched RGM/UGM-109 B/CT Tomahawk land-attack cruise missiles. صواريخ الكروز المحمولة جوا بالقاذفات الثقيلة مثل الطائرة ب-٢ والطائرة ب-٢ Conventional Air Launched Cruise Missile (CALCM)
خارج مدى الدفاع الجوى Standoff	ويطلق على هذه المجموعة بشكل عام "الذخيرة الموجهة الذكية ذات الدقة العالية" Precision Guided Munitions (PGMs) ولقد زاد من دقة هذه المجموعة استخدامها نظام الملاحة الفضائى GPS فى التوجيه إلى الهدف وتتكون من: صواريخ جو-أرض Joint Air-to-Surface Standoff Missiles AGM-154 صواريخ الهجوم الأرضى Standoff Land Attack Missiles (SLAM) AGGM-84H
صواريخ وقنابل الضرب المباشر Direct attack munitions	وهذه المجموعة من الصواريخ والقنابل كانت الأكثر استخداما فى الحرب الأفغانية نتيجة لضعف إمكانيات الدفاع الجوى مما سمح فى وقت قصير من الطيران فوق الهدف والاقتراب منه وتدميره بشكل مباشر. وتعتمد تلك الذخيرة فى توجيهها على نظام الملاحة الفضائى أو على الطرق التقليدية التى تعتمد على أجهزة الطائرة أو مهارة الضارب Man-in-the-loop بالإضافة إلى قدرة الذخيرة على تمييز خصائص معينة فى الهدف: رادارية أو بصرية أو حرارية مثل:

"تابع" مستويات الهجوم فى الحملة الجوية والأسلحة المستخدمة

المـــدى	الذخيرة أو الســلاح
"تابع" صواريخ وقنابل الضرب المباشر Direct attack munitions	الذخيرة المشتركة للضرب المباشر Joint Direct Attack Munitions (JDAM) الصواريخ المضادة للرادار Anti-radiation missiles مجموعة القنابل الموجهة بالليزر GBU-10, GBU-12, GBU-16, GBU-24, GBU-27, GBU-28 الصاروخ هاف-ناب Have Nap or AGM-142 الموجه بالرادار لسد فتحات الأنفاق بالانفجار عند فتحته ويمكن إطلاقه من مسافة ٨٠ كم من الهدف. الذخيرة الموجهة الخارقة للأهداف الحصينة GBU-37, GBU-28 الأنواع المطورة من هذه القنابل مزودة بوحدة تفجير ذكية لتحديد المسافة المناسبة لتفجير الرأس داخل الهدف Hard Target Smart Fuse (HTSF)، ويتراوح سمك الجدار الحصين الممكن اختراقه بين ١,٢ - ٣ متر. مجموعة القنابل التقليدية غير الموجهة Mk-82, Mk-83, Mk-84,BLU-109, CBU-87 الرءوس الحربية هواء-غاز Fuel-Air Explosive وتقوم بعمل سحابة ضخمة فوق الهدف من وقود خاص وعند إشعاله ينتج موجة ضغط هائلة تؤدى إلى تفريغ الأكسيجين من الهواء وتدمير التحصينات والأفراد الموجودة داخلها. ويمكن حمل هذه الرؤوس بواسطة الطائرات والصواريخ والطائرات بدون طيار. سلاح تدمير المخابئ الحصينة المحمول بواسطة الأفراد XM-141 Shoulder-mounted Bunker Defeat Munition ويستخدم بواسطة الأفراد فى اقتحام المخابئ الحصينة ويمكن إطلاقه من مسافة ١٥ - ٤٥ مترا.



الموقف فى ١٠ أكتوبر



الموقف فى ١٢ أكتوبر

تطورات الهجوم

تقوم قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بتوجيه ضربات متلاحقة إلى المحاربين في تنظيم القاعدة وطالبان الذين يحتمون في المناطق الجبلية شرق أفغانستان ، ويشارك في هذه العمليات حوالى ٢٠٠٠ من قوات التحالف والقوات الأفغانية

ملاحقة القاعدة وطالبان

تطور سيطرة قوات المعارضة فى أفغانستان

أما الدعم المباشر للحملة العسكرية فكان كبيرا بكل المقاييس، إذ امتد من الاشتراك المباشر في العمل العسكري بجانب الولايات المتحدة مثل بريطانيا، إلى تقديم المعلومات والدعم اللوجيستي والقواعد العسكرية ومراكز تجميع وانطلاق القوات وحق استخدام المجال الجوي للمرور أو شن الهجمات. بالإضافة إلى ما سبق، ساهمت بعض الدول بتقديم العون في مجال الجهود الإنسانية ورعاية اللاجئين. ويمكن القول أن دعم باكستان الكامل للحملة العسكرية الأمريكية كان نقطة تحول رئيسية في مسار الأحداث لصالح الولايات المتحدة. ويوضح الجدول مشاركات عدد من الدول الغربية في الحملة ضد أفغانستان.

العمليات الحربية

بدأ الهجوم على أفغانستان في السابع من أكتوبر ٢٠٠١ بعد أن أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش أن الولايات المتحدة في إطار حربها ضد الإرهاب قد بدأت عملية عسكرية واسعة وشاملة ضد حركة طالبان الحاكمة في أفغانستان. وضربت الصواريخ الأمريكية معسكرات التدريب التابعة لتنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن المتهم الأول في هجوم ١١ سبتمبر، وبعد ذلك بوقت قصير رد أسامة بن لادن قائلا في شريط مسجل بثته قناة الجزيرة القطرية، ظهر فيه أيمن الظواهري زعيم تنظيم الجهاد وسليمان غيث المتحدث باسم تنظيم القاعدة: "إن أمريكا لن تنعم بالأمن قبل أن تنعم به فلسطين، وإن ما حدث في الولايات المتحدة هو رد فعل طبيعي للسياسة الأمريكية الجاهلة".

المرحلة الأولى: الحملة الجوية

بدأت الحملة الجوية بالهجوم على وسائل الدفاع الجوي ومخازن الذخيرة والمدفعية والعربات المصفحة ومعسكرات التدريب ووحدات السيطرة والتحكم. وركزت الغارات على تدمير الأعداد المحدودة من الطائرات والمروحيات والمطارات المتوفرة لطالبان. وأشارت بعض التقارير أن طالبان كان في حوزتها قبل بدء العمليات ٣ بطاريات من صواريخ سام-٣ (بيتشورا) المضادة للطائرات، وحوالي ٢٤ طائرة ميج-٢١ من بينهم ٦ فقط كانت صالحة للطيران، وتردد الحديث أيضا عن امتلاك طالبان لصواريخ استنجر الأمريكية المضادة للطائرات، وصواريخ أرض-أرض سكود قصيرة المدى مما سبب بعض القلق للأمريكيين، إلا أن هذه المعدات والأسلحة كانت على الأرجح غير صالحة للاستعمال. وبالإضافة إلى ما سبق كان في حوزة طالبان مدافع مضادة للطائرات محمولة فوق عربات بيك آب. أما جنود طالبان الموجودون على خط المواجهة مع قوات تحالف الشمال فقدّر مجموعهم بحوالي عشرين ألف رجل.

انسم عمل الحملة الجوية الأمريكية بالهجوم على ثلاث مستويات (Layered attack)، كل مستوى يعمل عليه حزمة من الأسلحة تُطلق من مدى مختلف: المدى البعيد Long range من خارج حدود الأرض الأفغانية، والمدى المتوسط من خارج مدى اشتباك عناصر الدفاع الجوى Standoff، والمدى القصير للضرب المباشر Direct attack. والجدول يوضح نوعيات الأسلحة والذخيرة التى استخدمتها الولايات المتحدة فى حملتها الجوية على مستويات الهجوم الثلاثة. واستخدم فى حمل هذه الأنواع من الذخيرة والصواريخ الطائرات الآتية :

- القاذفات الثقيلة بعيدة المدى:
  - B-B1 Lancer
  - B-2A Spirit Stealth
  - B-52H
- وطائرات البحرية المحمولة على حاملات الطائرات:
  - F-14 Tomcat
  - F/A-18 Homet Strike Aircraft

وبرزت أيضا فى تلك المرحلة من الحرب الجوية سفينة المدفعية C-130U وهى طراز معدل من طائرة النقل المعروفة C-130H بعد تزويدها بوسائل نيران وأجهزة تنشين لدعم القوات البرية ومهاجمة الأهداف الأرضية بدقة أعلى وبقدر أقل من الأضرار الجانبية. واستخدم أيضا فى تلك المرحلة من الحرب وسائل الحرب النفسية بإلقاء الطعام والمؤن والمنشورات. كما نفذت أيضا أول عملية برية منذ أن بدأت الحرب أخذت النمط التجريبى بإدخال ١٠٠ جندى من قوات الرينجرز الأمريكية الخاصة إلى أفغانستان مساء ١٩ أكتوبر ٢٠٠١ حيث هاجمت هدفا قرب مدينة قندهار، واستمرت المعركة مع قوات طالبان لعدة ساعات قبل أن تنسحب طائرات الهليكوبتر والجنود إلى حاملة الطائرات كيتى هوك.

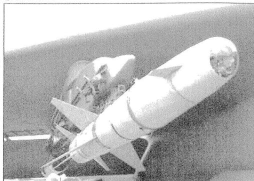
أخذت الحرب خلال الأسبوع الأخير من أكتوبر صورة السيطرة الجوية الشاملة للولايات المتحدة ومحاولات مستمرة من طالبان للانتشار وإخفاء المعدات داخل المدن وبالقرب من المناطق السكنية. وتلاحظ أن طالبان تستخدم وسائل خداع وإخفاء بسيطة مقارنة بما واجهته الولايات المتحدة فى حرب الخليج أو حرب كوسوفو، لكنها أربكت بكل تأكيد عمليات الكشف عن الأهداف وتمييزها بالنسبة للمعدات التى تم إخفاؤها فى الكهوف والجبال. وبشكل عام لم يحدث أن قامت طالبان بتجميع نيرانها فى شكل من أشكال المواجهة المباشرة، بل اتجهت إلى محاولة الحفاظ على أسلحتها المحدودة بأمل استخدامها فى مراحل الحرب التالية. ونتيجة لذلك قررت الولايات المتحدة الاقتراب

بهجماتها من المدن، لكن أخطاء فى عمل نظم توجيه الصواريخ تسببت فى أكثر من حادثة قتل للمدنيين على مشارف كابول وهيرات.

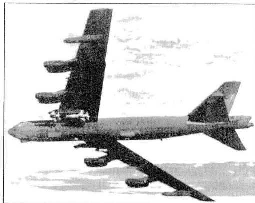
وبعد لقاء حاسم فى ٢١ أكتوبر ٢٠٠١ بين الجنرال الأمريكى تومى فرانكس قائد القيادة المركزية الأمريكية USCENTCOM المسئولة عن إدارة الحرب الأفغانية والجنرال محمد فهيم قائد قوات تحالف الشمال بدأ تصعيد الهجمات الجوية على امتداد الجبهة الفاصلة شمال كابول بين قوات تحالف الشمال وطالبان. استخدمت القوات الأمريكية الطائرات F/A-18 والطائرة B-52H فى ضرب قوات طالبان فى وادى شومالى شمال كابول بالذخيرة الموجهة الذكية الدقيقة وكذلك هاجمتهم حول مدينة قندوز ثم اقتربت الغارات من منطقة مدينة مزار الشريف شمال أفغانستان. ومع الأيام الأولى من نوفمبر بدأت قوات التحالف فى الاستعداد للحرب البرية باستكمال معدات وذخيرة ألوية المشاة الخمسة التى فى حوزتها، بالإضافة للواء من جنود الحرس موجود فى وادى بانجشير. ويتكون كل لواء من أربع كتائب (٣٠٠-٤٠٠ رجل) ووحدة مدرعات. وقبل أن يبدأ الهجوم البرى كانت القوة البشرية لتحالف الشمال قد وصلت إلى حوالى ٦٠٠٠ - ٨٠٠٠ رجل فى مواجهة قوة من طالبان تدافع عن العاصمة عددها يتراوح بين ٧٠٠٠ - ١٠٠٠٠ رجل.

المرحلة الثانية: التحول للحرب البرية

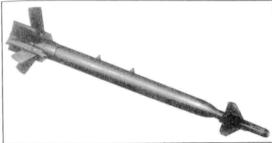
فى السادس من نوفمبر ٢٠٠١ بدأت الحرب فى أفغانستان تأخذ شكلا جديدا بعد شهر كامل من القصف الأمريكى الجوى المستمر بدون أن يحدث تغييرات جوهرية على موقف القوى المتصارعة اللهم إلا إنهاك قوات طالبان وتدمير قدراتها العسكرية داخل المدن والمناطق المحيطة بها. فى هذا اليوم تقدمت قوات تحالف الشمال مصحوبة بدعم جوى كثيف من القوات الأمريكية داخل المناطق الجبلية فى اتجاه جنوب مدينة "مزار الشريف" واستولت على "أق كوبروك" فى ٦ نوفمبر ثم شمالا إلى "شولجاريه" فى ٨ نوفمبر ثم مباشرة إلى مدينة مزار الشريف نفسها. دافع عن المدينة من قوات طالبان حوالى ٥٠٠٠-٦٠٠٠ جندى انضم إليهم حوالى ٥٠٠-١٠٠٠ من المتطوعين الباكستانيين فى مواجهة ٨٠٠٠-١٠٠٠٠ من الجنود الطاجيك تحت إمرة الجنرال عبد الرشيد دوستم، وقاد قوات طالبان الملا عبد الرزاق نافع متحصنا بعدد من النقاط القوية المحيطة بالمدينة. وبعد سقوط مزار الشريف، اندفعت القوات فى اتجاه العاصمة كابول فسقطت المدينة بعد سقوط مزار شريف بعدة أيام فقط. ومن المعتقد أن عدد قوات طالبان وحلفائها من تنظيم القاعدة الذين دافعوا عن العاصمة كابول كان حوالى ١٥٠٠٠ جندى يدعمهم حوالى ٤٠-٥٠ دبابة ثقيلة و٢٠ قطعة مدفعية صاروخية عيار ١٢٢مم. وأدى اقتحام المدينة إلى تدمير حوالى ١٥ دبابة وعربة مصفحة، وقتل من رجال طالبان ما يقرب من ١٠٠٠ جندى.



الصاروخ AGM-١٤٢ ضد الدشم والمواقع الحصينة



الطائرة بى ٥٢ إتش



الذخيرة الموجهة الخارقة للأهداف الحصينة جي بي يو ٣٧

بعد أن استولت قوات التحالف على كابول في ١٣-١٤ نوفمبر أصبح لها داخل المدينة حوالي ٦٠٠٠ رجل من بينهم ٢٠٠٠ أوكل إليهم أعمال البوليس والأمن الداخلي بمساعدة قوات من لواء الحرس الوطني تمركزت في تقاطعات معينة داخل المدينة. وأتاح سقوط المدينة الحصول على وثائق تشير إلى العلاقة الوثيقة بين تنظيم القاعدة والحركة الإسلامية في أوزباكستان ووزارة دفاع طالبان.

وقد أدهش انهيار حركة طالبان وسقوطها السريع كثيرا من المراقبين إلا أن الخيارات كانت أمامها قليلة، فالاستيلاء على المدن كان يبدأ بدك المدينة تماما بواسطة الطائرات الأمريكية مما جعل المدن مصيدة حقيقية بالنسبة لحركة طالبان، وجعلها تقرر الانسحاب من داخل المدن إلى أماكن أخرى أكثر أمنا. وأبدت قوات طالبان صلابة أكبر في الدفاع عن مدينة قندوز آخر المدن الكبرى في شمال أفغانستان، ولم تسقط أيضا مدينة قندهار معقل حركة طالبان إلا بعد قتال مرير ومفاوضات مضنية بين قوات طالبان وقوات قبائل الجنوب الباشتونية التي قررت إزاحة حركة طالبان والتخلص منها.

المرحلة الثالثة : البحث عن بن لادن

بدأت الولايات المتحدة فى الأيام الأولى من ديسمبر ٢٠٠١ فى نشر قوات من مشاة الأسطول القادرين على القيام بعمليات خاصة مثل الوحدة الخامسة عشرة والوحدة السادسة والعشرين. وصل عدد جنود هذه التشكيلات إلى حوالى ١٠٠٠ جندى الأمر الذى سمح بتكوين قاعدة عسكرية متقدمة فى أفغانستان. اختارت القيادة الأمريكية مكان القاعدة على مسافة ١٠٠ كم جنوب غرب قندهار بصورة تتيح اعتراض أية تحركات محتملة لقوات طالبان المتبقية. وتتميز هذه النوعية من الوحدات الخاصة بقدرتها على أن تكون جاهزة للعمل فى ظرف ٦ ساعات من وقت استلام المهمة، وأن تظل مكتفية ذاتيا لمدة ١٥ يوماً، ولمدة ٣٠ يوما إذا وصل تشكيل الوحدة إلى لواء كامل.

فى الأسبوع الأول والثانى من ديسمبر ٢٠٠١ تركزت العمليات العسكرية فى منطقة "تورا بورا" شرق أفغانستان، حيث اختبأ فى أنفاقها من تبقى من مقاتلى طالبان وتنظيم القاعدة، وقامت القوات الأمريكية بدك تلك الكهوف والأنفاق بالقنابل الثقيلة واقتحامها بواسطة القوات الأفغانية والقوات الخاصة الأمريكية. بدأ الهجوم على منطقة تورا بورا فى ٢ ديسمبر ٢٠٠١ باشتراك عناصر من القوات الخاصة الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية وصل عددهم إلى ٢٠٠ فرد. واعتمد القتال البرى على المقاتلين الأفغان، أما دور القوات الخاصة الأمريكية وعناصر المخابرات فقد انحصر فى جمع المعلومات حول المواقع التى يشتبه اختفاء أسامة بن لادن فيها أو تجمعات أفراد طالبان والقاعدة ثم إيصال هذه المعلومات إلى القاذفات الأمريكية لقصفها. وقد استخدمت القوات الأمريكية فى تلك المرحلة من الحرب قذائف صاروخية متطورة موجهة يمكنها اختراق الأرض وسد منافذ الأنفاق والكهوف.

لقد استمرت حرب الولايات المتحدة فى أفغانستان لفترة تربو على الشهرين إلا أن أصوات الرصاص لم تخفت تماما حتى مطلع العام الجديد ٢٠٠٢ ، ولم يتم حتى هذا التاريخ القبض على أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة أو الملا عمر زعيم حركة طالبان. وفى استجواب قامت به لجنة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة فى الكونجرس فى يناير ٢٠٠٢ للجنرال تومى فرانكس قائد القيادة المركزية صرح قائلا "إن الولايات المتحدة لم تنته بعد من تدمير القاعدة وطالبان ولن تصل إلى نهاية العمليات مادامت توجد تهديدات نتيجة وجود جيوب للقاعدة أو بقايا من عناصر طالبان".

أسلحة القوات الأمريكية لاقتحام المخابئ الحصينة

السلاح	التأثير
GBU-28, GBU-37, EGBU-28	هذه النوعية من القنابل الموجهة تنتمي إلى عائلة الذخيرة المضادة للأهداف المحصنة العميقة Hard and Deeply Buried Target Defeat Munitions (HDBTD). تتكون القنبلة طبقا لنوعها من رأس خارق للتحصينات (BLU-113 penetrator) تحمل داخلها المواد المتفجرة اللازمة ومزودة بنظام توجيه يستخدم أشعة الليزر فى تحديد الهدف والوصول إليه (GBU-28)، أو مزود بالإضافة إلى ذلك فى حالة القنبلة GBU-37, EGBU-28 بوحدة توجيه باستخدام نظام الملاحة الفضائى GPS-Aided Target System (GATS). تحمل هذه القنابل الطائرة B-2 والطائرة F-15E. والأنواع المطورة من هذه القنابل مزودة بوحدة تفجير ذكية يمكنها تحديد المسافة المناسبة لتفجير الرأس داخل الهدف Hard Target Smart Fuse (HTSF).ويتراوح سمك الجدار المحصن الممكن اختراقه بين ١,٢ ــ ٣ متر.
الرءوس الحربية هواء ــ غاز Fuel-Air Explosives	تقوم هذه الرءوس بعمل سحابة ضخمة من وقود خاص يتم إشعاله فوق الهدف فى اللحظة والارتفاع المناسبين فيحدث موجة ضغط هائلة بالإضافة إلى تفريغ الهواء من الأكسيجين مما يؤدى إلى تدمير التحصينات وخنق الأفراد الموجودين داخلها. يمكن أن توجد تلك النوعية من الرءوس فى قنابل الطائرات أو رءوس الصواريخ أو الطائرات بدون طيار.
سلاح تدمير المخابئ الحصينة المحمول بواسطة الأفراد XM-141 Shoulder-mounted Bunker Defeat Munition	سلاح يستخدمه الأفراد فى اقتحام المخابئ الحصينة يصل وزنه إلى ٦٠٨ كجم ويمكن إطلاقه من مسافة ١٥ ــ ٤٥٠ مترا.

مهام ما بعد الحرب

انعقد فى ٢٦ نوفمبر ٢٠٠١ بمدينة بون الألمانية مؤتمر تحت إشراف الأمم المتحدة لتحديد مستقبل نظام الحكم فى أفغانستان بعد سقوط نظام طالبان. ضم المؤتمر كل الفصائل الأفغانية والشخصيات السياسية وحضره ٣٠ مندوبا من بينهم ١١ مندوبا مثلوا تحالف الشمال ومجموعة روما التى تمثل الملك ظاهر شاه، وأضيف إلى ذلك مجموعتان يمثلون اللاجئين فى بيشاور وقبرص مثّل كل مجموعة منهما خمسة

مندوبين، ولم يُدْعَ للمؤتمر برهان الدين رباني أو عبد الرشيد دستم أو إسماعيل خان أو الملك السابق ظاهر شاه. وكان الهدف من المؤتمر تشكيل حكومة انتقالية لمدة ستة أشهر بعدها يدعى "اللويا جيركا" أى المجلس الوطنى إلى اجتماع طارئ يفتتحه الملك السابق محمد ظاهر شاه لتشكيل حكومة انتقالية لمدة عامين تمهد الطريق أمام دستور جديد وانتخابات ديموقراطية عامة. وحضر المؤتمر كمراقبين مجموعة (٦+٢) التى تضم جيران أفغانستان الستة بالإضافة إلى روسيا والولايات المتحدة.

انتهى مؤتمر بون فى ٥ ديسمبر ٢٠٠١ بتشكيل حكومة مؤقتة من ثلاثين وزيرا برئاسة حميد كرزاى الذى تسلم منصبه من الرئيس الأفغانى برهان الدين ربانى فى ٢٢ ديسمبر ٢٠٠١، وفى نفس الوقت تقريبا أقر مجلس الأمن فى نيويورك مسألة القوات الدولية متعددة الجنسيات، وأقر انتشارها بالقرار رقم ١٣٨٦، وكانت القوات البريطانية فى طليعة القوات التى وصلت إلى كابول حيث نشرت ٨٠ جنديا فى محيط المقر الرئاسى من مجموع خمسة آلاف جندى للقوة كلها سوف يتم تجميعها من دول حلف الناتو ودول إسلامية فى طليعتها تركيا والأردن وماليزيا وبنجلاديش، واقتصر نشر القوة داخل العاصمة كابول والمناطق المحيطة بها واتُّفِق على عدم نشرها خارج نطاق كابول. ومن المتوقع أن تشارك فرنسا وألمانيا وكندا فى القوة المذكورة.

ويعتبر الزعيم البشتونى حميد كرزاى من المقربين لواشنطن، فقد كان مساندا منذ اللحظة الأولى للضربات الجوية الأمريكية، وهو أيضا من أنصار الملك السابق محمد ظاهر شاه الذى يعيش منفيا فى روما منذ عام ١٩٧٣. ويضاف إلى رصيد كرزاى أنه من المجاهدين الأفغان القدامى الذين قاتلوا الجيش الأحمر إلى جانب القادة التاريخيين للبلاد فى التحالف الشمالى وخارجه. وسبق لكرزاى شغل منصب نائب وزير الخارجية فى حكومة الرئيس السابق برهان الدين ربانى قبل وصول حركة طالبان للسلطة عام ١٩٩٦. وكان انتماؤه إلى إحدى قبائل الأغلبية البشتونية فى جنوب أفغانستان مرجحاً لاختياره رئيسا مقارنة بزعماء تحالف الشمال الذين ينتمون إلى أقليات الطاجيك والأوزبك والهزارة.

الدروس السياسية والعسكرية للحرب الأفغانية

هناك عدد من المتغيرات الجوهرية يجب أن تؤخذ فى الحسبان عند الحديث عن الدروس المستفادة من الحرب الأفغانية مقارنة بحرب الخليج ١٩٩١ وكوسوفو وهما حربان خاضتهما الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب الباردة وبعد أن أصبحت القوة العظمى الوحيدة فى العالم:

- جاءت الحرب الأفغانية ردا على اعتداء وهجوم تعرضت له أمريكا نفسها وليس أحدا من حلفائها أو أصدقائها كما هو الحال في حربي الخليج وكوسوفو. ومن هذه الزاوية سوف تكشف دروس الأزمة عن جوانب ضعف في الجانب الأمريكي نفسه تجلت في قصور قدرته على التنبؤ بالحدث برغم إرهاصات كثيرة كانت منذرة، وفي قصور التصدي له وإحباطه عند حدوثه. وعلى المستوى الأكبر كشفت الأزمة عن خلل في الرؤية الأمنية للولايات المتحدة من ناحية تعريف التهديدات وتحديد أولويات التصدي لها.
- لم تكن الحرب الأفغانية بين الولايات المتحدة ودولة عضو في النظام الدولي مثل العراق ويوغوسلافيا ولكن مع "تنظيم" عالمي اتخذ أفغانستان قاعدة له والدليل أن أحدا من الأفراد المتهمين بتنفيذ الهجوم على أمريكا في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ "سبب الحرب المباشر" لم يكن يحمل الجنسية الأفغانية. وهذا المتغير يعني أننا أمام حرب غير تقليدية، وأنها قد تكون لها بداية واضحة لكنها بسبب طبيعة العدو "الشبكية" الخاصة لن يكون لها نهاية محددة حاسمة أو قريبة، كما أن أدوات الحرب وأساليبها سوف تكون مختلفة.
- أنه بخلاف حربي الخليج وكوسوفو طغت على الأزمة وعلى إدارتها السياسية والعسكرية جوانب دينية وثقافية وأمور تتصل بالهوية لم تكن مطروحة من قبل بمثل هذه الحدة والقوة.

وفي إطار هذه المتغيرات يمكن استعراض عدد من الدروس والنتائج للحرب الأفغانية، علما بأن الحدث نفسه لم ينته بعد على المستوى السياسي وأيضا على المستوى العسكري.

على الجانب السياسي يمكن استنتاج النتائج والدروس الآتية:

(١) خطورة تجاهل الطبيعة العالمية للإرهاب وأسبابه وضرورة تطوير الأدوات والآليات الفعالة المناسبة لمقاومته في إطار تحالف دولي قوي ومتماسك.

(٢) يعود ما حدث في جزء منه إلى أحادية التعامل مع عالم ما بعد الحرب الباردة وتركيز الولايات المتحدة وأوروبا على منطقة شرق أوروبا وإهمالها للتفاعلات التي تجري في باقي مناطق العالم الأمر الذي أدى إلى تفكك بعض الدول تحت وطأة الضغوط السياسية والاقتصادية وتحولها إلى قاعدة اختبار وملاذ آمن للجماعات المتطرفة والتنظيمات الإرهابية.

(٣) أبرزت الأزمة خطر الملفات المفتوحة والعمليات السياسية التي تترك وشأنها في وسط الطريق بدون نهاية حاسمة. فقد أثبتت الأزمة الأخيرة أن أفغانستان بعد أن

شهدت أحد الفصول الهامـة لمعارك الحرب البـاردة أهملت وتركت لشأنها بعد انتهـاء الحرب وكان ظن الولايات المتحدة والغرب بشكل عام أن الخطر سوف يظل محصورا داخلها ولن يصل بحريقه إلى أمريكا صاحبة مشروع الجهاد الإسلامى هناك ضد الاتحاد السوفيتي. ونفس المنطق ربما يقود أيضا إلى خطر ملف الشرق الأوسط، وأيضا إلى ملف العراق الذى لم توضع له نهاية واضحة حتى الآن.

(٤) سلطت الأزمـة الضـوء على قضية الأمـن فـى عصـر العولمـة وأهميـة معالجـة ثغرات كثيرة فى عملية التحول الكبرى التى يمر بها العالم فى ظل تزايد حرية انتقال الأفراد والأموال والأفكار وربط كل ذلك بسلامة الفرد والدولة. وتعتبر هذه النتيجة والحلول المترتبة عليها من أهم نتائج أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والحرب التالية لها. ومن المتوقع أن يكون للتكنولوجيا والعمل السياسى دور محورى فيها.

(٥) بروز مفهوم "أمن الداخل" Homeland Defense فى الولايات المتحدة واعتباره جزءا من مهام القوات المسلحة بجانب المؤسسات المدنية الأخرى. والهدف حماية الأرض الأمريكية والمواطنين ضد التهديدات الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية وحماية البنية التحتية المعلوماتية والأرض الأمريكية ضد الصواريخ الباليستية. ويمثل هذا النسيج العسكرى-المدنى إحدى انعكاسات أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحرب أفغانستان، ومن المنتظر أن تثير تلك الصورة الجديدة للأمن الجدل والنقاش حول طبيعة الأمن الوطنى والدولى فى القرن الواحد والعشرين.

(٦) أثبتت الأزمة ضعف النظام الإقليمى والدولى فى معالجة القضايا الإقليمية ذات الآثار العالمية وعدم قدرتها على التحرك الفعال بدون الولايات المتحدة الأمريكية، كما أثبتت خلو الساحة الدولية من منافس استراتيجى لها حتى الآن.

وبالنسبة للنتائج والدروس العسكرية:

(١) اتسمت الحرب بمهارة المزج بين الإجراءات العسكرية وغيرها من الإجراءات الدبلوماسية والاقتصادية والإعلامية. أما الإجراءات العسكرية نفسها فكانت مزيجا من العمليات الجوية والبرية والبحرية.

(٢) أخذت القوات البرية من ناحية صورة القوة الخاصة المساعدة للقوة الجوية فى تحديد الأهداف وتقييم الأوضاع على الأرض وحفظ الأمن، ومن ناحية أخرى قامت بتنفيذ عمليات هجومية على أهداف محصنة مختفية تحت الأرض على مسافات بعيدة. وطرح استخدام القوات البرية فى حرب أفغانستان أهمية تحويلها إلى قوة "رقمية" دقيقة مثل القوة الجوية وربطها بوسائل الملاحة والاتصال والتسليح الخاصة بالقوة الجوية والبحرية للعمل كمنظومة واحدة. وكان هذا المشروع بالفعل جزءا من خطط التطوير التجريبية الجارية فى الولايات المتحدة تحت اسم "القوة ٢١". وهذه النتيجة

ليست قاصرة فقط على الحروب المماثلة فى الظروف لحرب أفغانستان بل يبدو أنها نتيجة عامة تركز فى الأساس على أهمية الوصول إلى حالة توازن بين استخدام القوة الجوية والبرية بصورة تسمح بحسم المعركة على الأرض من خلال شكل جديد للقوة البرية يساعدها من ناحية على التكامل مع القوة الجوية فى شكلها الجديد ويعطيها من ناحية أخرى إمكانيات التعامل مع الأهداف المنتشرة والمختبئة داخل أماكن حصينة، وهى أوضاع نشأت نتيجة تطور خصائص القوة الجوية فى الرؤية والمدى والدقة. بمعنى أن تفوق القوة الجوية قد خلق أوضاعا على الأرض يجب أن تتولى معالجته القوة البرية فى شكلها الجديد.

(٣) برز فى الحرب أهمية امتلاك أدوات فعالة لمراقبة مسرح العمليات لفترات طويلة وإرسال المعلومات التى يتم جمعها بواسطة هذه الأدوات إلى أسلحة الجو والبر والبحر بصورة مباشرة وفى نفس وقت حدوثها الحقيقى. لأول مرة فى حرب أفغانستان يحدث نقل حى ومباشر لصورة مسرح العمليات من خلال الطائرة بدون طيار "بريديتور" Predator إلى المقاتلات الأمريكية F-16، وسفينة المدفعية C-130U والمقاتلات F/A-18 والنتيجة إمكانية انطلاق تلك الطائرات إلى أهدافها مباشرة بدون انتظار معلومات إضافية من مراكز القيادة والسيطرة على الأرض. وفى نفس الوقت قامت طائرات الاستطلاع E-8، RC-130 و E-3 والطائرة بدون طيار Developmental Global Hawk بمراقبة ميدان المعركة ونقل المتغيرات المستجدة بشكل مستمر بكل ما فيها من تفاصيل للاستفادة بها بواسطة القوات والقادة السياسيين والعسكريين. ومن المعروف أن تلك الطائرات بدون طيار قد شاركت فى حرب كوسوفو وقامت بواجب نقل صور لأهداف حساسة، لكن دورها لم يكن فى ذلك الحين متكاملا مع الخطة العامة للعمليات ومع باقى المنظومة العسكرية. ومازالت هناك بعض المشاكل: مثل تحسين عملية التهديف، وزيادة عدد الوحدات من هذه الطائرات فوق المسرح، وتحسين القدرة على رصد الأهداف المتحركة فى الطقس السيئ والضباب الكثيف. والمطلوب فى النهاية امتلاك القدرة على القيام باستطلاع مستمر لا يتوقف، ونقل النتائج مباشرة إلى سلاح معين ثم إطلاق النار على الهدف وتقييم حالة الهدف بعد إصابته. إن طائرات الاستطلاع بدون طيار تستطيع الآن التحليق لساعات طويلة، وقد حققت هذه القدرات الجديدة خلال حرب أفغانستان الأمل المنشود فى الارتقاء بمستوى عملية التهديف targeting (رؤية الهدف + التعرف عليه + تخصيص سلاح له + توجيه النيران إليه وإصابته + تقييم حالته بعد الضرب) ليتم تنفيذه فى أقل زمن ممكن Time-Critical Targeting وهو ما يمكن أن نطلق عليه "الهجوم اللحظى" Instantaneous Attack، أى بمجرد أن يرى القائد أن هذا الهدف يجب تدميره فسوف يدمره فى نفس اللحظة وليس بعد وقت طويل قد يمتد لساعات.

(٤) زادت أهمية الطائرات بدون طيار وأصبحت أكثر اندماجا فى العمليات الفعلية والتخطيط لها. وانعكاسا لهذا الاهتمام تخطط البحرية الأمريكية فى ضوء نتائج الحرب لشراء ٢٨ طائرة من طراز جلوبال هوك Global Hawk خلال السنوات الست القادمة. وأيضا تبدى القوات الجوية الأمريكية اهتماما مماثلا وتنوى فى سبيل ذلك إنفاق حوالى ١,٥٥ بليون دولار لشراء سبعين طائرة من طرازات مماثلة. وأهم ما يجرى الآن هو وضع مواصفات تفصيلية لتلك المركبات فى ضوء طبيعة المهام التى سوف توكل إليها مستقبلا، ويقع على قمة المواصفات المطلوبة "البقاء لفترة طويلة فى الجو Long endurance والعمل خارج منطقة النيران المضادة Standoff".

(٥) مهدت عمليات حرب أفغانستان وبروز دور الطائرات بدون طيار فى هذه الحرب الطريق لدفع عمليات التطوير "الطائرات المقاتلة بدون طيار" Unmanned Combat Aerial Vehicle UCAV . وستشمل مهام هذه المركبات بجانب عمليات الاستطلاع القيام بعمليات قصف لأهداف عسكرية أو بشرية ، وهى تماثل الصواريخ الكروز لكن يتم قيادتها بمرونة أكبر عن بعد ولأوقات طويلة وربما تبدأ مهمتها بمهمة بحث واستطلاع وعندما تجد هدفا يستحق القصف تقوم بالتعامل معه وقصفه بما تحمله من ذخيرة ثم تعود إلى قاعدة انطلاقها الأصلية. وتقوم شركة بوينج حاليا بتطوير طائرة من هذا النوع لصالح القوات الجوية.

وكان الجنرال تومى فرانكس قائد القيادة المركزية الأمريكية قد أعلن أن هجوما بالصواريخ قد وقع على قافلة من السيارات فى منطقة من أفغانستان على بعد ٣٠ كم من مدينة "خوست" يوم الاثنين ٧ يناير ٢٠٠٢ قامت به طائرة استطلاع مسلحة "بريديتور" تابعة للمخابرات المركزية راقبت القافلة لمدة يومين عندما اشتبه ضباط المخابرات أنها قد تكون تابعة لتنظيم القاعدة.

(٦) قامت طائرات الهليكوبتر بدور متميز فى أعمال نقل وقتال القوات الخاصة، ومهاجمة الأهداف بدقة وبدون أضرار جانبية واسعة، مع سهولة الانتقال من مكان إلى آخر لتعويض عدم وجود مطارات تصلح لإقلاع وهبوط الطائرات العادية.

(٧) أثبتت العمليات أهمية حاملات الطائرات بالنسبة للمجهود الحربى الأمريكى برغم أن عددها داخل الترسانة الأمريكية قد انخفض فى السنوات الأخيرة لعدم بناء حاملات جديدة. إن الحاملة تمثل مساحة حرة من الأرض الأمريكية، ومنصة للإقلاع وهبوط الطائرات، ونقطة بث للحرب الإلكترونية وانطلاق للقوات الخاصة والهليكوبتر.

(٨) نتيجة لطبيعة الحرب الأفغانية وقيام القوات الخاصة بأدوار متعددة استطلاعية وقتالية تم استخلاص دروس مهمة لعمل هذه القوات من ناحية أسلوب العمل وطبيعة

المعدات التي يجب أن تزود بها. وقد أعلنت قيادة عمليات القوات الخاصة الأمريكية أنها تخطط لتزويد تلك القوات بقدرات جديدة في ضوء الدروس المستفادة من عمليات القوات الخاصة في أفغانستان. ومن أمثلة هذه الأسلحة:

- رادار خفيف الوزن محمول لرصد طلقات الهاون Counter-Mortar Radar وهو جهاز رادار محمول يمكن نصبه في ٣٠ دقيقة للتحذير من طلقات الهاون الآتية من الاتجاهات المختلفة.
- طائرة بدون طيار يمكن طيها وتصغير حجمها Collapsible Unmanned Aerial Vehicle والمفروض أن تكون صغيرة الحجم رخيصة الثمن للعمل داخل المدن وفي المناطق الريفية.
- جهاز لإضاءة الأهداف بأشعة الليزر حتى يمكن أن تصل إليها القذائف الموجهة الدقيقة من الطائرات القاذفة. هذه الأجهزة سوف يستعملها الجنود لهذا الغرض وتكون خفيفة الوزن.
- أجهزة اتصال لجنود القوات الخاصة تمكنهم من الاتصال فيما بينهم داخل المدن وفي الجبال وداخل الكهوف.
- بطاريات للطاقة صغيرة الحجم والوزن ويمكنها الإمداد بالطاقة لفترة طويلة.
- أجهزة تشويش وأجسام خداعية ومستشعرات للإنذار بهجوم الصواريخ.

(٩) أظهرت الحرب أهمية وجود مخزون كافٍ من الذخيرة الدقيقة الموجهة بالليزر والأقمار الصناعية لضمان استمرار الإمداد خلال معركة طويلة.

(١٠) كان منطقيا أن تؤدي الرؤية العسكرية التي تتوقع عدوا في المستقبل يتجه إلى الانتشار والاختفاء تحت ضغط تفوق نيراني ساحق في المدى وأيضا في الدقة إلى تفكير الولايات المتحدة في تطوير ذخيرة قادرة ليس فقط على الطيران لمسافة طويلة والوصول إلى موقع الهدف بدقة ولكن أيضا اختراق تحصيناته الصناعية أو الطبيعية داخل الجبال أو الكهوف. ومن تلك البداية بدأت الولايات المتحدة قبل حرب أفغانستان بعشر سنوات في تطوير حزمة من الذخيرة ذات قدرات خاصة لاختراق الدشم الحصينة والقضاء على الأهداف المهمة داخلها والتي إذا تركت لحالها سوف تنشط في الوقت المناسب وتوجه ضربات مفاجئة. ومنذ انتهاء حرب الخليج ١٩٩١ وكرد فعل لدروسها دخل مجال الاستخدام مجموعة من الأسلحة امتلكت تلك القدرات بصورة متدرجة وعندما جاءت حرب أفغانستان تركز الضوء على تلك الأسلحة مع وجود مسرح للعمليات مزدحم بمواقع كثيرة طبيعية استخدمت بواسطة طالبان وتنظيم القاعدة

فى الاختفاء مثل منطقة تورا بورا وجارديز وغيرها. ومن الأمثلة المعروفة لتلك النوعية من الأسلحة المستخدمة ضد التحصينات:

- الصاروخ "هاف Have Nap (AGM-142 Raptor) جو-أرض: يضرب من الطائرة B -52H ومنصات إطلاق أخرى واشتركت فى تطويره شركات أمريكية (لوكهيد مارتين) وإسرائيلية (رافائيل) ويصل مداه إلى حوالى ١٠٠ كم ومر بمراحل تطوير متعددة لإعطائه قدرات جديدة ولتقليل تكلفة إنتاجه. والصاروخ له نوعان من الرءوس الحربية، واحدة تولد موجة انفجارية وشظايا للأهداف السطحية (٣٤٠ كجم) وأخرى لاختراق الأهداف المحصنة (٣٦٣ كجم) ويصل وزنه الكلى إلى ١٣٦٠ كجم. ويطلق على هذا السلاح فى إسرائيل Popeye ويمكن ضربه أيضا من الطائرة F-111 والطائرة F-4. دخلت الأجيال الأولى لهذا السلاح فى إسرائيل فى ١٩٨٩ ثم فى الولايات المتحدة فى ١٩٩٢ ومر بتجارب تطوير فى ١٩٩٥ وفى ١٩٩٧.
- القنبلة GBU-37 و GBU-28: تنتمى القنبلتان إلى عائلة الذخيرة المضادة ضد الأهداف الحصينة المختفية تحت الأرض على مسافات بعيدة Hard and Deeply Buried Target Defeat (HDBTD) munitions. دخلت القنبلة GBU-37 الخدمة لأول مرة فى الولايات المتحدة فى ١٩٩٨ وتحملها القاذفات B-2 و F-15E. وتستخدم القنبلة GBU-37 رأس الاختراق BLU-113 المستخدمة فى القنبلة GBU-28 المطورة من قبل على أساس خبرة حرب الخليج ١٩٩١. يتم توجيه القنبلة GBU-37 بالأقمار الصناعية أثناء طيرانها إلى الهدف وتصل دقتها إلى ٦ أمتار أما القنبلة GBU-28 فيتم توجيهها بواسطة أشعة الليزر.

(١١) من الدروس المهمة أيضا ضرورة التركيز على نشاط المخابرات والتجسس البشرى والتكنولوجى بصوره المختلفة، وتطوير أدوات التحليل، وتحسين التعامل مع المادة الخام للمعلومات ونشر نتائج التحليل على الجهات المهتمة بصورة أسرع.

(١٢) أكدت الأزمة كلها بكل تداعياتها المختلفة أهمية إعادة النظر فى سياسات الحد من انتشار التكنولوجيا العسكرية المتقدمة وأسلحة الدمار الشامل النووية والكيماوية والبيولوجية والإشعاعية.

الجزء الثانى

الأطراف

- اليمين الأمريكى
- تنظيم القاعدة
- أسامة بن لادن
- حركة طالبان

اليمـــــين الأمريكـــــى

أهم ما يميز أحداث ١١ سبتمبر أن الأطراف التى شاركت فيها كثيرة وربما غير معروفة بالكامل حتى الآن كما أنها خليط من هويات متنوعة. فالصراع كما يبدو من تفاصيل الحدث لا يبدو خالصا بين مجموعة من الدول، ولا بين أيديولوجيات سياسية، ولا بين أفراد أو جماعات ولكن من الممكن أن نجد فيه شيئا من كل هذه الصور. ومن هنا جاء اختيار اليمين الأمريكى وأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة وحركة طالبان فى هذا الكتاب كممثلين بارزين لأطراف الحدث المثير. ويمكن النظر إلى اليمين الأمريكى كتيار محافظ داخل الولايات يعتبره الكثيرون معبرا ومسئولا عن السياسات العالمية لأمريكا مع بداية القرن الجديد، وتقود تعاليمه حاليا بشكل كبير حركة السياسة الأمريكية. أما بن لادن فمجرد فرد وحيد ثائر مطارد متمرد على هيمنة القوة العظمى التى وجدت نفسها فى مواجهة دامية معه خلال التسعينات، وضربته بالصواريخ، وشنت عليه حربا كاملة، ومازالت تبحث عنه حتى الآن. ويقدم تنظيم القاعدة نموذجا للتنظيمات الشبكية العالمية الممتدة فى الظلام خارج النظام الدولى والمبنية على أساس عقائدى متطرف، ومنذ ١١ سبتمبر ركزت أصابع الاتهام على دور التنظيم تحت قيادة بن لادن فى التخطيط والتنفيذ للعملية. وأخيرا تنظيم طالبان، كمثال للحركة الدينية والإسلامية المتشددة، التى أتاحت لأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة ملاذا آمنا وقاعدة للاستعداد والتدريب، وقد تحولت الحركة فى وقت قصير بعد سيطرتها على أفغانستان إلى نظام حكم ونصف دولة وأصبحت فى النهاية هدفا للحملة العسكرية الأمريكية بعد ١١ سبتمبر، وما زالت فلولها تقاوم الوجود الأمريكى فى أفغانستان حتى الآن.

وفى إطار ما تعرضت له الولايات المتحدة من أحداث ورد الفعل الأمريكى عليها تبقى القضية الأساسية الآن لفهم ما يجرى فى واشنطن أن نتعرف على الخلفية الفكرية والأيديولوجية "لليمين الأمريكى"، والتى أسهم غياب إدراكها من قِبَل دوائر صنع القرار العربى عامة والعواصم الهامة فيها خاصة إلى خلل فى تقييم سياسات الإدارة الأمريكية الجديدة وتحليل مواقفها من القضايا العربية. فقد كان التصور العربى السائد

هو أن انتخاب جورج بوش الابن أمر طيب بالنسبة للقضايا العربية، بل إن هناك ما يشير إلى أن الرئيس ياسر عرفات قد تباطأ فى قبول ما سمى بخطة كلينتون، وقلل من دفعه للوصول إلى اتفاق خلال مفاوضات طابا التى جرت فى الأسبوع الأخير من شهر يناير ٢٠٠٠، لأنه اعتقد أن فوز بوش الابن سوف يضع القضية الفلسطينية فى وضع أفضل.

وكانت الأسباب العربية وراء ذلك معروفة فى ذلك الوقت، وهى أن إدارة كلينتون -ومن بعده سيكون الحال مع آل جور- اعتمدت على اليهود بكثرة إلى درجة لا تغرى بالثقة فيها حتى ولو كانت ما سوف تعرضه معقولا. كذلك بدا جورج بوش الابن معروفا للقادة العرب، الذين عرفوا والده على مدة ثمانى سنوات كنائب للرئيس الأمريكى، ومن قبلها كرئيس لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ورئيس لوفد أمريكا فى الأمم المتحدة، ومن بعدها كرئيس للجمهورية، وحتى بعد أن خرج بوش الأب من الرئاسة لم يكفّ عن زيارة الدول العربية. وكانت العلاقة مع بوش الأب فاتحة لقنوات أخرى مهمة فى الحزب الجمهورى وأقطابه من أمثال ريتشارد تشينى، وكولين باول، وجيمس بيكر وطائفة أخرى من الشخصيات التى جاءت وذهبت خلال حرب الخليج الثانية تربط العسكر بالعسكر، والساسة بالساسة، ورجال المخابرات برجال المخابرات. ولم ينس القادة العرب أن آل بوش كان من بينهم الرئيس الذى عقد مؤتمر مدريد بعد أن ضغط على شامير، وبعد أن أوقف ضمانات القروض لإسرائيل بسبب استمرارها فى الاستيطان، فى سابقة ليست متكررة كثيرا فى تاريخ العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية. وأخيرا كان كل هؤلاء من جماعة تكساس البعيدة عن المؤسسة الشرقية الأمريكية، وهى ولاية يجمعها مع بلاد العرب الصحراء والنفط وقلة النفوذ اليهودى.

والحقيقة أنه كان هناك مَنْ حَذّرَ من هذه النظرة الجزئية للحياة السياسية الأمريكية والمفعمة بثلاثة أخطاء رئيسية. أولها أنها تجعل القضايا العربية هى المعيار للحكم على أمريكا، وربما غيرها أيضا، وثانيها أنها تلقى بظلال النظم العربية السياسية على الولايات المتحدة، وإذا كان للعائلة وتقاليدها دور فى السياسة العربية -ودول العالم الثالث عامة- فإنها ليست كذلك بالتأكيد فى الدول الديموقراطية والحديثة التى تسودها القبائل السياسية وليس القبائل العرقية. وثالثها أن فكرتها عن التغيير غير موجودة تقريبا، فمرور عقد من الزمان على حرب الخليج، لم يغير الكثير من حالة السياسة العربية، أما نفس الفترة فى الولايات المتحدة فقد كانت ثورة بكل المقاييس قام بها كلينتون وصحبه، ولم يكن ممكنا مواجهتها إلا بثورة أخرى يقوم بها بوش الابن وأصحابه أيضا.

كان هناك مَنْ حَذَّرَ من ذلك كله خلال معركة الانتخابات الأمريكية فى خريف عام ١٩٩٩، ولكن الإسقاطات كانت كاسحة وخرج القادة العرب، وإلى حد ما الرأى العام العربى، بالاعتقاد أن إدارة كلينتون كانت أسوأ الإدارات الأمريكية، وأن إدارة آل جور سوف تكون بالضرورة أكثر سوءا منها. وللحق فإن وجهة النظر هذه لم تكن سائدة فقط داخل العالم العربى، بل كانت غالبة داخل الأقلية العربية والإسلامية فى الولايات المتحدة، والتى تعاطفت مع جورج بوش، وكان تصويتها معه، أو مع جورج نادر - المرشح الأمريكى من أصل عربى - فى ولاية فلوريدا، والغالب أن هذا التصرف هو الذى أعطى جورج بوش فوزه بمقعد الرئاسة.

ليس معنى ذلك أن إدارة الرئيس بوش أسوأ أو أفضل من إدارة الرئيس كلينتون حتى بمعايير الصراع العربى - الإسرائيلى والقضية الفلسطينية، أو بمعايير المصالح العربية عامة، فقضية الأفضل والأسوأ ليست مطروحة على الإطلاق إلا بالنسبة للشعب الأمريكى، أما بالنسبة للعالم العربى فالقضية يجب أن تتركز فى كيفية التعامل مع كل إدارة أمريكية على حدة من أجل إعلاء المصالح العربية. فليس مهما على الإطلاق إذا كانت الإدارة جمهورية أو ديموقراطية، محافظة أو ليبرالية، جاء الرئيس فيها من تكساس أو من أركانساس، ولكن المهم هو أنه خلال فترة زمنية بعينها، لها ظروفها وشروطها وقيودها ونواهيها، كيف يمكن التعامل مع طاقم معين مسئول عن إدارة السياسة الأمريكية خلال فترة معينة. ومن المهم أيضا عدم نسيان أنه عندما نتعامل مع بشر، لهم دوافعهم وطموحاتهم وطريقتهم فى تكييف المصالح الأمريكية، فإن المؤسسات هى الأبقى والأكثر دوما، ولكنها هى أيضا لا تعمل بمعزل عن البشر.

أقطاب إدارة بوش

والحقيقة أن البشر فى الإدارة الأمريكية الراهنة لم يأتوا من فراغ، فقد كان بعضهم هم الذين انتصروا فى حرب الخليج انتصارا مؤزرا، ثم بعد ذلك وجدوا أنفسهم يخرجون من البيت الأبيض لثمانى سنوات لصالح رئيس ديموقراطى، وهى سابقة لم تتكرر منذ الرئيس روزفلت حيث لم يحصل أىٌّ ممن جاء بعده من الرؤساء الأمريكيين الديموقراطيين - ترومان وكيندى وجونسون وكارتر - على دورتين كاملتين أبدا. وبعضهم الآخر - ومعظمهم من المحافظين - كانوا خارج إدارة بوش الأب من البداية وظلوا طوال عهد كلينتون بعد هزيمة بوش أمامه يرددون لزملائهم: ألم نقل لكم إن هذه النوعية من سياسات بوش الأب المثالية المنتمية إلى المؤسسة الشرقية لا تقود البلاد ولا تكسب الانتخابات. وكان اعتقاد الجمهوريين المحافظين الكامل أن العصر الذهبى للجمهوريين هو عصر الرئيس رونالد ريجان، حين قادت أمريكا العالم للانتصار على الشيوعية واستعادت فيه عافيتها الاقتصادية.

كان زمن ريجان إذن، وليس زمن بوش، هو المرجعية. وبعد أن فاز بيل كلينتون بمقعد الرئاسة للمرة الثانية عام ١٩٩٦، بدأت مجموعة الجمهوريين فى التجمع مرة أخرى من أجل الانتصار فى الانتخابات القادمة. وكان ذلك التجمع حول ما سمى "بالقرن الأمريكى الجديد"، فإذا كان القرن العشرون هو القرن الأمريكى الذى بسطت فيه أمريكا هيمنتها الاقتصادية والعسكرية على العالم، وكان هو القرن الذى قادت فيه أمريكا العالم إلى الانتصار على الفاشية ومن بعدها الشيوعية، فإن القرن الواحد والعشرين ينبغى أن يكون بدوره قرنا أمريكيا. وكان ذلك هو المشروع الذى تجمعت حوله النخبة التى نجد معظمها الآن يحيط بالرئيس جورج بوش الابن كما يحيط السوار بالمعصم، وباتت القضية هى كيف تحقق الولايات المتحدة هذا الهدف. ضمت هذه المجموعة إليوت إبرامز، جارى بوير، وليام بينيت، جيب بوش، ريتشارد تشينى، إليوت كوهين، بولا دوبريتسكى، ستيف فوربس، أرون فيدبيرج، فرانسيس فوكاياما، فرانك جافنى، فريد أيكل، دونالد كيجان، زالماد خليل زاد، لويس لبى، نورمان بوريتز، دان كويل، بيتر رادمان، ستيفين روزين، هنرى روين، دونالد رامسفيلد، فين وايبر، جورج وايجل، وبول وولفويتز.

معظم هذه الأسماء لامعة الآن فى الإدارة الجمهورية، وربما لا توجد أسماء مثل كونداليزا رايس مستشارة الأمن القومى للرئيس الأمريكى فى القائمة، ولكن أفكارها لا تختلف كثيرا عن أفكار المشاركين فيها. ولكن المؤكد أن وزير الخارجية كولين باول لا ينتمى إلى هذه القائمة بالاسم أو الأيديولوجية كذلك. ولكن أيا كان مَن داخل القائمة أو خارجها، فإن هذه المجموعة هى التى تشكل الإطار الفكرى الأغلب الذى يحيط بالرئيس الأمريكى، ولا يمكن تفسير التغير فى سلوك ومواقف وزارة الدفاع الأمريكية تجاه الدول العربية دون أن تضع فى الاعتبار وجود دونالد رامسفيلد وبول وولفويتز وبيتر رودمان فى مقاعد الوزير ونائبه ومساعده. ولا يمكن فهم الكثير من العبارات والاتجاهات التى تولدت من الإدارة الأمريكية قبل وبعد أحداث ١١ سبتمبر، ما لم نلاحظ التأثير الفكرى لفرانسيس فوكاياما ومقولته عن نهاية التاريخ، وفريد أيكل ومذهبه فى الصراعات الدولية، وإليوت إبرامز وفهمه للعالم. ولعل عدم الملاحظة هذه هى التى أجَّلت كثيرا فهمنا للإدارة الأمريكية، وما يجرى فيها، وربما قادت فى كثير من الأحيان إلى نوبات من خيبة الأمل وسوء التقدير.

إلا أن المهم هو أن الدعوة إلى القرن الأمريكى الجديد التى قادها البعض فى الولايات المتحدة ارتبطت بقدرات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية جعلت الولايات المتحدة الأمريكية من الأهمية والخطورة بمكان بحيث لا يمكن تجاهلها. فهى تستحوذ على ٣٠% من الناتج الإجمالى العالمى، وهو ما يصل بالأرقام المطلقة إلى ١١ تريليون دولار، أى أكبر من نصيب الدول الأربع التالية لها مجتمعة. ويصل الإنفاق

العسكرى لأمريكا الآن إلى ما يساوى كل الإنفاق الخاص بكل دول العالم، وهى الدولة الوحيدة فى العالم التى يمكن أن تصل أذرعها إلى كل مكان فوق الأرض. وخلال حرب يوغوسلافيا الثانية كانت قاذفات القنابل الأمريكية من طراز ب- ٢ تطير مسافة تبلغ نصف العالم من مكانها فى ولاية ميسورى لكى تقوم بمهامها لمنع عمليات التطهير العرقى فى كوسوفو ثم تعود مرة أخرى. وللولايات المتحدة النصيب الأكبر من المخترعات الجديدة فى العالم، وفى عام ١٩٩٥ كان نصف رسوم الاستخدام ورخص الاستعمال فى العالم تذهب إلى أمريكيين وشركات أمريكية. ومن الناحية الثقافية والاتصالية عامة فلا يوجد فى العالم ما ينافس بشكل جوهرى شخصيات فنية مثل ميكى ماوس، أو مادونا، أو ينافس السينما والموسيقى التى يتم إنتاجها فى الولايات المتحدة، وبالتأكيد القنوات التلفزيونية العالمية مثل CNN، وشركات الاتصال والإنترنت مثل مايكروسوفت.

عندما يكون الحال هكذا بالنسبة لدولة ما، فإننا نصبح أمام قدرة على النفوذ والتأثير ربما تعدت كثيرا ذلك الذى كان للإمبراطورية الرومانية فى أوجها، أو الإمبراطورية العربية الإسلامية فى مجدها، وربما حتى الإمبراطورية البريطانية فى أعتى عصورها. ولكن القضية أن هذه الطاقة الإمبراطورية قد جاءت فى القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين فى الوقت الذى كانت تتفكك فيه الإمبراطوريات. فقد انتهت الإمبراطوريات العثمانية والبريطانية والفرنسية، وما هو أصغر منها من الإمبراطوريات الاستعمارية، ولم ينته القرن العشرون حتى كانت الإمبراطورية الروسية قد تفككت إلى ١٥ دولة، ومن بعدها تفككت دول مركبة مثل يوغسلافيا وأثيوبيا. وكان التصور هو ميلاد "عالم جديد" تحكمه شبكات معقدة متعددة الأطراف تسمح بتقدم القانون الدولى وتطوير المنظمات العالمية لكى تعيد تنظيم الكون وفق أسس جديدة أكثر رشادة وعقلانية. ولم تكن مؤتمرات الأرض والسكان والمرأة والحقوق السياسية والاجتماعية، وإنشاء المحكمة الجنائية الدولية الدائمة، وإقرار حق التدخل الإنسانى لإنقاذ شعوب وجماعات عرقية من الإبادة، إلا خطوات نحو عالم يختلف جذريا عما كان، أكثر ديموقراطية، وأكثر عدالة، ويقوم على مبادئ محددة سلفا وليس على القوة الصريحة.

مشروع القرن الأمريكى الجديد

هذه الأمور جميعا لم تكن مريحة لعدد من المفكرين والساسة فى الولايات المتحدة، وكان هؤلاء تحديدا هم الذين تجمعوا فى مشروع "القرن الأمريكى الجديد"، والذى يقوم فى جوهره على أن تقود أمريكا العالم وفق ما تراه، وليس وفق ما تنجح فى إقناع العالم به من خلال أدوات ووسائل جماعية. ويظهر ذلك أكثر ما يظهر فى البيان الأول

الذى صدر عن أنصار هذا المشروع فى الثالث من يونية عام ١٩٩٧ والذى أكدوا فيه خروج السياسة الخارجية والدفاعية الأمريكية عن المسار، وانتقدوا السياسات المفككة لإدارة كلينتون ثم قدموا نقدا ذاتيا لموقفهم قائلين: " إن المحافظين لم يقدموا بثقة رؤية لدور أمريكا فى العالم، ولم يضعوا مبادئ استرشادية للسياسة الخارجية الأمريكية، وسمحوا للخلافات بينهم حول التكتيك أن تغطى على احتمالات الاتفاق على الأهداف الاستراتيجية، كما أنهم لم يقاتلوا من أجل ميزانية للدفاع يمكنها الحفاظ على الأمن الأمريكى وتساهم فى دعم المصالح الأمريكية فى القرن الجديد". ثم انطلق البيان بعد ذلك محددا هدفهم فى المستقبل: "إن هدفنا هو تغيير ذلك، إن هدفنا هو أن نقدم الحجة من أجل القيادة الأمريكية للعالم ونجمع التأييد حولها، ففى الوقت الذى كان فيه القرن العشرون يقترب من نهايته، كانت الولايات المتحدة تقف وحدها كقوة مسيطرة فى العالم. وبعد أن قادت الغرب إلى النصر فى الحرب الباردة، فإن أمريكا باتت تواجه فرصا وتحديات: هل الولايات المتحدة لديها الرؤية لكى تبنى على إنجازات العقد الماضى؟، وهل الولايات المتحدة لديها الإرادة لكى تشكل القرن الجديد بحيث يتوافق مع المصالح والمبادئ الأمريكية؟ إننا معرضون لخطر ضياع الفرصة والفشل فى التحدى. إننا نعيش على رأس المال الذى راكمته الإدارات السابقة فى الإنفاق العسكرى ومنجزات السياسة الخارجية. إن التخفيض فى نفقات الدفاع والشئون الخارجية، وعدم الاهتمام بأدوات وفنون إدارة الدولة، قد جعلت من الصعوبة الحفاظ على النفوذ الأمريكى فى العالم. كما أن الوعد بفوائد تجارية قصيرة الأجل يهدد بتجاوز الاعتبارات الاستراتيجية ويؤدى إلى الحد من قدرة الأمة على مواجهة التهديدات الراهنة والتعامل مع التحديات الأعظم التى سوف تأتى فى المستقبل".

ويستعيد البيان العناصر الرئيسية لنجاح إدارة ريجان: "إننا قد نسينا العناصر الرئيسية لنجاح إدارة ريجان: قدرات عسكرية قوية ومستعدة لمواجهة التحديات الراهنة والمستقبلية؛ وسياسة خارجية تدفع بجرأة وبثبات المبادئ الأمريكية فى الخارج؛ وقيادة قومية تقبل بالمسئوليات العالمية للولايات المتحدة" ، ثم يستدرك البيان قائلا: "إن الولايات المتحدة يجب أن تكون حصيفة فى استخدام قوتها، لكننا لا نستطيع تجنب مسئولياتنا فى القيادة العالمية، أو التكاليف المرتبطة بممارسة هذه القيادة. إن لأمريكا دورا حيويا فى الحفاظ على السلام والأمن فى أوروبا وآسيا والشرق الأوسط. وإذا أحجمنا عن هذه المسئوليات فإننا سوف نتسبب فى تهديد مصالحنا الأساسية. إن تاريخ القرن العشرين ينبغى أن يعلمنا أنه من الضرورى تشكيل الظروف قبل أن تظهر الأزمات، وأن نقابل التهديدات قبل أن تصبح حقيقة؛ إن تاريخ هذا القرن يجب أن يعلمنا أن نحتضن قضية القيادة الأمريكية، إن هدفنا هو أن نذكر الأمريكيين بهذه الدروس، وأن نستخلص النتائج المترتبة عليها الآن، إننا نحتاج إلى زيادة الإنفاق

العسكرى بشكل كبير إذا ما كنا نريد القيام بمسئولياتنا العالمية اليوم، وأن نحدّث قواتنا المسلحة فى المستقبل. كما نحتاج لتقوية علاقاتنا مع حلفائنا الديموقراطيين وأن نواجه النظم المعادية لقيمنا ومصالحنا. ونحتاج أيضا لأن نشجع قضية الحرية الاقتصادية والسياسية فى الخارج. ونحتاج لأن نقبل مسئولية الدور الأمريكى الفريد فى الحفاظ على النظام الدولى وتوسيعه بحيث يكون محققا لأمننا ورخائنا ومبادئنا".

كان هذا هو البيان الأول الذى أطلقته مجموعة المحافظين الجدد فى الولايات المتحدة أو اليمين الأمريكى الجديد فى ذات اللحظة التى كان فيها بيل كلينتون قد وصل إلى قمة نجاحاته فى مد نفوذ الولايات المتحدة فى العالم من خلال سلسلة من العلاقات متعددة الأطراف التى وصلت به عبر الباسفيك إلى آسيا، وعبر الأطلنطى إلى أوروبا، وعبر المتوسط إلى الشرق الأوسط. ولكن ذلك لم يكن مقبولا من اليمين الأمريكى، ربما لأنه حدث فى الوقت الذى خفضت فيه الولايات المتحدة من موازنتها الدفاعية، وربما لأنها باتت تعتمد على التجارة والتكنولوجيا بأكثر مما تعتمد على القوة العسكرية. على أى الأحوال فقد جاءت الفرصة لهذه المدرسة من التفكير الإمبراطورى الأمريكى بعد انتخاب جورج بوش الابن، بل وعلى الأرجح أنها كانت وراء نجاحه فى الانتخابات. وإذا كانت الفلسفة التى تقوم عليها الإدارة الأمريكية الجديدة غير موثوق فيها من قبل الشعب الأمريكى، فإن أحداث ١١ سبتمبر جعلت هذه الفلسفة مقبولة تماما، وجرَّت وراءها زيادة هائلة فى الميزانية العسكرية، واستخداما واسعا للقوة العسكرية فى أكثر من مسرح للعمليات. وربما لم تكن صدفة أن الرئيس جورج بوش الابن كان هو الرئيس الذى استخدم تعبير "محور الشر" الذى يشمل دولا مثل إيران والعراق وكوريا الشمالية، وذلك بعد عقدين من استخدام رونالد ريجان لتعبير "الامبراطورية الشر" للدلالة على الاتحاد السوفيتى.

التعامل مع السياسة الأمريكية

وهكذا فإن كل المهتمين بالسياسة الخارجية الأمريكية عليهم أن يضعوا هذا البعد الأيديولوجى فى الاعتبار. صحيح أن المؤسسات الأمريكية فى العادة تقوم بدراسة المواقف المختلفة ليس فقط استنادا إلى أفكار القيادات الأمريكية، ولكننا لا نستطيع أن نغفل أن "تعريف الموقف" و"تحديد المصالح" لا يمكن أن ينفصل عن هذه الأفكار. وربما كان شارون من أكثر القادة الذين عرفوا كيف يوظفون هذا التطور فى السياسة الخارجية الأمريكية لصالح إسرائيل، حينما نجح فى الربط ما بين المقاومة الفلسطينية والإرهاب، وما بين حالة الرأى العام العربى، وحالة المناهضة للمصالح الأمريكية فى العالم.

ولعله ليس بعيدا عن الشرق الأوسط، والتقاليد الأمريكية فى نفس الوقت، أن اللوبى اليهودى فى الولايات المتحدة أخذ فى الاستيلاء على مشروع "القرن الأمريكى الجديد"، بصورة تجعل المصالح الإسرائيلية هى نفسها المصالح الأمريكية. وليس صدفة أن كثيرين من أعضاء اللوبى اليهودى يسعون الآن إلى إطلاق ما يسمى بـ "مبدأ بوش" على ما قاله الرئيس بوش فى خطاب الاتحاد أمام الكونجرس فى شهر يناير ٢٠٠٢ وتحدث فيه عن "معسكر الشر". هذا المبدأ يقوم على ثلاثة أركان: أولها القيادة الأمريكية النشيطة للعالم، ومادام الأعداء الإرهابيون يرون أن ميدان المعركة هو العالم كله، وأن استخدام أسلحة الدمار الشامل مشروعة، فإن الولايات المتحدة عليها أن تحاربهم دون هوادة وبكل الطرق الممكنة. وثانيها تغيير النظم التى تناهض الولايات المتحدة فى الدول التى وصفها بوش بمحور الشر المكون من العراق وإيران وكوريا الشمالية محددا تعريفا دقيقا "للنصر" هو ضرورة إسقاط هذه النظم. وثالثها تشجيع المبادئ الليبرالية والديموقراطية، أو كما وصف بوش بأنه "لا توجد أمة مستثناة من المطالب غير القابلة للتفاوض وهى تحقيق الحرية والقانون والعدل".

وبطبيعة الحال فإن مجموعة القيم النبيلة التى ذكرها بوش فى خطابه والخاصة بتحقيق "الحرية والقانون والعدل" لا تمثل مشكلة عويصة بالنسبة للعالم العربى إلا إذا أعيد تفصيلها من جديد وفق المصالح الإسرائيلية بحيث تصلح لخلق حالة مواجهة بينه وبين أمريكا، بينما تبقى إسرائيل حالة خاصة لا ينطبق عليها التقييم الأخلاقى للولايات المتحدة. هذه المبادئ الثلاثة على أى الأحوال تشكل عالما أمريكيا جديدا يقوم على نزعة إمبراطورية تحتاج كل الحصافة والتدبير للتعامل معها وترويضها من أجل تحقيق المصالح العربية.

صناعة القرار الأمريكى

تتدخل عناصر عديدة فى عملية صنع قرارات السياسة الخارجية الأمريكية، من بينها دور الأفراد والجماعات التى تقوم بعملية تكييف وتحديد المصالح الأمريكية فى منطقة ما أو فى موضوع بعينه. وفى العادة فإن هؤلاء الأفراد يمثلون منظمات ومؤسسات كبرى، تسعى لاستغلال الظروف المختلفة لتوسيع نطاق نفوذها، والأهم الموازنات المالية المخصصة لأجهزتها البيروقراطية.

وتثبت الدراسات أن عملية صنع القرار الأمريكى تتم من خلال الشد والجذب بين مؤسسات البيت الأبيض ومجلس الأمن القومى فيه، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع ومعها هيئة أركان الحرب المشتركة للأسلحة المختلفة، وأخيرا وكالة المخابرات المركزية الأمريكية حول "حقيقة" المصالح الاستراتيجية الأمريكية، والفرص

والمخاطر الكامنة فى موقف بعينه. ويتزايد دور الأفراد الممثلين لهذه المنظمات كلما كان لديهم رؤية استراتيجية أو أيديولوجية واضحة، وكلما كان الموقف معقدا وغامضا وتتضارب فيه العناصر والدوافع المختلفة. ورغم أن رئيس الجمهورية هو الصانع الرئيسى للسياسة الخارجية دستوريا، فإنه عادة ما يبرز فرد بعينه له القدرة والنفوذ على تشكيل هذه السياسة كما كان الحال مع روبرت ماكنمارا وزير الدفاع فى عهد كينيدى، وهنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى ووزير الخارجية فى عهد نيكسون.

وفى إدارة الرئيس جورج بوش برز الدور الذى يلعبه نائب الرئيس ريتشارد تشينى وجماعته فى عملية تشكيل السياسة الأمريكية فى العموم، وإزاء الشرق الأوسط بصفة خاصة. وقد كان من المعتاد فى السابق أن يلعب نائب الرئيس الأمريكى دورا هامشيا، فطبقا للدستور لا توجد لديه واجبات محددة، فيما عدا الدور الرسمى لرئاسة مجلس الشيوخ حيث يكون له الصوت المرجح فى حالة تعادل الأصوات. وفيما عدا ذلك فإن نائب الرئيس يلعب دور "الاحتياطى" للرئيس ولا يُستخدم إلا فى حالة وفاة الأخير أو عجزه عن العمل. ومن الناحية غير الرسمية فإن نائب الرئيس يحسب عادة على رئيس الجمهورية، ويظل على حد قول تشينى بمثابة الناصح الصريح والأمين فى السر له. ومع ذلك فإنه بعد مضى عام على تولى إدارة بوش للسلطة فإن نائب الرئيس يبدو لاعبا لدور أكبر من دوره الدستورى، وأكبر مما هو معتاد فى المنصب حتى مقارنة بالأدوار القوية التى لعبها نواب للرئيس من قبل وكان آخرهم آل جور فى إدارة الرئيس كلينتون.

ومهما كانت الأصول الدستورية للمنصب، فإن واقع الحال فى الإدارة الأمريكية أمر آخر، حيث ظهر أن نائب الرئيس تشينى، والجماعة العاملة معه، قد باتوا أصحاب النفوذ الأكبر فى رسم السياسة الخارجية بما فيها تلك الخاصة بالشرق الأوسط. ويبدو أنه ركز فى يده مجموعة كبيرة من الملفات السياسية حتى أنه يصعب الاستغناء عنه، فرغم حالته الصحية المتداعية حينما وصل إلى سن الستين كان قد عانى من أربع أزمات قلبية حادة، وغير أربعة صمامات فى شرايين القلب، كان استدعاؤه للعمل فورا حتى قبل اكتمال شفائه دالا على مكانته فى الإدارة.

وقد اجتمعت مجموعة من العوامل لكى تعطى تشينى هذه المكانة، منها أنه أكثر أعضاء الإدارة الحالية خبرة، حيث عمل من قبل مع ثلاثة من رؤساء الجمهورية هم نيكسون وفورد وبوش الأب، كما عمل لأكثر من عشر سنوات كعضو ورئيس للأقلية الجمهورية فى مجلس النواب، وأعطاه العمل كوزير للدفاع فى عهد إدارة بوش الأب إبان فترة انتهاء الحرب الباردة، وحرب الخليج الثانية خبرة لا تحد. ومن جانب آخر فإن نائب الرئيس – مقارنة على الأقل بالرئيس نفسه – لديه قدرة هائلة على العمل المتواصل حتى أنه يصعب على باقى أركان الإدارة الأمريكية ملاحقته. ومن جانب

ثالث فقد كان تشيني هو الذى حمل على عاتقه قضية تواجد الحزب الجمهورى على الساحة السياسية الأمريكية منذ أن كان رئيس لجنة السياسة فى الحزب الجمهورى من ١٩٨١ وحتى ١٩٨٧، وهو الذى قام بعملية "هندسة" نجاح جورج بوش الابن فى الانتخابات والوصول به إلى البيت الأبيض، مستخدما فى ذلك كل القدرات الفذة لأعضاء الحزب من أمثال هنرى كيسنجر وجيمس بيكر وزير الخارجية ورئيس العاملين فى البيت الأبيض فى عهد بوش الأب، ثم بعد ذلك دفعهم جميعا إلى الظل.

والحقيقة أن مكانة تشيني فى إدارة بوش الراهنة تتعدى شخصه والعاملين معه فى مكتبه إلى شبكة من العلاقات النافذة فى البيت الأبيض من خلال كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومى، ووزارة الدفاع من خلال دونالد رامسفيلد ونائبه بول وولفويتز، وفيما يخص الشرق الأوسط مساعده دوف زخاييم، وكل منهم ينتمى منذ وقت طويل لمدرسة الصقور الأمريكية، كما أنهم يدينون بقدر ما بمناصبهم إلى نائب الرئيس. ويعد لويس ليبى أبرز العاملين مباشرة مع نائب الرئيس، وقد عمل من قبل محاميا فى دوائر المال والأعمال، واشتهر اسمه عندما كان المحامى الذى هندس عملية العفو عن عقوبة السجن لرجل الأعمال اليهودى مارك ريتش فى الأيام الأخيرة من إدارة كلينتون. وقد عمل من قبل فى وزارة الدفاع نائبا مع ريتشارد بيرل مساعد الوزير المعروف بمناداته الدائمة بضرورة غزو العراق.

ولا يعرف عن تشيني أنه أحد المنظرين الكبار للسياسة الخارجية الأمريكية، ولكنه ينتمى إلى تلك المدرسة من اليمين المحافظ التى خرج منها ريتشارد نيكسون ورونالد ريجان وكلها ترفض مدرسة "المثالية" الأمريكية الشائعة لدى الليبراليين من العاملين فى المؤسسة الشرقية الأمريكية والتى ترى أن العالم يمكن هندسته نحو التقدم من خلال تحفيز النوايا الطيبة للبشر. وعلى العكس فإن مدرسة تشيني تقوم على أن العالم ممتلئ بالأشرار الذين يستحيل حفزهم على التقدم من خلال الهندسة السياسية والدبلوماسية والحوافز الاقتصادية، ولكن يمكن دفعهم دفعا نحو سلوكيات معينة متوائمة مع المصالح الأمريكية من خلال أساليب القوة المختلفة بما فيها القوة المسلحة. وتبعا لذلك يصبح من قبيل السذاجة الكبيرة أن تورط الولايات المتحدة نفسها فى عمليات للتغيير الكونى نتائجها غير مضمونة، وإنما تعمل فى تلك القضايا من خلال المصالح التى تمسها مباشرة، أما الذى لا يمسها فإنه لا يخصها أن تبذل مجهودا فيه. وفى هذه الحالات الأخيرة – التى لا تمس مصالحها – فربما كان للتنظيم الدولى والأمم المتحدة دور فيه، أما فى تلك الحالات التى تشتبك فيها المصالح الأمريكية مع الآخرين فإن القرار الأمريكى وحده هو المقرر للنتائج حتى ولو كان مسببا لمواجهة مع بقية العالم. فالأصل هو ألا تعطى الولايات المتحدة ومصالحها العليا الفرصة لأغلبية من دول العالم تنتمى إلى العالم الثالث لكى تقرر مصير المواطن الأمريكى.

وبسبب الطبيعة الفكرية لمجموعة تشيني، فإنها تميل دوما إلى التحديد الدقيق للمصالح الأمريكية في كل قضية بحيث لا يشيع فيها لبس أو تعقيد أو مناطق مشتبهة. وبرز ذلك بقوة عندما خرجت الولايات المتحدة من اتفاقية كيوتو الخاصة بالبيئة، ومن الإصرار على بناء الدرع الدفاعي الصاروخي والخروج من المعاهدة المانعة لذلك والموقعة مع الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٧٢، والتعامل بفظاظة مع روسيا واعتبارها - مع الصين - في حالة منافسة استراتيجية مع الولايات المتحدة. وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر، وتفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك، ومبنى البنتاجون في واشنطن تأكيدا لأفكار هذه المجموعة من أن العالم ممتلئ بالأشرار الذين "يحقدون" على النجاح الأمريكي وأسلوب الحياة الأمريكية ويسعون إلى تحطيمه. وبالطبع فإن هذه المجموعة تعتقد اعتقادا جازما أنهم محملون برسالة من خلال الحزب الجمهوري لحماية وإنقاذ أمريكا، ومن ثم فإن استمرار الحكم الجمهوري، ونجاح جورج بوش الابن في الحصول على فترة ولاية ثانية تعد مسألة جوهرية بالنسبة لهم ليس فقط كرد اعتبار لما حدث عام ١٩٩٢ عندما فاز شخص مغمور هو بيل كلينتون، ومن ولاية متواضعة الشأن هي أركانساس، على جورج بوش الأب المنتصر في حرب الخليج، وإنما هي أيضا مسألة حيوية لأمن الولايات المتحدة ومستقبلها.

وتنعكس أفكار مجموعة تشيني بشكل حاد على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، كما يتزايد نفوذها على حساب مجموعة كولين باول في وزارة الخارجية الأمريكية. فمنذ وصول الإدارة الحالية إلى البيت الأبيض وهذه المجموعة ترى أن الشرق الأوسط يعيش في حالة من عدم الاستقرار البنائية الراجعة لتطوره السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ولذا فإن واجب الولايات المتحدة ليس إعادة بناء الإقليم وهندسته على قيم جديدة كما كان يحاول الرئيس كلينتون القيام به، وإنما البحث عن المصالح الأمريكية المباشرة وحمايتها. وإذا كان السلام في الشرق الأوسط هدفا في حد ذاته لإدارة كلينتون ومن قبله بوش الأب باعتباره أساسا للاستقرار في المنطقة وعملية إعادة ترتيب الأوضاع في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، فإن مجموعة تشيني لا ترى فيه إلا ما يمس المصالح الأمريكية المباشرة المتعلقة بالنفط وأمن إسرائيل. وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر لا لكي تؤكد وجهة نظر مجموعة تشيني من السياسة العالمية فحسب، بل أيضا لكي تؤكد لهم أن الشرق الأوسط منطقة تهديد مباشر لأمن الولايات المتحدة، ومن ثم فإن خطوط الخير والشر لا بد وأن تكون واضحة فيه تماما.

ووفق هذا التقسيم، فقد صارت إسرائيل تقريبا وحدها في جانب الخير، أما بقية الدول فإنها إما معادية تماما مثل العراق، أو أنها مشكوك في ولائها مثل الدول العربية المعتدلة. ولذلك لم تكن صدفة عندما صرح تشيني في شهر نوفمبر ٢٠٠١ أن للإسرائيليين بعض الحق في سياسة قتل بعض "المتشددين" الفلسطينيين، ومن المرجح

أنه كان وراء التصريحات المتكررة للرئيس بوش بتحميل الرئيس ياسر عرفات المسئولية في استمرار العنف والمواجهة في الأراضي الفلسطينية المحتلة. ومن المرجح خلال المرحلة المقبلة أن تنحصر أهداف مجموعة تشيني في الشرق الأوسط في القضاء على النظام العراقي حتى ولو بالقوة المسلحة، وفي الصراع العربي الإسرائيلي على سحق المقاومة الفلسطينية، باعتبارهما الأساس في توليد موجات العداء للمصالح الأمريكية في المنطقة.

تنظـــــيم القاعـــــدة

يثير تنظيم القاعدة كثيرا من أحاسيس الرهبة الممتزجة بالرعب والكراهية فى الغرب، وكثيرا من الحيرة والمشاعر المتناقضة فى العالم الإسلامى، والواقع أن البداية لم تكن سوى سجل للمتطوعين الذين أتوا للجهاد فى أفغانستان، من جماعات متفرقة من نحو أربعين دولة، لتدوين بياناتهم، وتتبع مصائرهم، حتى يسهل الرد على استفسارات ذويهم بشأنهم، أى أن قاعدة بيانات قد أنشئت، ومن هنا ظهر اسم "القاعدة"، وقد برزت مقدرة بن لادن بعد ذلك، فى تجميع هذا الشتات وجَعْل منه كيانا قويا عُرف بـ"تنظيم القاعدة".

البدايات

فى ١٩٨٢-١٩٨٤ أسس د. عبد الله عزام "مكتب الخِدْمات للمجاهدين العرب" الذى عُرف باسم مكتب الأفغان. ولما كان أسامة بن لادن هو الممول الرئيسى فقد اعتُبِرَ نائبا لعزام. وفى أوج تدفق العرب والمسلمين إلى باكستان وأفغانستان من ١٩٨٤-١٩٨٦ فقد نشط بن لادن فى التنقل واستثمار الأموال فى العالم العربى. واستطاع أن يجند عدة آلاف من شباب العرب والمسلمين لمحاربة الاتحاد السوفيتى. وتجمعت لدى مكتب الخدمات ما قيمته عدة بلايين من الدولارات من موارد حكومية ومالية ومادية لدعم الجهاد الأفغانى. ولقد عمل مكتب الخدمات عن قرب مع المخابرات الباكستانية، ومع الحكومتين السعودية والمصرية ومع الشبكة العريضة للإخوان المسلمين.

تولى الصرف على أعمال القتال والغوث بنكان هما دار المال الإسلامى الذى أسسه الأمير محمد فيصل فى ١٩٨١ ودلة البركة الذى أسسه أخ الملك فهد فى ١٩٨٢. وقد قام البنكان بتمويل ٢٠ منظمة غير حكومية من أشهرها منظمة الغوث الإسلامية العالمية. وقد عملت هذه المنظمة ووكالة الغوث الإسلامية تحت مظلة الجامعة الإسلامية العالمية التى يرأسها المفتى عبد العزيز بن باز. وبالإضافة إلى الاستفادة بالموارد والخبرات التى تقدمها الحكومات خلال المصادر المحلية والأجنبية، فقد أنشأ

مكتب الخدمات مركزا عالميا مستقلا فى عدد من المساجد والدور الخيرية المنتشرة فى العالم.

ومع انتهاء الجهاد الأفغانى ضد السوفييت نشأ خلاف بين بن لادن وعزام بسبب مساندة عزام لأحمد شاه مسعود، قائد تحالف الشمال الذى يحارب طالبان. وكان بن لادن يفضل قلب الدين حكمتيار، رئيس الوزراء السابق وقائد الحزب الإسلامى وهو معارض للشيوعية والغرب فى نفس الوقت.

وعندما انسحب السوفييت قرر بن لادن أن يشكل مجموعة هدفها توحيد العالم الإسلامى فى كيان واحد. وبالرغم من الخلافات بين عزام وبن لادن فقد عملا معا حتى اغتيل عزام فى ١٩٨٩. ورغم انسحاب القوات السوفييتة فى تلك السنة، إلا أنهم نصَّبوا نجيب الله فى كابول وهو المعروف بولائه للشيوعيين. وحشد مكتب الخدمات إمكانياته لمحاربة نظام نجيب الله، ولتوجيه النشاط إلى أماكن أخرى من العالم. وبالإضافة إلى الاستفادة من التكتل الإسلامى الذى يمثله مكتب الخدمات، فى مقابل أيديولوجية التكتل العربى، تلقت القاعدة سيلا من الموارد المالية الواسعة، والخبرات الفنية التى تدفقت على مدى عقد كامل هو عمر الحملة ضد السوفييت.

بعد انتهاء هذه الحملة عاد بن لادن إلى السعودية ليساعد فى تكوين أول مجموعة للجهاد فى اليمن الجنوبى بقيادة طارق الفادى. وبعد غزو العراق للكويت فى ١٩٩٠ تبين لبن لادن فشل الحكام السعوديين فى الوفاء بتعهداتهم بإجلاء القوات الأجنبية بعد زوال التهديد العراقى مما دفعه إلى بدء حملة ضد الأسرة المالكة السعودية وادعى أن الحكام السعوديين مسلمون مزيفون وأن من الضرورى تنصيب حكم إسلامى حقيقى فى السعودية. وفى ١٩٩٢ قامت السلطات السعودية بترحيله ثم أسقطت عنه الجنسية فى ١٩٩٤.

وفى تلك الأثناء آلت السلطة فى السودان إلى الجبهة الإسلامية القومية بزعامة حسن الترابى الذى أرسل وفدا إلى باكستان. وكان أن انتقل بن لادن ومعه أعوانه من المقاتلين ذوى الخبرة والتدريب الجيد من باكستان إلى السودان بدءاً من ١٩٨٩، وبقى هناك حتى أرغم على العودة إلى أفغانستان تحت وطأة الضغوط العالمية ضد السودان.

التنظيم

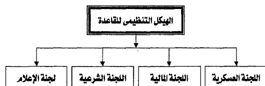
على رأس التنظيم يوجد بن لادن - الأمير - ويتبعه قادة القاعدة الآخرون وقادة المجموعات التأسيسية. ويتكون التنظيم الأفقى من ٢٤ مجموعة تأسيسية. ويتبع بن لادن مباشرة مجلس الشورى الذى يختار أعضاءه بنفسه ويضم أربع لجان: اللجنة العسكرية، والشرعية، والمالية، والإعلام. وتقترح هذه اللجان - واللجنة العسكرية

على وجه الخصوص - على بن لادن وقادته التنفيذيين مهام خاصة ومحددة. ولضمان نجاح العمليات على كل المستويات يجرى تقسيم العمل وإحاطته بالسرية البالغة. وقد واجهت رغبة بن لادن فى توسيع نطاق عملياته ما جرى من تشديد للإجراءات الأمنية إثر الهجوم على سفارتى أمريكا فى كينيا وتنزانيا، اضطرت بسببها عناصر القاعدة إلى توخى الحذر والتخفى بدرجة متزايدة.

يقدر عناصر القاعدة بثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف رجل، معظمهم حارب فى صفوف طالبان ضد التحالف الشمالى ويطلق عليهم الفرقة ٥٥. وتتمركز معسكراتهم فى خوست، محافيا، كابول، جلال أباد، كونار وقندهار، ولهم مخازن فى تورا بورا وليزا. ولقد استفاد بن لادن كثيرا من قاعدة البيانات الخاصة بالمجاهدين أثناء حربهم ضد السوفييت فى تجنيد ذوى الخبرة من المقاتلين الأكفاء.

ولقد اكتشفت خلايا القاعدة المسئولة عن التأمين والعمليات فى كل من إيطاليا، ألمانيا، المملكة المتحدة، كندا، الولايات المتحدة الأمريكية، تنزانيا، كينيا، اليمن وألبانيا. وبالرغم من إبطال نشاط تلك الخلايا فقد جرى استبدالها فيما بعد فى أماكن أخرى. كذلك تم التعرف على خلايا القاعدة فى حوالى خمسين دولة منها الصومال، إرتريا، السودان والفلبين. وتعمل خلايا العمليات "الكوماندوز" تحت قيادة محمد عاطف وكنيته أبو حفص، وغالبية هؤلاء أعضاء انتحاريون. ويضم التنظيم أيضا جهازا أمنيا يرأسه محمد موسى.

الهيكل التنظيمى



يتكون تنظيم القاعدة من اللجان العسكرية والمالية والشرعية والإعلام، وتحدد أدوارها على النحو التالى:

اللجنة العسكرية مسئولة عن التجنيد والتدريب والتدبير وتقديم الدعم اللازم للعمليات العسكرية. وهى التى تخصص المهام للمجموعات وعليها التخطيط والإعداد

للهجمات بما في ذلك جمع البيانات الاستخبارية من خلال عمليات مراقبة أو استطلاع الأهداف المحددة وعمل البروفات للتدريب على الهجوم. كذلك تخصص المدربين والأسلحة والموارد الأخرى لمعاونة التشكيلات العالمية الأخرى بطريقة مباشرة وغير مباشرة. وتشرف على الأنشطة السرية بما في ذلك مكتب خاص لتدبير وتزييف وثائق الهوية كجوازات السفر وتصاريح الدخول.

اللجنة المالية مسئولة عن توفير التمويل الضروري لتعزيز أنشطة القاعدة وفاعليتها. وتسيطر القاعدة على فروع لكل من مكتب الخدمات للمجاهدين العرب ومنظمة الإغاثة الإسلامية العالمية، وهما مصدران هامان للتمويل. وقد قام فرع المنظمة في الفلبين الذي يديره جمال محمد خليفة، الأخ غير الشقيق لبن لادن بدعم كل من جبهة التحرير الإسلامية ومجموعة أبو سياف. كما باشر فرع منظمة الغوث في تنزانيا نشاطه مع القاعدة قبل تفجير السفارات الأمريكية مباشرة.

اللجنة الدينية-الشرعية مسئولة عن تبرير مواقف القاعدة، ويقوم أعضاؤها بالوعظ لنشر نموذج القاعدة للإسلام.

لجنة الإعلام مسئولة عن نشر الأخبار والمعلومات التي تعضد الأنشطة السياسية والعسكرية للقاعدة. وقد أسِّس في لندن مكتب القاعدة للنشر والعلاقات العامة لأوروبا، وأداره خالد الفواز حتى قُبض عليه في سياق تفجير سفارة الولايات المتحدة في نيروبي في ١٩٩٨.

الأيديولوجيات

يعزى الدعم الواسع والبنية التنفيذية التي تتمتع بها القاعدة إلى توجهاتها الأيديولوجية العريضة. ويتوجه خطاب بن لادن الأيديولوجي إلى المجموعات الشرق-أوسطية وغير الشرق-أوسطية ذات الطابع الإسلامي. وبرغم انتماء بن لادن للعرب، فإنه ينادي بالتكتل الإسلامي وليس التكتل العربي. وقد تأثر تفكيره في هذا الاتجاه أساسا بأستاذه عزام، وبدرجة أقل بحسن الترابي، الزعيم الروحي للسودان.

ولكي يضع أيديولوجياته موضع التنفيذ، فقد أرسل بن لادن بضع مئات من الأفغان المتمرسين للحاق بالمجموعات الإسلامية في آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط، وتعزيز حروب العصابات المحلية والعالمية ومخططات "الإرهاب" لتلك المجموعات. اختار بن لادن كوادره من بين خمسين ألفا من المقاتلين الأشداء الذين يمثلون جيلين من الأفغان المتمرسين على فنون القتال. الجيل الأول شارك في الحرب الأفغانية في ٧٩-١٩٨٩ والجيل الثاني شارك في حروب في طاجيكستان، والبوسنة - والهرسك، وكشمير، ومنداناو، والشيشان، ولبنان، وناجورنو كاراباخ، والجزائر.

يقدم بن لادن دعمه لفئات ثلاث: أولاً، المجموعات التي تناهض أنظمة لحكام مسلمين يوالمون - في اعتقادهم - بين الأفكار الإسلامية ومصالح الدولة كما في مصر والجزائر والسعودية. ثانياً، المجموعات المناهضة لأنظمة يدركون أنها تقوم بقمع واضطهاد عامة المسلمين عندهم كما في كوسوفو والهند وإندونيسيا. ثالثاً، المجموعات التي تناهض أنظمة من أجل إقامة دولتهم الإسلامية الخاصة بهم كما في فلسطين والشيشان وداغستان ومندناو. كذلك وجه بن لادن جهوده وموارده ليحارب الولايات المتحدة، كدولة يراها تمثل تهديداً مباشراً للإسلام، ويليها مباشرة أوروبا وإسرائيل وروسيا والهند مرتبة من حيث أهميتها كأهداف لعملياته.

كان من شأن الأيدولوجيات العريضة للقاعدة أن مكنتها من التغلغل داخل كثير من الجماعات الإسلامية. وبعد أن تبينت إمكانية توجيه ضربة إلى أوروبا وأمريكا الشمالية، قامت القاعدة بعد ١٩٩٧ بنشر الشبكة الأوروبية للجماعة الإسلامية المسلحة. وبالرغم من أن هذه الجماعة من خلايا القاعدة، فإن فتوى القاعدة لم تكن تشير إليها كواحدة ممن يوقعون عليها. ويمكن تفسير ذلك باعتقادهم أن الكشف عن هذه الصلة يمكن أن يكون له آثار سلبية. وبالمقارنة بالجماعات الأخرى التي كانت توقع على الفتوى صراحة، فقد كان لهذه الشبكة حضور أكبر في الغرب.

جاء معظم أعضاء القاعدة من جماعتين مصريتين: الجماعة الإسلامية والجهاد الإسلامي، كما نشأت صلة وثيقة بين قمر الدين خيربان - الأفغاني المتمرس - وقيادات كل من الجماعة الإسلامية المسلحة والقاعدة. وكذلك تأسست صلات بين القاعدة وبين جماعتين جزائريتين هما جماعة الجيش الإسلامي المسلحة التابعة لعنتر زعبري، والجماعة السلفية للوعظ والجهاد التابعة لحسن حطاب، وتوطدت هذه الصلات بدرجة كبيرة في ١٩٩٧-١٩٩٨. ومن جهة أخرى وثق بن لادن صلاته بجيش عدن الإسلامي في اليمن وعدد من الأحزاب الإسلامية الصغيرة في تونس وليبيا والمغرب. وباستثناء جبهة التحرير الإسلامية ومجموعة أبوسياف فإن العلاقة بين القاعدة والمجموعات الإسلامية الآسيوية، وبخاصة في كشمير، تطورت في النصف الثاني من التسعينات. ومن التنظيمات الأخرى التي ارتبطت بالقاعدة: الجماعة السلفية للدعوة والقتال، النهضة، الصحابة في كشمير، الجبهة الإسلامية في كشمير، حركة المجاهدين وحركة الجهاد في كشمير، حزب الله في لبنان، حماس في الأراضي المحتلة، والحزب الإسلامي في تركستان.

ومنذ عملية تفجير السفارات، تزايدت درجة الحيطة والحذر لدى القاعدة، وأصبحت عملية اتخاذ القرار محاطة بقدر أكبر من التكتم، بحيث لا يعرف إلا القليلون جداً ما هو الهدف التالي. وبالتالي اقتصرت عمليات اختيار الأهداف، والتجهيز، والحصول على المعلومات على بن لادن وعدد لا يتعدى أصابع اليد من أعضاء اللجنة العسكرية.

مصادر التمويل

تذكر المصادر الغربية قائمة بالدول التي تدعم بن لادن من الناحية المالية شملت: السودان، وإيران، وأفغانستان. أما باكستان فلم تؤيد حملات بن لادن الإرهابية، ولكنها ساعدت بضع مئات من الأفغان المدربين الذين يعملون مباشرة تحت لواء القاعدة، وخاصة حركة المجاهدين المسئولة عن قتال القوات الهندية في كشمير.

كما ينوه الغرب عن تنوع المصادر التي يعتمد عليها بن لادن في تمويل نشاطاته، فقد ورث ثروة تقدرها وكالات الاستخبارات الغربية فيما بين ٢٨٠ إلى ٣٠٠ مليون دولار. ويحظى بن لادن مثل غيره من المنظمات ذات الحظوة بدعم الدول العربية الغنية في الشرق الأوسط علاوة على المؤسسات الخيرية المسلمة المعلنة. وتُبرم الصفقات الخاصة بالمؤسسات التابعة لبن لادن من خلال العديد من البنوك الخليجية، إذ تتم التحويلات خلال البنوك العالمية في الخليج حيث يوجد أخوه غير الشقيق محمد جمال خليفة. ومن مقره هناك يباشر خليفة مسئوليته عن إدارة جزء من شبكة التمويل بالتوازي مع استثماراته الكبيرة في موريتانيا وسنغافورة وماليزيا والفلبين، وأعماله التي تتنوع مجالاتها من تجارة الماس وحتى الأسماك. وبرغم ما قيل عن قطع الصلات مع بن لادن تردد المصادر الغربية أنه تلقى اعتمادات مالية هامة من المتبرعين الأثرياء بمن فيهم عائلته.

اضطلع بمهمة توزيع الاعتمادات رجل أعمال سعودي في إثيوبيا - وكان قد نُفي إليها - هو الشيخ محمد حسين العلمادي، وآخر في أفغانستان هو أبو زبيدة، وهو فلسطيني وُلِد في السعودية لعائلة تنحدر من غزة واسمه الأصلي زين العابدين محمد حسين. وكانت الاعتمادات يجري تحويلها خلال عدد من البنوك في الإمارات والسعودية والكويت.

وفي فترة التسعينات أسهمت حسابات بن لادن في تمويل عمليات الإنفاق على الإقامة في الفنادق، وتوفير المنازل الآمنة والسيارات بغرض استطلاع الأهداف المادية والبشرية، وكذلك في شراء أو تصنيع مكونات وسائل التفجير. وقد تمكنت سلطات الولايات المتحدة من تعقب خمسة آلاف دولار أمريكي جرى تحويلها من بن لادن إلى مجموعة العمليات في اليمن، التي هاجمت السفينة الأمريكية كول. وتحديداً، فقد كان المطلوب تغطية تكاليف تصوير الهجوم بالفيديو، وهو الأمر الذي تعذّر إنجازه.

ومع ذلك، فمن الواضح بشكل عام، أن عمليات تمويل القاعدة جرى تطويقها نتيجة محاولات الولايات المتحدة وقف المعاملات من القاعدة وإليها، أو من جراء تقييد

الاتصالات الذى فرضته طالبان. ومن العسير حصر الدعم التى تتلقاه القاعدة لحرص بن لادن على إخفاء تعاملاته، كم أن ادعاءات الجهات الحكومية والإعلامية - التى يشوبها الكثير من المبالغة حول نفوذ بن لادن - لا يمكن التعويل عليها.

على أية حال، فقد كان ما تلقاه مسئولو عمليتى تفجير السفارات متواضعا للغاية. لقد كان أحمد رسام وزملاؤه الذين تم القبض عليهم فى الولايات المتحدة وكندا فى ١٩٩٩ متورطين فى تزوير أو سرقة بطاقات الائتمان، كما تبين أن الذين قبض عليهم فى الأردن من أعوان بن لادن حصلوا على الأموال عن طريق سرقة البنوك وعمليات السطو والشيكات المزورة، وكانوا يخططون لعمليات اختطاف من أجل الحصول على فدية.

امبراطورية أعمال القاعدة

امتلكت القاعدة مؤسسات تجارية تمويلية ضخمة فى السودان، واستثمارات على اتساع العالم، ومشروعات صغيرة فى أماكن العمليات الهامة. فلها على سبيل المثال عدد من القوارب وشركات الصيد فى مُمباسا.

ومن بين مؤسساتها فى السودان: زرقانى، لادن العالمية، الثمار المباركة، كوادرات للنقل، وباربيا. وقد مارست تلك الشركات أعمالاً مشروعة. فقد أنشأت شركة "الهجرة للبناء" طريق التحدى من الخرطوم إلى بورسودان؛ وتصنع شركة "الإخلاص العالمية" الحلوى والعسل؛ وأنتج "بنك الموارد الحيوانية" جينات لعمليات تهجين المواشى؛ وأنتجت "مزارع كسلا" المهجنات للمنتجات التجارية والزراعية؛ وأنتجت "مدابغ الحَب" فى الخرطوم الجلود بينما صدرت "الفواكه المباركة" الفواكه والخضراوات. وضمت مزارع القاعدة مزارع صوبا ودمازين، وتعددت منتجاتها من الذرة البيضاء، والفول السودانى، وعباد الشمس، والقمح. وقامت مصانع القاعدة بعصر حبوب السمسم والفول لاستخراج الزيوت. وشملت منتجات القاعدة للتصدير: النعام والخراف (كينيا)؛ والخشب (تركيا)؛ والليمون والزيتون والزبيب والبندق واللوز (طاجيكستان)؛ والماس (تنزانيا)؛ واللازورد (أوغندا) والجمال (السودان). كما للقاعدة شركة أثاث ومصنع للمخبوزات.

أما وارداتها من الولايات المتحدة فشملت أجهزة الرؤية الليلية، وأجهزة الفيديو، والبطاريات، والمسدسات من طراز باريت عيار ٥٠، وطائرة حربية تى ٣٨٩ تحطمت عندما ارتطمت بأرض مطار الخرطوم الدولى. واستوردت القاعدة أيضا أجهزة الغوص وأجهزة قياس المدى (المملكة المتحدة)؛ المعدات التليفونية (ألمانيا)؛ اليورانيوم (جنوب إفريقيا)؛ الدراجات (أذربيجان)؛ عربات النقل ماز (روسيا)؛

الجرارات (سلوفاكيا)؛ السيارات (دبى)؛ والآلات الثقيلة لأعمال الإنشاءات؛ والأسمدة؛ والحديد؛ والمبيدات الحشرية؛ والمخارط؛ والسكر.

أسلوب العمل

يقوم بن لادن ونائبه أيمن الظواهرى بإدارة عدد من عمليات الدعم والهجوم اعتمادا على المؤيدين الناشطين ومجموعات الهجوم التابعين لهم. ويمثل الصفوة فى تشكيل القاعدة كوادر من ذوى الخبرة من المصريين والجزائريين واليمنيين.

وتمتلك القاعدة قدرات عالية فى اختراق أية جاليات مسلمة بغض النظر عن حجمها أو موقعها الجغرافى. وعلى مستوى الأفراد، فقد انضم أعضاء القاعدة إلى الجاليات المسلمة من نيوزلندا إلى الهند، واستطاع التنظيم أن يتسلل إلى الدول الديمقراطية وغير الديمقراطية على السواء. وتتمتع القاعدة فى دول الشرق الأوسط، وبالذات فى دول الخليج البترولية بتأييد الجماعات والمؤسسات الإسلامية. ويختلف أسلوبها فى النفاذ إلى المجتمعات الديمقراطيات الناشئة عنه فى مجتمعات الديمقراطيات الراسخة. ففى الحالة الأولى تتغلغل من خلال الإمداد بالبضائع والخدمات التى يحتاجها المسلمون، بينما تعمد فى الحالة الثانية إلى توثيق الأواصر مع الجاليات الإسلامية ذات الثقل بغرض كسب تأييدهم وتوجيه الدعم لمن يحتاجه فى الجاليات الإسلامية فى الأماكن الأخرى.



قادة القاعدة من اليمين: أبو حفص المصرى، أسامة بن لادن، أيمن الظواهرى

وفي إطـار التمهيد لتفجير السفارات في ١٩٩٨، ظـل العديد مـن متسللي القاعدة كامنين لسنوات عديدة. وفي بعض الحـالات، أجرى قـادة القاعدة اتصـالاتهم بـالأفراد الذين غادروا أمكنتهم لمعاونتهم وتمت إعادتهم إلى القافلة. وتعتقد أوساط المخابرات الأوربية أن هناك أفرادا (نائمين) في أوروبا وأمريكا الشمالية ينتظرون لحظة الإشارة لتنشيطهم.

الرد الأمريكي

تعني الحرب على القاعدة مواجهة العديد من التحديات. فقد كوّن بن لادن تنظيما من الصعب تفكيكه وإضعافه وتدميره. كما أن المجتمع الاستخباراتي لم يـألف التعامل مـع الشبكات ذات الهيكل الـديناميكي المتغير. وعنـدما يكـون المطلـوب تـدمير مجموعـة مسلحة ذات توجهات سياسية فهنـاك استراتيجية ثبت بالتجربـة نجاحهـا، وتتمثل في استهداف قلب القيادة وَصَفِّها الثـاني؛ ولكـن الأمـر فـي حالـة بـن لادن بـدا فـي غايـة الصعوبة. فهو في السودان محـاط بالعديد مـن دوائـر الحمايـة المكونـة مـن الحراس السودانيين وغيرهم ممن ينتمون إلى القاعدة، وفي أفغانستان رتبت لـه طالبـان ترتيبـات الأمن وكذلك الحراس الشخصيين.

وحتى في حالة التخلص من بن لادن، فمن الأرجح أنه سوف يأخذ مكانه إسلاميٌّ آخر ، وإن لم يكن هناك في الصف التالي من يتمتع بنفس مواهبه القيادية. ولما كانت قيادات الصف الثاني للقاعدة ذات ثقل كبير في مجال العمليات، فإن ذلك يؤهلها للاستمرار في عملياتها حتى لو تعرض بن لادن للأسر أو القتل. ويبقى أن معاصريه ولاحقيه سوف يستخلصون دروس التجربة الفريدة والخبرات المكتسبة مع بن لادن في العمليات التي جرت في الأماكن النائية من العالم أو في البحار.

وهناك أربعة أسباب رئيسية وراء المرونة العالية التي تمتع بها القاعدة:

- تعتبر القاعدة رمزا للمقاومة ضد السيطرة الغربية. وبالرغم من أن بن لادن يعتبر مصدرا حقيقيا للإرهاب في الغرب، فهو يُنظَر إليه في أجزاء من العالم الإسلامي على أنه الزعيم الأوحد الذي يمكن أن يقف أمام الشيطان الأكبر "أمريكا" والشيطان الأصغر "إسرائيل". وقد أنشأت القاعدة "الجبهة الإسلامية العالمية ضد اليهود والصليبيين" في سبيل أن تحظى بأقصى قدر من الدعم. وبهذه الطريقة، ضمنت قاعدة جاهزة من المتطوعين، والمؤيدين والمرشدين. وقد عمد بن لادن في سبيل تعميق وتوسيع تأثير القاعدة إلى الخروج عن المألوف وتبني نظرة إسلامية شاملة. ونتيجة لذلك حظي بدعم قوي ومتزايد من المسلمين العرب وغير العرب.

- بنت القاعدة عمقا استراتيجيا بتوثيق الروابط مع عدد من المجموعات الإرهابية الخطيرة في الشرق الأوسط وآسيا. وقد ساعد على ذلك وجود بن لادن بخبرته العملية وعلاقاته الشخصية بزعماء هذه المجموعات. لقد كان لسخاء بن لادن في إنفاق الأموال، وبدرجة أهم، كلمات المديح، أكبر الأثر في ترسيخ علاقات العمل على مستوى الزعامات والعمليات. ومع أن التوجيه والتخطيط والتمويل للعمليات يعود إلى القاعدة، فإن التنفيذ يقوم على أيدي المجموعات المحلية مثل الجماعة الإسلامية المسلحة، وجبهة التحرير الإسلامية، وجماعة أبو سياف. وهكذا فإن البحث عن ملابسات كل هجوم ومنفذيه ستكون في غاية الصعوبة.
- تطوق اليابسة أفغانستان من كل النواحي مما وفر للقاعدة حماية سياسية وأمنية وجغرافية لا تجدي معها العقوبات الدولية. بينما وضعت عزلة أفغانستان قيودا هامة على جمع المعلومات الاستخبارية، وخاصة بالنسبة للأجيال الجديدة من رجال المخابرات الذين تعودوا على الاعتماد على المصادر البشرية. وبدون الاحتكاك المباشر بين البشر فمن الصعب تغيير طريقتهم في التفكير.
- تخترق القاعدة ماديا و/أو أيديولوجيا المنظمات الإسلامية العالمية والمحلية غير الحكومية وهي بذلك تتوحد في نسيج التجمعات الإسلامية المنتشرة على اتساع العالم.بينما تتردد البلاد المضيفة مثل المملكة المتحدة وكندا، وأستراليا وحتى الولايات المتحدة في ملاحقة الهيئات الخيرية الإسلامية والأجنبية.

قاتلت قوات القاعدة في أفغانستان في صف طالبان لفترة طويلة. وخشيت الاستخبارات الغربية أن يعمد عشرات الآلاف من مقاتلي القاعدة الأجانب والأفغان إلى الانتقال إلى مسارح وصراعات أخرى لحساب القاعدة. وقد مثل هذا هاجسا مستمرا لكل من روسيا، والهند، والصين، وأوروبا، والولايات المتحدة خوفا من تهديد مصالحها الإقليمية في الشيشان، وكشمير، وزنيانج، والبلقان، والشرق الأوسط، وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر بعد ذلك دليلا على صحة هذا الهاجس.

في عددها الصادر في أغسطس ٢٠٠١ – أي قبل شهر واحد من هجمات سبتمبر – نشرت مجلة "جينز إنتلجنس ريفيو Jane's Intelligence Review " تقريرا خاصا مفصلا عن تنظيم القاعدة، وتصدرت غلافها صورة لأسامة بن لادن، ويقدم هذا التقرير التصور الأمريكي للمراحل التي مر بها تنظيم القاعدة، كما يبينها الشكل التالي. ويربط بين التنظيم والمؤسسات الأمنية والخيرية التابعة لبعض الدول وهو تصور أمريكي غربي لا يسنده حتى الآن دليل يعتد به. ومن المعروف أن المملكة العربية السعودية قد قطعت علاقتها بعد انتهاء الحرب ضد السوفييت بكل التنظيمات الموجودة في أفغانستان. ويثير توقيت نشر هذا التقرير، الذي يحوي تفاصيل قد يصعب جمعها دون

الاستناد إلى مصادر شديدة الاطلاع، كثيرا من الدهشة. فهل يوحى هذا التقرير العجيب فى توقيته، بأن ما حدث بعد ذلك فى ١١ سبتمبر، لم يكن مفاجأة بقدر ما كان امتدادا لعلامات وإرهاصات أو نوايا مضمرة تنتظر الخروج إلى حيز الفعل.

الإخوان المسلمون
الأمير تركى بن فيصل بن عبد العزيز
المفتى عبد العزيز بن باز
مؤسسة الحرمين
جهاز الأمن السعودى
الجامعة الإسلامية العالمية
صلات وروابط
فرع
دار المال الإسلامية
إشراف
فرع
دلـــة البركـــة
عضو
عبد الله عزام
أسامـــة بن لادن
مؤسس ومدير
مكتب الخدمات للمجاهدين العرب
مشارك
منظمة الغوث الدولية الإسلامية
وكالة الغوث الإسلامية
بوجمعة بنوا
خليفتـــه
قمرالدين خيربان
توريث
مؤسس
صلات وروابط
القـــاعدة
أيمن الظواهرى
الجهاد الإسلامى
رفاعى أحمد طه
الجماعة الإسلامية

التصور الأمريكى لتطور شبكة القاعدة

أســـــامـــة بــــن لادن

تعتبر واشنطن أسامة بن لادن واحدا من ضمن عشر شخصيات هم أخطر أعدائها على الإطلاق، وقد ذكر جورج تينيت مدير وكالة المخابرات المركزية " إن بن لادن الطويل النحيف أكبر خطر يهدد أمن الولايات المتحدة " لأنه يعتبر كل المواطنين الأمريكيين أهدافا مشروعة له ولأنه يعمل على امتلاك قدرات كيماوية وبيولوجية وإشعاعية بل ونووية، ولدى مكتب التحقيقات الفيدرالي في الولايات المتحدة تقرير مفصل عنه تتصدره عبارة "مسلح.وإرهابي فائق الخطورة".

ولد أسامة بن لادن عام ١٣٧٧ هجرية، ١٩٥٧ ميلادية في الرياض لأم سورية دمشقية، وكان ترتيبه بين إخوته وأخواته الثالث والأربعين، وترتيبه بين الذكور الحادي والعشرين. حيث إن والده وكعادة أهل البادية تزوج عدة مرات وبلغ عدد من تزوجهن ١٣ زوجة، وكانت والدة أسامة هي الزوجة الأخيرة لوالده محمد بن لادن المقاول المشهور الذي عُهد إليه بأعمال إنشاء وترميم وصيانة القصور الملكية بالرياض ومشروعات شق الطرق، وتنفيذ مشروع توسعة المسجد النبوي الشريف في عهد الملك عبد العزيز، والعمل في مشروع توسعة المسجد الحرام في عهدي الراحلين الملك سعود والملك فيصل، وسبق ذلك قيامه بتجديد وبناء قبة الصخرة في منطقة الحرم القدسي الشريف. وفي عام ١٩٦٩ تكفل بإعادة بناء المسجد الأقصى بعد تعرضه للحريق ولذلك يقول آل بن لادن إنهم تشرفوا ببناء المساجد الثلاثة.

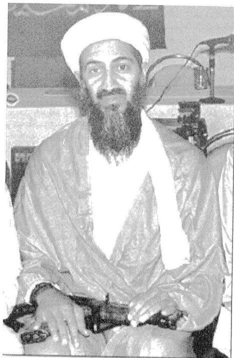
هذا وتمتلك عائلة بن لادن مجموعة بن لادن العالمية وما ينبثق عنها من شركات، وللمجموعة ثلاثة مقار رئيسية في واشنطن ونيويورك وهوستن، وللعائلة علاقات قوية مع الولايات المتحدة وتلقى معظم أبنائها تعليمهم هناك في جامعتي هارفارد وهوستن، وذلك إلى جانب فروع أخرى في باريس ولندن وغيرها من مدن العالم. وعائلة بن لادن بالغة الثراء وتزيد استثماراتها عن ٢٠ مليار دولار في مختلف أنحاء العالم. وتتصف عائلة بن لادن بطابعها الديني المتفاوت الحدة حيث يعرف عن طارق بن لادن أنه من الشخصيات الإسلامية المعتدلة، وكذلك الوضع بالنسبة ليحيى بن لادن مدير مجموعات بن لادن والرجل الثاني فيها بعد بكر بن لادن، وأيضا الاقتصادي حيدر بن لادن عضو

مجلس إدارة بنك فيصل الإسلامي والذى يحتفظ بعلاقات قوية مع الأمير السعودى محمد بن فيصل. كما تلتزم بنات بن لادن بالتقاليد الدينية المحافظة وقد تلقين تعليمهن فى الغرب، ومنهن الطبيبة رفا لادن التى درست علم النفس، ورائدا لادن التى حصلت على بكالوريوس الطب من جامعة القاهرة وتزوجت من عالم جيولوجيا ومعادن سعودى، ومنى زوجة رجل الأعمال المصرى عبد اللطيف الشريف صاحب مصانع الشريف للبلاستيك.

وقد تلقى أسامة بن لادن دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية فى جدة، ودرس فى الجامعة علم الإدارة العامة. وبدأ اطلاعه على التيارات الإسلامية المشهورة وأنشطتها فى وقت مبكر أثناء دراسته وتعرف على كثير من الشخصيات الإسلامية الذين كان والده يستضيفهم من بين الحجاج كل عام، وهو الأمر الذى انعكس على تفكيره إلا أنه تأثر بشكل خاص أثناء دراسته فى الجامعة بشخصية كل من أستاذيه محمد قطب الكاتب والفيلسوف والشيخ عبد الله عزام الذى أصبح فيما بعد شخصية مهمة فى أفغانستان. كما انضم أسامة فى المدرسة والجامعة إلى الإخوان المسلمين وإن ظل حتى هذا الوقت مهتما بدراسته وتعليمه مع تدين غير متشدد.

ويُجمع معظم الذين عرفوا أسامة بن لادن على أنه نشأ نشأة صالحة سواء من حيث الالتزام بفروض الإسلام أو من حيث الأخلاق والأدب العام. كما أنه تعود من خلال تربية والده على المسئولية والثقة بالنفس والكرم والتواضع. وعرف عنه بين أتباعه وخلال فترة الجهاد فى أفغانستان أنه صبور ويتحمل الصعاب. وقد تمتع بقدرة قيادية واضحة ويوصف بأنه على درجة عالية من الذكاء والثقة بالنفس ودقة الملاحظة والبديهية والتريث فى الحكم على الأمور، وميله لاستشارة من حوله من العلماء .

وتتجلى طبيعة بن لادن الحذرة فى حرصه على الأخذ بالاحتياطات الأمنية الواجبة، ويذكر عنه أنه لا يسمح بوجود أى آلة إلكترونية فى المكان الذى يقيم فيه حتى لو كانت ساعة كهربائية لأن ذلك قد يساعد فى الاستدلال على موقعه، كما أن لديه فريقه الأمنى الخاص به، وعندما تحول إلى شخص مطلوب القبض عليه من جهات عدة أصبح لا يثق إلا بالمجموعة التى يعرفها جيدا. وإلى جانب هذه الصفات يحمل بن لادن بعضا من السمات المتناقضة إلى حد ما حيث يتسم بالعاطفة والرقة من جانب، والشدة والعناد من جانب آخر. وقد تزوج أسامة أول مرة فى سن مبكرة حين كان عمره سبعة عشر عاما تقريبا، واليوم لديه أربع زوجات. أما أبناء وبنات أسامة فربما يتجاوز عددهم العشرين، ولأسامة سياسة صارمة فى تربية الأبناء والبنات، فالأبناء لابد لهم من إتقان الفروسية ولابد من تعريضهم لخشونة العيش، والبنات لهن القرآن والعلم الشرعى.



أسامة بن لادن ـ لا يفارقه سلاحه

وقد تعرض بن لادن في حياته لصدمتين ماليتين أثرتا على قدرته الاقتصادية بشكل كبير. الأولى عندما قررت الحكومة السعودية تجميد أمواله المعروفة والثابتة وتتراوح قيمتها ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مليون دولار. والثانية عندما عجزت الحكومة السودانية عن دفع تكاليف المشاريع التي نفذها بن لادن والتي كان أشهرها طريق التحدي الذي يربط مدينة بورسودان بالخرطوم ويبدوا أن بن لادن لم ينجح في الحصول على أكثر من ١٠% من إجمالي مستحقاته عند الحكومة السودانية وكانت قد وصلت إلى حوالي ٢٠٠ مليون دولار تقريبا.

ومع دخول أسامة بن لادن مرحلة الصراع المكشوف مع الولايات المتحدة أصبحت الأوضاع غير مواتية لنجاح أي نشاط اقتصادي، وقد أكدت الاستخبارات الأمريكية بعد ١١ سبتمبر أن بن لادن يسعى إلى تحويل جزء من أمواله إلى حسابات مصرفية في باكستان وأفغانستان والشرق الأوسط، واستندت في ذلك إلى معلومات الوحدة الخاصة المشتركة لمكافحة الإرهاب والمكونة من ممثلين لجميع وكالات الاستخبارات الأمريكية، وقد أنشأت هذه الوحدة خصيصا لمتابعة بن لادن عقب تفجير سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا، وقامت فور إنشائها بإجراء تحقيقات شملت ٢٥ دولة من بينها الولايات المتحدة في محاولة لتفكيك الشبكة المالية لبن لادن وتنظيم القاعدة.

الخلفية الفكرية

بشكل عام لم يكن بن لادن مختلفا عن العديد من الشباب الملتزم في الجزيرة العربية وفي السعودية تحديدا من أتباع علماء الصحوة وممن يؤمنون بالمنهج السلفي الذي أسس معالمه الشيخ محمد بن عبد الوهّاب في القرن الثامن عشر، والذي دعا فيه إلى الاعتماد على الدليل الشرعي – القرآن والسنة - واحترام كلام العلماء، ورفض تكفير المجتمع برغم ميل بعض الجماعات إلى ذلك وكان يرى معظم الأنظمة الحاكمة غير شرعية إلا أنه تجنب تكفير الحكام أو المسئولين في الدولة. كما أكسبته طول الإقامة في أفغانستان طابعا صوفيا وتعلّم ضرورة الموازنة بين ما يعتقد أنه من البدع وبين حقائق الواقع الاجتماعي والسياسي. وينظر إلى أسامة بن لادن على أنه أحد إفرازات الحركة الإسلامية المعاصرة التي تأسست في مصر خلال عشرينات القرن الماضي مع ظهور حركة الإخوان المسلمين وخروج كثير من الحركات الإسلامية المتطرفة على مستوى العالم من تحت عباءتها.

ولقد تأثر أسامه خلال حياته الحافلة بثلاثة شخصيات رئيسية ارتبط كل منها بمرحلة معينة. تأثر بعبد الله عزام أستاذه السابق أثناء مرحلة الجهاد في أفغانستان ضد الاحتلال السوفييتي ، ثم ارتبط أثناء وجوده في السودان بأفكار حسن الترابي التي تحث

على استهداف المصالح الأمريكية، ثم تأثر بعد عودته مرة أخرى إلى أفغانستان بأيمن الظواهري ودعوته إلى توسيع ساحة الجهاد إلى العالم كله والوقوف في وجه التحالف الصليبي اليهودي المعادي للإسلام.

وعبد الله عزام هو أحد كوادر الجهاد الفلسطيني. درس بالقاهرة بجامعة الأزهر وحصل منها على الماجستير في أصول الفقه عام ١٩٦٩، وتعمقت لديه في تلك الفترة القناعة في الحل الجهادي الإسلامي كوسيلة للتغيير. وقد سافر بعد ذلك إلى الأردن حيث عمل بجامعة عمان ثم عاد إلى القاهرة مرة أخرى لمتابعة دراساته العليا وللحصول على الدكتوراه عام ١٩٧١ وقد ظل في مصر برفقة عائلته حتى حصل على الدكتوراه عام ١٩٧٣ في أصول الفقه بمرتبة الشرف. وكأستاذ موهوب أضحى الأب الروحي لأسامة بن لادن وهو الذي صاغ فكره وشكله في المرحلة الأولى، كما مثل الصلة التي ربطت بين بن لادن والظواهري وأتاحت بذلك استمرار العمل والتخطيط المشترك بينهم خاصة بعد اغتيال عزام في ١٩٨٩.

أما حسن الترابي فكان قد وصل إلى قمة السلطة السياسية والروحية في السودان عندما توجه إليها أسامة بن لادن في نهاية ١٩٩١. وكان الترابي برغم دراسته في الغرب مؤمنا بتوجيه الثورة الإسلامية ضد الولايات المتحدة بوصفها العدو الأول للأمة الإسلامية، وهي الفكرة التي استطاع أن يقنع بها بن لادن خلال إقامته في السودان. ونتيجة لذلك جعل بن لادن من السودان بؤرة للمجاهدين العائدين من أفغانستان، واهتم بتنظيمهم كراس حربة للثورة الإسلامية في أنحاء العالم، وبدأ في توجيههم للقيام بعمليات عسكرية لترويع القوات الأمريكية في الصومال، من خلال عمليات اختطاف الجنود وشن عمليات انتحارية ضد أهداف أمريكية أدت إلى إجبار الولايات المتحدة على الانسحاب من الصومال في عام ١٩٩٤. وقد أسهمت تلك الفترة في ظهور دور بن لادن كقائد بارز في مجال العمل الإسلامي المسلح حيث تجلت قدراته على تنظيم المجاهدين، وشن حروب صامتة ضد الحكومات باستخدام الوسائل السرية والقنوات العلنية مثل المؤسسات التعليمية والخيرية التي عمل على نشرها في دول كثيرة.

أما الشخصية صاحبة التأثير الأكبر بعد ذلك على أسامة بن لادن فهي شخصية أيمن الظواهري، الذي على ما يبدو قد ملأ فراغا كان يعانيه أسامة بن لادن في حياته، حتى إنه حين اعتقل الظواهري في القاهرة عام ١٩٩٦ كان بن لادن هو الذي دفع الكفالة لإخلاء سبيله. ويتشابه أيمن الظواهري مع بن لادن في بعض الصفات الأساسية من حيث النشأة في أسرة ملتزمة دينيا، تتمتع بدرجة ما من الثراء والاستقرار والوضع الاجتماعي المرموق. إلى جانب الصفات الشخصية المشتركة من الانطواء وقلة الكلام والاهتمام بالشعر، وعلاقتهما المشتركة بعبد الله عزام. وكان للظواهري الفضل في توسيع نظرة بن لادن للقضية الإسلامية لتشمل العالم كله وليس الجزيرة العربية أو

العالم الإسلامي فقط، وأثمر ذلك على المستوى الميداني في الدعوة للتحول من استهداف الوجود الأمريكي في الجزيرة العربية إلى استهداف الأمريكيين في العالم.

هذا ورغم وجود العديد من الكتابات للظواهري مثل الحصاد المر والكتاب الأسود إلا أننا يمكن أن نقترب من أفكاره في مرحلة أحدث من خلال كتابه الذي نشر على حلقات في جريدة الشرق الأوسط في ديسمبر ٢٠٠١ بعنوان "فرسان تحت راية النبي". وفيه صنف الظواهري نفسه باعتباره منتميا إلى الخلية الجهادية التي تشكلت بعد إعدام سيد قطب في مصر ، معتبرا إياه الأب الروحي للجماعات الأصولية، وأن كتابه "معالم في الطريق" هو دستور هذه الحركات. وأكد في تصنيفه لمرحلة الجهاد الحالية بأنها "عالمية المعركة بعد أن توحدت قوى الكفر ضد فئات المجاهدين". وفي الحلقة الأخيرة بتاريخ ١٢ ديسمبر – والتي كان قد كتبها قبل أحداث ١١ سبتمبر – عبر الظواهري عن مجموعة من الأفكار تعد بمثابة توضيح لاستراتيجية العمل التي نفذت بالفعل فيما بعد، حيث أكد على أهمية العمليات الانتحارية باعتبارها "أنجح الأساليب في النكاية بالخصم وأقلها خسائر بالنسبة للأصوليين". كما أكد أنه "يجب اختيار الأهداف ونوع السلاح بحيث تؤثر على مفاصل بنيان العدو، وتردعه ردعا يكفه عن بطشه". وطالب الظواهري أبناء الحركات الأصولية بـ"الحرص على إحداث أكبر الخسائر في الخصم وإنزال أضخم إصابات بين أفراده لأن هذه هي اللغة التي يفهمها الغرب مهما تكلف إعداد هذه العمليات من وقت وجهد". والأهم من ذلك أنه تحدث عن موقع العمليات وطالب بنقلها إلى أرض العدو واعتبر هذا الأمر هدفا أساسيا للحركة الأصولية. كما طالب بضرورة وجود دولة أصولية بالمنطقة في قلب العالم الإسلامي.

ومن هنا يتضح أن واقع تطور العمليات التي قام بها بن لادن قد ارتبط في جوهره بفكر أيمن الظواهري حول الجهاد، وتنظر الولايات المتحدة إلى الظواهري وغيره من المصريين الذين أحاطوا بن لادن على أنهم العقول المسئولة عن تخطيط العمليات العسكرية الأخيرة ضدها، وهو نفس الرأي الذي أشارت إليه بعض مصادر الأصوليين في لندن من أن الظواهري يبدو وكأنه القائد، وأنه هو المسئول عن زرع ذلك العداء المستحكم في قلب بن لادن ضد الولايات المتحدة والغرب.

العلاقة مع أمريكا

يحيط العلاقة بين أسامة بن لادن والولايات المتحدة جدل كبير فهناك من يرى في أسامة عميلا للأمريكان بعد أن عمل أثناء الاحتلال السوفييتي لأفغانستان ، وهناك من يرى أن كلا من الولايات المتحدة وأسامة بن لادن قد حاول أن يستخدم الآخر طبقا للظروف المحيطة. وقد أكد الظواهري في كتابه "فرسان تحت راية النبي": "أن أمريكا لم تدعم المجاهدين بقرش واحد"، واستشهد بقول بن لادن بأن الدعم الشعبي

للأفغان بلغ ٢٠٠ مليون دولار خلال عشر سنوات، وأنه إذا كان المجاهدون مرتزقة فلماذا لا تدفع لهم الولايات المتحدة الآن أفضل.

إلا أن هذا الأمر يتعارض مع الكثير من الحقائق المعروفة عن صلة بن لادن بالولايات المتحدة خاصة علاقته بالمخابرات الأمريكية ودورها المساند سياسيا وعسكريا وماليا للمجاهدين الأفغان والعرب ضد الاحتلال السوفيتي. وقد تعاونت جماعات أفغانية بصورة مباشرة مع الولايات المتحدة مثل جماعة مجددي وجيلاني، بينما حصلت جماعات أخرى مثل رباني وحكمتيار وسياف على دعم أمريكي غير مباشر سواء عن طريق باكستان أو السعودية.

وفي دراسة للراحل إقبال أحمد عنوانها "إرهابهم وإرهابنا" يذكر أنه التقى بن لادن عام ١٩٨٦ بناء على نصيحة مسئول أمريكي - يشك أنه من المخابرات الأمريكية - وكان انطباعه بعد المقابلة أن بن لادن حليف لأمريكا. ويكثر المحللون الغربيون خاصة ويتبعهم بعض العرب من ترديد أنه أسامة بن لادن قد غيَّر تحالفاته بعد ١٩٩٠ عندما حضر الأمريكيون إلى الجزيرة العربية وهو قول يشوبه التناقض فكيف يتعاون بن لادن مع الأمريكيين في باكستان وأفغانستان إبان الحرب ضد السوفيت، وفي الوقت نفسه يطالب بإخراجهم من الجزيرة بعد ذلك؟ ولماذا لم يمتنع عن التعاون منذ البداية مع بلد كافر مثل الولايات المتحدة كما يقول لتحرير بلد مسلم؟ وهو الأمر الذي دعاه إلى القول بأن أسامة بن لادن وجماعته لا يحملون مشروعا، أو أن ما يحملونه هو مشروع قروسطي- نسبة للقرون الوسطى- لا يناسب العصر الذي نعيش فيه. ومن الملاحظ في هذا الإطار أن أسامة يتعاون مع شخصيات أجنبية وخاصة من الأمريكيين وكان يعتمد عليهم في شركاته ومشروعاته التي كان ينفذها.

من الجهاد إلى الإرهاب

شهدت مسيرة بن لادن العديد من المحطات الهامة لعل أهمها علاقته بالجماعات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي وكانت قد بدأت في عام ١٩٧٣ واستمرت في التنامي حتى ظهرت حركة الجهاد الإسلامي في أفغانستان. وقد وقف بن لادن في بداية الثمانينات مع الفصائل الإسلامية المناوئة للحزب الحاكم جنوب اليمن، وتعاون معها مرة أخرى حتى تمت الإطاحة بالحزب الاشتراكي خلال التسعينات. أما النقطة التي يمكن اعتبارها نقطة تحول أساسية في حياة أسامة بن لادن فكانت في الدور الذي لعبه في أفغانستان من خلال ممارسة دوره سواء كمجاهد نجح في استقطاب العديد من الشباب للدفاع عن أفغانستان المسلمة وتحريرها من السيطرة السوفيتية، أو كإرهابي مطلوب للعديد من الجرائم التي ارتكبها هو وأتباعه في أنحاء العالم.

الجهاد فى أفغانستان

بدأ اتصال بن لادن بأفغانستان مبكرا وكان من مظاهر اهتمامه بما يحدث فيها أنه قام بزيارتها ٢٦ ديسمبر ١٩٧٩ بعد الغزو السوفييتي لها بأيام قليلة وكان هدف الزيارة، المشاركة فى دعم المجاهدين الأفغان ومحاولة استكشاف حقائق الوضع هناك. وقد تم ترتيب الرحلة من خلال الجماعة الإسلامية الباكستانية التى نظمت له التوجه من كراتشى إلى بيشاور حيث قابل بن لادن كل من ربانى وسياف وغيرهم من قيادات المجاهدين. ولقد سعى بن لادن من البداية إلى الإبقاء على خبر هذه الرحلة طى الكتمان على أساس أن الأوضاع فى أفغانستان لم تكن واضحة بعد، وأنه لم يكن قد حدد موقفه بشكل نهائى. ويبدو أن علاقة بن لادن بأفغانستان أقدم من ذلك، وأنها بنيت على علاقة سابقة لوالده مع سياف وربانى اللذين كانا يحضران إلى الحج فى ضيافة والده، وأن زيارته إلى أفغانستان جاءت فى محاولة منه للتعرف على حقيقة الأوضاع التى سمع عنها كثيرا وخاصة فيما يتعلق بالعدوان السوفيتى ضد المسلمين فى أفغانستان.

ومع نهاية الرحلة التى استمرت لمدة شهر اقتنع بن لادن بأهمية القضية وعمد فور عودته إلى المملكة إلى الإعلان عن رحلته وما شهده فيها، وسعى إلى جمع تبرعات للمجاهدين وقد أسفر هذا التحرك عن كمية هائلة من التبرعات المالية والعينية التى حملها بن لادن فى رحلة أخرى إلى باكستان. وتكررت رحلات بن لادن إلى أفغانستان محملا بالتبرعات دون أن يدخل إلى أفغانستان نفسها مكتفيا بدخول المعسكرات الأفغانية خارجها. وبداية من الثمانينات مارس بن لادن دورا نشيطا فى المعركة ضد الاتحاد السوفيتى، واستطاع خلال فترة وجيزة أن يكون أحد قادة الأفغان العرب المتطوعين هناك، وقد حظيت هذه القوات فى تلك الفترة بدعم سخى من الولايات المتحدة والسعودية، وبغطاء من المخابرات الباكستانية.

وفى عام ١٩٨٢ قرر بن لادن الدخول إلى أفغانستان والمشاركة فى الجهاد من الداخل، وحاول الاستفادة من طبيعة خبرته فى مجال المقاولات فأخذ معه عددا هائلا من المعدات والجرارات والحفارات، بهدف مساعدة المجاهدين على تمهيد الجبال وشق الطرق إدراكا منه لطبيعة البلاد الجبلية. ونتيجة لزيارات أسامة المتكررة وحملة العلاقات العامة التى كان يقوم بها لجمع التبرعات للمجاهدين توجهت أعداد محدودة من أهل الجزيرة العربية إلى أفغانستان قبل أن تتحول الأوضاع هناك إلى قضية إسلامية عامة. وقام خلال تلك الفترة بتأسيس "قاعدة مساعدات الأنصار" كمقر للمجاهدين العرب فى أفغانستان. وفى عام ١٩٨٤ ظهر أول نموذج لعمل مؤسسى يمثل جهاد العرب فى أفغانستان وهو بيت الأنصار فى بيشاور كنزل أولى أو محطة استقبال

مؤقتة للقادمين قبل توجههم للتدريب ثم الانخراط في الجهاد وقد شارك بن لادن الشيخ الدكتور عبد الله عزام في تأسيس هذا البيت.

وتزامن تأسيس بيت الأنصار مع تأسيس الشيخ عبد الله عزام لمكتب الخدمات في بيشاور. ولقد أدى تأسيس المكتب إلى نوع من التكامل مع بيت الأنصار ففي حين تولى مكتب الخدمات المهمة الإعلامية ومهمة جمع التبرعات وحث المسلمين عامة والعرب خاصة على الجهاد بالنفس والمال، قام بيت الأنصار بتولي مهمة استقبال المتطوعين للجهاد أو مجرد الاطلاع على أوضاع الأفغان في أفغانستان.

ورغم توثق علاقة بن لادن بالشيخ عبد الله عزام إلا أن كلا منهما رأى أنه ليس من المصلحة القيام بدمج عملهما معا وضرورة تعدد الواجهات مع التنسيق الجيد. لكن الأوضاع أخذت مسارا آخر في ١٩٨٦ عندما قرر بن لادن أن يتوسع في تنظيم العملية الجهادية وأن تكون له معسكراته وخطوط إمداده وجهازه الخاص وبنيته التحتية من معسكرات ومخازن ونظم للإمداد والاتصال، ولم تكن له مجموعات قتالية خاصة به بل كان يرسل الشباب القادمين للجهاد إلى أحد الأحزاب المقاتلة من أتباع حكمتيار وسياف ورباني. وقام بن لادن بتشييد ستة معسكرات تدريب واستطاع من خلال خبرته في الإنشاءات التمكن من نقلها وتحريكها من مكان إلى آخر أكثر من مرة وفقا لظروف الحرب.

ونتيجة لتوفر البنية التحتية تزايدت أعداد القادمين إلى بيت الأنصار والمعسكرات للجهاد من أنحاء العالم العربي، واستطاع المجاهدون العرب تحقيق انتصارات هامة على القوات السوفيتية، ودخلوا معارك هامة أشهرها معركة جاجي في نهاية عام ١٩٨٦ التي هزموا فيها وحدات سوفيتية مدربة تدريبا راقيا. وخلال الفترة من عام ١٩٨٦ إلى عام ١٩٨٩ دخل المجاهدون العرب في خمسة معارك كبرى مع السوفييت ناهيك عن مئات من المواجهات والمناوشات الصغيرة. وكانت تلك الفترة من أقوى فترات المجاهدين بسبب توفر الفرصة أمامهم للقتال دون مضايقات من حكام المملكة أو الحكومة الباكستانية. ولم يكن بن لادن يعود إلى الملكة إلا قليلا بينما يقضي معظم أيام السنة في أفغانستان جهادا وتدريبا وإشرافا على المجاهدين، كما شارك بنفسه في معارك هامة ضد القوات السوفييتية.

مع أيمن الظواهري

من الأحداث المهمة في مسيرة أسامة بن لادن لقاؤه مع أيمن الظواهري في عام ١٩٨٧ ومن تلك اللحظة بدأ الظواهري في تشكيل فكر وعقلية بن لادن عن العمل المسلح والمليشيات الإسلامية المسلحة. ونتيجة لهذا اللقاء تحول بن لادن من مجرد

ممول للمعارضة والكفاح ضد الاحتلال بالمال ومعسكرات التدريب إلى الإيمان بعقيدة الجهاد والحرب المقدسة ضد أعداء الإسلام. وفى عام ١٩٨٨ قام بن لادن ومعاونوه بتأسيس ما أسماه سجل القاعدة. وقد نبعت فكرة القاعدة عندما لاحظ بن لادن أن حركة المجاهدين العرب قدوما وذهابا والتحاقا بالجبهات، إلى جانب المعلومات الخاصة بهم نتيجة المعارك من إصابات أو وفيات لا يوجد لها سجل واضح ، وكان سؤال أهالى المجاهدين عن ذويهم لا يجد جوابا شافيا ويتسبب فى الكثير من المعاناة. واتسعت السجلات بعد ذلك لتشمل تفاصيل كاملة عن كل المجاهدين الذين وصلوا إلى أفغانستان منذ وصولهم إلى بيت الأنصار والتحاقهم بمعسكرات التدريب ثم اشتراكهم فى جبهة القتال وبالتالى جاءت تسميتها بسجل القاعدة على أساس أنها تتضمن كل التركيبة المؤلفة من بيت الأنصار ومعسكرات التدريب والجبهات.

وقد استمر استعمال كلمة القاعدة من قِبَل المجموعة العاملة مع بن لادن، وتم استخدامها على المستوى الدولى باعتبارها اسم لتنظيم إرهابى يهدف إلى الإطاحة بحكومات الدول الإسلامية الراديكالية، وأنه معادٍ للغرب، ويعتبر الولايات المتحدة تحديدا العدو الأول للمسلمين وبالتالى يجب على كل مسلم حمل السلاح ضدها. وبهذا تحول الحديث عن القاعدة إلى اعتبارها تنظيما إسلاميا مقاتلا يختلف عن التنظيمات الأخرى القائمة فى أفغانستان. فبينما قصرت تلك التنظيمات دورها على الحرب ضد القوات السوفيتية، وسعت القاعدة هذا الدور ليشمل العالم الإسلامى بل دول العالم أجمع.

العودة للسعودية

بعد الانسحاب السوفيتى من أفغانستان عام ١٩٨٩ عاد أسامة بن لادن إلى السعودية. ولكنه مُنِع من مغادرة المملكة وهو الأمر الذى فسره بن لادن على أنه جزء من حسابات وتوازنات القوى على أثر الانسحاب السوفيتى من أفغانستان. إلا أن السبب المباشر ارتبط بحقيقة الدور الذى سعى بن لادن لتنفيذه، وهو فتح جبهة جديدة للجهاد ضد اليمن الجنوبى على أن تنطلق هذه الحركة الجهادية من داخل أراضى المملكة واليمن الشمالى. ويضاف إلى ذلك تسببه فى إحراج المملكة من خلال إصراره على إلقاء محاضرات عن خطورة النظام العراقى وتنبؤه بنوايا صدام فى غزو الخليج، فى الوقت الذى كان النظام العراقى يُعتبر أقوى أصدقاء المملكة، وفى توقيت تالٍ لزيارة قام بها الملك فهد للعراق. وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى قيام وزارة الداخلية بمنعه من السفر وتوجيه تحذير إليه بعدم ممارسة أى نشاط علنى، وهو الأمر الذى رد عليه بن لادن كتابة برسالة نصائح عامة وخاصة للدولة سلمت عن طريق أحد أخواته إلى الأمير أحمد بن عبد العزيز، وقد تضمنت النصائح العامة المطالبة بإصلاح شامل فى

المملكة، أما النصائح الخاصة فكانت تكرارا لما ردده من توقعات حول أطماع صدام حسين في المنطقة.

ومن ناحية أخرى شهد عام ١٩٨٩ انتصار المجاهدين على القوات السوفيتية واندفاعهم بحماسة هذا النصر إلى دعوة تغيير الحكومات العربية والأخذ بالشريعة الإسلامية. وقد عبر عن ذلك بوضوح ما ذكره عبد الله إناس شريك بن لادن في حرب أفغانستان ورئيس تنظيم إسلامي جزائري مدعوم من بن لادن حين قال: "إن ما بدأ في أفغانستان كحرب ضد الاتحاد السوفيتي قد أصبح اليوم جهادا عالميا". وقد أدى ذلك بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية في الدول العربية إلى تغذية النزعات المتطرفة، وشهدت هذه الفترة حربا عسكرية ضد رموز النظام الحاكم في كل من الجزائر ومصر بسبب رفض هذه الجماعات لعلاقة تلك الدول بالغرب وشهدت تلك البلاد هجمات إرهابية ضد السياح الأجانب والصحفيين. واتهم أيمن الضواهري بأنه وراء التخطيط لهذه العمليات وصدر عليه حكم بالإعدام. وفي الجزائر دخلت الأوضاع في صورة حرب أهلية استمرت عشر سنوات قتل خلالها أكثر من مائتى ألف قتيل.

أما غزو العراق للكويت وما تلاه من تحركات في الخليج فقد مثل نقطة تحول هامة بالنسبة لمخططات أسامة بن لادن حيث ساءت علاقته بالنظام السعودي خاصة مع عدم التزامه بالقيود المفروضة عليه من قِبَل النظام. وأثار غضبه استدعاء القوات الأمريكية إلى السعودية، وقام بتوجيه رسالة إلى الدولة يعرض فيها وجهة نظره حول الطريقة المثلى لحماية البلد من الخطر العراقي، مقدما مجموعة من الاقتراحات بهدف تعبئة الأمة ضد هذا الخطر، وأضاف عَرْضا بجلب كل المجاهدين العرب الذين يستعدون له للمساهمة في عملية الدفاع هذه، وقد ردت الدولة بأنها سوف تنظر في الأمر، لكن السعودية قررت في النهاية استدعاء القوات الأمريكية للدفاع عنها. مَثَّل حدث استدعاء القوات الأمريكية نقطة تحول بالنسبة لبن لادن ووصف لحظة سماعه للخبر بأنها أكبر صدمة في حياته، لأنها بتقديره المرة الأولى منذ البعثة النبوية التي يهيمن فيها الكفار بقواتهم العسكرية على جزيرة العرب.

وسعى بن لادن إلى التحرك في اتجاهين: الأول هو استخراج فتوى بوجوب الاستعداد للقتال على كل مسلم وخاصة أهل الجزيرة العربية وقد أفتى الشيخ بن عثيمين بذلك، واستخدم بن لادن هذه الفتوى لحث الشباب على الجهاد وأدى ذلك لتوجه الكثير منهم بالفعل إلى معسكرات التدريب في أفغانستان؛ أما الاتجاه الثاني فتمثل في محاولة جمع أكبر عدد من العلماء في مؤسسة شرعية مستقلة غير مؤسسة هيئة كبار العلماء التي نظر إليها باعتبارها أداة في يد الدولة إلا ان هذا التحرك لم يثمر. وقد خضع بن لادن خلال هذه الفترة لرقابة الأمن السعودي، ولكنه سعى من جانبه لتجاوز القيود

المفروضة عليه بمنعه من السفر ونجح فى إقناع جهات الأمن السعودية بحاجته إلى مغادرة البلاد لفترة معينة يعود بعدها إلى المملكة.

محطة باكستان

أدت التطورات التى شهدتها المملكة العربية السعودية مع بداية التسعينات إلى مغادرة بن لادن للمملكة نهائيا فى عام ١٩٩١ ورفض العودة إليها مرة أخرى رغم دعوة الحكومة السعودية له بالعودة. وبعد قضائه فترة فى باكستان أدرك بن لادن أن وجوده فيها لن يكون آمنا بسبب التعاون الأمنى السعودى الباكستانى، وهو الأمر الذى دفعه للإسراع فى التوجه إلى أفغانستان مرة أخرى. وفى هذه المرة تزامن دخول بن لادن أفغانستان مع انهيار النظام الشيوعى وسقوط كابول وبداية الصراع بين الفصائل الأفغانية. وكنتيجة لهذه الأوضاع تحرك بن لادن فى اتجاهين هما: إصدار توجيه للشباب العربى بعدم التورط فى الصراع الدائر ورفض الميل لأى من الجهات المتصارعة أو التحيز لها وهو الموقف الذى استمر حتى دخول طالبان كابول حيث قرر بن لادن مساندتها. أما الخطوة الأخرى التى اتخذها بن لادن فكانت الدخول بقوة فى محاولة الإصلاح بين الفصائل ولكنه لم يستطع إحراز نتيجة فعلية. وخلال هذه الفترة تعرض بن لادن للعديد من محاولات القتل والاختطاف التى فشلت نتيجة لتعاطف جهاز الأمن الباكستانى معه. ولذلك وبعد بقائه لعدة أشهر فى أفغانستان قرر بن لادن ضرورة مغادرتها والبحث عن مكان آخر.

الانتقال إلى السودان

تزامنت رغبة أسامة بن لادن فى مغادرة أفغانستان مع الانقلاب الذى نفذه عمر البشير فى السودان، وكان البشير خاضعا تماما لقيادة وإرشاد الشيخ حسن الترابى زعيم الحركة الإسلامية. وسمع بن لادن عن حماس الدولة السودانية للإسلام وأنها فى الطريق لأن تكون قاعدة مشروع إسلامى جديد فقرر التوجه إليها. وفى نهاية ١٩٩١ توجه بن لادن بطائرة خاصة ومعه عدد قليل من الرفاق إلى السودان حيث أحسنت الحكومة السودانية وفادته، واستطاع نقل جزء من أرصدته ومعداته من المملكة إلى السودان مما مكنه من المساهمة فى مشاريع طرق وإنشاءات ومزارع وكان أشهرها طريق التحدى من الخرطوم إلى بورسودان. ورأى البعض فى نشاط بن لادن فى السودان محاولة للقيام بدور تنموى وتعميرى مثل دور والده فى السعودية.

واستطاع بن لادن خلال فترة وجوده فى السودان ونتيجة لعدم إثارته لأية سياسات عدائية ضد المملكة السعودية أن يحصل على دعم الكثير من مواطنى الجزيرة العربية لصالح السودان، كما تكررت دعوته للعودة إلى المملكة إلا أنه لم يقبل. ومع نهاية عام

١٩٩٢ بدأ الاهتمام ببن لادن يزداد حين صدر أمر بتجميد أمواله فى المملكة وتحولت قضية أسامة بن لادن إلى قضية ساخنة على جدول أعمال المخابرات الأمريكية وأصبحت مثارة باستمرار بين الأمريكيين والسلطات السعودية. كما اعتبر بن لادن خلال هذه الفترة مقصد الكثير من رواد الحركة الإسلامية، وظل على صلة بالتجار والعلماء السعوديين وبكثير من زملائه القدامى فى الجهاد، كما نجح بن لادن أن يقيم قاعدة واسعة من التنظيمات الإسلامية المسلحة فى العديد من الدول العربية والإسلامية خلال فترة وجيزة.

وفى تلك الفترة حدث تطوران هامان تم ربطهم بأسامة بن لادن وهما: أحداث الصومال واليمن، وانفجار الرياض. وفى أحداث الصومال لعب فصيل صغير من الذين تدربوا سابقا فى أفغانستان دورا واضحا فى العمليات ضد الأمريكان، أما فى اليمن فقد تم اتهام أسامة بن لادن بالتآمر على قتل عدد من الجنود الأمريكيين كانوا فى طريقهم إلى الصومال أثناء وجودهم فى أحد فنادق عدن وهو الأمر الذى تكتمته كل من الدولتين. وكان أن افتخر بن لادن بهذه العمليات، وأعرب عن سعادته بأنها تمت ضد مصالح أمريكية فى هذه الأماكن دون أن ينسبها إلى نفسه. أما انفجار الرياض فقد أشارت الدلائل إلى أن المجموعة الصغيرة التى قامت به على علاقة ببن لادن، ولم ينكر بن لادن العلاقة كما لم ينكر تأييده للعمل لكنه أيضا لم ينسبه لنفسه بشكل علنى.

ومع تصاعد نشاط بن لادن ضد المصالح الأمريكية أصبحت إقامته فى السودان مصدر إحراج لها، وتعرضت الحكومة السودانية لضغوط متصلة سواء من الولايات المتحدة أو بعض الدول العربية لإخراجه أو تسليمه. وتراكمت المشاكل بسبب بن لادن فى أعقاب حملة التفجيرات ضد الأهداف الأمريكية فى السعودية واتجه الاتهام لتنظيم القاعدة، وبعد ان تأكدت مسئولية بن لادن عن المحاولة الفاشلة لتفجير برجى التجارة العالمى فى نيويورك عام ١٩٩٣، وأيضا بعد أن قامت مجموعة تابعة لبن لادن بمحاولة اغتيال الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك فى أديس أبابا بأثيوبيا عام ١٩٩٥. ولم يكن هناك مفر من أن يطلب النظام السودانى من أسامة مغادرة البلاد ومعه الأفغان العرب الذين جاءوا معه.

أفغانستان مرة أخرى

بعد أن تأكد أسامة بن لادن من وجود مكان آمن لاستقباله غادر السودان فى طائرة خاصة مع عدد قليل من أنصاره عائدا إلى أفغانستان. وقد حاول إخوته إرجاعه إلى السعودية، ولم تفلح ضغوط الحكومة السعودية على حركة طالبان لتسليمه، ووصل الأمر إلى حد طرد ممثل طالبان من المملكة، ثم أعلنت العائلة براءتها منه. وساءت علاقته أكثر مع العائلة عندما اتهمهم بالبذخ والعيش فى رغد المال بعيدا عن منهج الله،

في حين اتهمه إخوته بالانطواء والانحراف الفكري وقالوا إنه تسبب في خسارة شركة بن لادن لأربعين مليون دولار بعد أن عهدوا له بمشروع المنطقة الصناعية في الجبيل. وفي بداية عام ١٩٩٤ ومع يأس المملكة من إعادة بن لادن وتجميد نشاطاته أصدر الملك فهد قرارا بسحب جنسيته.

وتزامن توقيت سحب الجنسية مع تطورات داخل المملكة حظيت باهتمام ومتابعة بن لادن، وتمثلت في تداعيات قضية "لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية" وحملة الاعتقالات على مؤسسيها والمتعاطفين معها، وذلك قبل ان تبدأ اللجنة عملها من لندن. وفي ظل هذه التطورات قام بن لادن في نفس العام بأخذ أول مبادرة معلنة ضد المملكة حين أصدر بيانا يرد فيه بشكل شخصي على قرار سحب الجنسية، وتلا ذلك تحركه العلني بالتعاون مع آخرين من خلال هيئة أسماها "هيئة النصيحة والإصلاح" كهيئة بديلة للجنة الدفاع. وقامت الهيئة بإصدار العديد من البيانات باسمها وافتتحت مكتبا في لندن برئاسة خالد الفواز الذي اعتقل فيما بعد في سياق التحقيقات الجارية عن عملية تفجير سفارتي الولايات المتحدة في كينيا وتنزانيا.

وفي عام ١٩٩٥ قامت جماعة الجهاد الإسلامية المصرية والتي تربطها علاقات بن لادن بتفجير السفارة المصرية في باكستان، وقُتِل في هذه العملية ما يزيد على ٢٠ مصريا وباكستانيا. وبشكل عام تصاعدت عمليات أسامة بن لادن ضد الولايات المتحدة خلال التسعينات، وأعلن مرارا الحرب عليها وأيد قتل مواطنين أمريكيين. واتُّهم بالتآمر على تفجير طائرات أمريكية في الباسيفيك، وقتل البابا. كما اتُّهم أتباعه بتفجير مبنى الجنود الأمريكيين في الرياض عام ١٩٩٥.

وبعد وصول بن لادن لأفغانستان بدأت الأحداث تتابع بقوة بدءاً من انفجار الخُبَر ٢٥ يونيو ١٩٩٦ضد مقر إقامة مشاة البحرية الأمريكية بالمملكة العربية السعودية. وبالرغم أن بن لادن لم يعلن مسئوليته المباشرة عن هذا الحدث إلا أنه أيّده، في حين حرصت السلطات السعودية على ربط الحدث بعناصر شيعية مدعومة من إيران. وربما كان ذلك محاولة للتقليل من شأن بن لادن، ولكن الأمور تغيرت بعد أحداث كينيا وتنزانيا عندما صرح أحد المسئولين السعوديين لوكالة الأنباء الفرنسية بأن سبب قطع العلاقة مع طالبان هو إيواؤها للمطلوبين في انفجار الخبر من المجموعة المصاحبة لبن لادن.

بعد انفجار الخبر جاء تحرك بن لادن الواضح ضد الأمريكان في صورة إعلان حرب أذاعه في أغسطس ١٩٩٦، وأصدره باعتباره إعلان للجهاد من أفغانستان بعنوان "إعلان الجهاد لإخراج الكفار من جزيرة العرب"، وقد صدر الإعلان باسمه شخصيا ولم يحمل اسم هيئة النصيحة والإصلاح. وجاء الإعلان في اثنتى عشرة

صفحة معتبرا أن الوضع الخاص بوجود القوات الكافرة في جزيرة العرب وضع لم يمر على الجزيرة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وجاء فيه: "رسالة من أسامة بن لادن إلى إخوته المسلمين في العالم أجمع وبالأخص في الجزيرة العربية – إعلان الجهاد ضد الأمريكيين المحتلين لبلاد الحرمين المقدسين..اطردوا الكفار من الجزيرة العربية". وفيه حث على القيام بجهود منسقة لقتل الأمركيين وتشجيع آخرين على مهاجمة العدو الأمريكي.

بن لادن وطالبان

منذ اللحظة الأولى لدخول بن لادن إلى أفغانستان سعى إلى إرسال رسائل للفصائل الأفغانية يؤكد فيها التزامه بعدم الدخول في خلافاتهم وصراعاتهم. وقد استمر هذا الوضع حتى سيطرة طالبان على جلال أباد واجتياحها للمناطق التي كان بن لادن يقيم فيها ثم على كابول بدون قتال تقريبا وأصبحت طالبان بذلك أكبر القوى في أفغانستان. ولم ينتظر بن لادن طويلا فسرعان ما أرسل إليه المُلا عمر زعيم طالبان وفدا لمقابلته وطمأنته وإعلانه بموقف الحركة باعتباره ضيفا عليهم، وتعهد المُلا عمر بحمايته. وقدم الوفد لبن لادن طلباً في شكل رجاء بالتوقف عن أي نشاط إعلامي بسبب قيامه بإجراء مقابلة مع محطة سي. إن. إن ومحطة القناة الرابعة البريطانية في تلك الفترة. ومع تسرب أنباء عن محاولة لخطفه تدبرها باكستان ودول أخرى ، اضطر إلى الانتقال إلى قندهار معقل طالبان باعتبارها أكثر أمنا.

وفي قندهار حرص بن لادن على مقابلة المُلا عمر أمير طالبان، حيث تمت المقابلة الأولى بينهما وخلالها رحب به الملا عمر، وعبر له عن سروره باستضافته باعتباره ضيفا عربيا ومجاهدا قاتل في حرب أفغانستان. ومرة أخرى أكد المُلا عمر على طبيعة التحديات التي تواجه طالبان بعد دخول كابول وخاصة مواجهة قوات دوستم، وطلب من بن لادن تخفيف الحملة الإعلامية موضحا أن هذا مجرد طلب وليس أمرا ملزما. وكانت استجابة بن لادن بأنه قرر بالفعل تخفيف أو تجميد نشاطه الإعلامي.

وفي هذه الفترة حدث تطوران أحدهما خاص بحركة طالبان تمثل في اعتراف المملكة العربية السعودية بها وإرسالها دعوات لكل أعضاء حكومة طالبان والمُلا عمر للحج والعمرة، واستضافتهم كضيوف رسميين، وقد توجه بالفعل محمد رباني رئيس الوزراء في حكومة طالبان في زيارة للمملكة لأداء الحج، وهو الأمر الذي نظر إليه البعض باعتباره محاولة لإحراج الحركة والتفاوض حول بن لادن، إلا أن الحركة لم تغير موقفها من بن لادن ورفضت المطالب السعودية التي قُدّمت عبر العديد من الزيارات المتنوعة من قبل دبلوماسيين ورجال أعمال سعوديين وكذلك شخصيات من

عائلة بن لادن. والآخر خاص بموقف بن لادن من الصراع بين الفصائل الأفغانية حيث تخلى عن موقفه الحيادي وأعلن الدخول في المعركة الدائرة بقوة في جانب طالبان ضد دوستم وتوجيه رجاله للقتال مع صفوف طالبان.

ومع دخول شاه مسعود طرفا في الحرب حرص بن لادن – كعادته في الأمور الشائكة – على استصدار فتوى من طلبة العلم المرافقين له بأن قتال مسعود جهاد شرعي، وهو ما ساعد طالبان كثيرا خاصة بالنظر إلى طبيعة التوازنات بين القوى المتصارعة. بدت قوات دوستم التي اعتمدت على الأوزبك وقوات مسعود التي اعتمدت على الطاجيك أكثر تماسكا، وسعى كل منهما إلى إقناع أتباعه بأن طالبان ليسوا إلا بشتون يريدون السيطرة عليهم. ولم ينقطع دعم روسيا وأمريكا وإيران وتركيا لمسعود ودوستم. وبالرغم من ذلك تحقق لطالبان النصر في العديد من المواقع دون قتال بسبب تأييد الناس وتنازل القواد لهم. وكانت فتوى الجهاد والعون الذي قدمه بن لادن في دعم طالبان من بين أسباب هذا النصر. وبدأ العالم الغربي يستشعر خطورة طالبان بعد سقوط كابول واستمرار حمايتهم لبن لادن. وحاولت الولايات المتحدة بمساعدة باكستان وطرف ثالث اختطاف بن لادن بعملية كوماندوز تنطلق من الأراضي الباكستانية. وقد بدأ التدريب على العملية في نهاية ربيع ١٩٩٧ على أن يتم التنفيذ في بداية صيف ١٩٩٨ وكان أن كشفت الخطة عناصر مؤيدة لبن لادن من المخابرات الباكستانية، وتسرب الأمر إلى الصحافة فتم إلغاء الخطة.

ومع نهاية عام ١٩٩٧ وبداية عام ١٩٩٨ سعى بن لادن مرة أخرى إلى ممارسة نشاطه واستند في الخطوة الأولى للتحرك على أسلوبه في استصدار فتوى من علماء باكستان وأفغانستان تؤيد بيانه السابق الخاص بإخراج القوات الكافرة من جزيرة العرب. وقد أصدر الفتوى أربعون عالما وزعت على نطاق واسع في باكستان وأفغانستان، كما سربت للصحافة وتم نشر مقاطع منها. وبذلك أصبحت دعوة بن لادن التي أطلقها من قبل في صورة بيان شخصي فتوى دينية موقعة من علماء، وبالتالي تحمل قدرا أكبر من المصداقية، وهو ما يعزز قدرته على استقطاب الدعم والتأييد الإسلامي والعربي ودفع المزيد إلى صفوف الجهاد. وعلى الجانب الآخر أضفت الفتوى غطاء شرعيا لتنفيذ مخططاته عبر أفغانستان بشكل لا يمكّن المُلا عمر من استنكار سلوكه على أساس انطلاقه من سند شرعي.

وتزامَنَ مع هذا الموقف تجمُّعُ عدد من قيادات الجماعات الإسلامية وخاصة جماعة الجهاد المصرية في أفغانستان وعدد كبير من الوفود من باكستان وكشمير في زيارات لبن لادن بهدف إقناعه بتوسيع مفهوم الحرب مع أمريكا إلى قتال لها في كل مكان. وبالفعل تم توسيع المفهوم من مقاتلة أمريكا إلى قتل كل من هو أمريكي في سن القتال في كل زمان ومكان ومعهم اليهود. وقد استندت هذه الفتوى – وهي امتداد للفتوى

السابقة – على مبررين أساسيين تم صياغتهما من قبل هذه الجماعات: أولهما شرعي، واستند على فكرة احتلال الأمريكان لبلاد الحرمين، وقتالهم ومعهم اليهود للمدنيين المسلمين. والآخر سياسي على أساس أن أمريكا أصبحت العدو الأول للإسلام حيث تتربص بالمسلمين وهو ما يحتم قتالها من قِبَل كل المسلمين.

وبناء على هذا صدر بيان الجبهة الإسلامية العالمية في فبراير ١٩٩٨، والداعي إلى قتال الأمريكان واليهود في كل مكان وزمان، في صورة فتوى ضد المواطنين الأمريكيين وافق عليها بن لادن ومعاونه المقرب أيمن الظواهري، وصدرت تحمل شعار "الجهاد ضد اليهود والصليبيين". وهي الفتوى التي نشرت في صحيفة القدس العربي في ٢٣ فبراير ١٩٩٨ وتدعو المسلمين إلى قتل الأمريكيين، بمن فيهم المدنيون في أي مكان في العالم يمكن العثور عليهم فيه، ودعا كافة المسلمين في كافة بقاع العالم إلى إعلان الجهاد ضد ما أسماه بالتحالف المسيحي اليهودي الذي يحتل أراضي المسلمين في فلسطين. وقد وقع البيان مع أسامة بن لادن أيمن الظواهري عن جماعة الجهاد الإسلامية، ورفاعي طه أحد قيادي الجماعة الإسلامية المصرية، ورئيس أحد الفصائل الكشميرية، وأحد القيادات الباكستانية. وقد توالت بعد ذلك الكثير من التفجيرات والأحداث التي نسبت إلى أسامة بن لادن وأعوانه خاصة تلك الحوادث التي تستهدف مصالح أمريكية وأصبح بن لادن العدو الأول لأمريكا. وبهذا البيان الذي وزع ونشرته الصحف بدأت مرحلة هامة في مسار أسامة بن لادن وهي التحول من التركيز على قضية جزئية هي القوات الأمريكية في الخليج إلى مشروع عالمي يستهدف الأمريكان واليهود في العالم، كما أنه يتجاوز جماعة بن لادن ليشمل تحالفا بين جماعات جهادية إسلامية مختلفة في ملمح آخر لعالمية التحرك، كما اشتمل على فتوى بتوسيع دائرة إباحة الدم.

وقد حافظ بن لادن بشكل عام على درجة من التصعيد والاستهداف ضد الولايات المتحدة وصرح في ١٩٩٨ قائلا "إنه لو استطاع أحد قتل جندي أمريكي فهو خير له من تضييع الوقت في أمور أخرى". وأصدر في ٢٩ مايو ١٩٩٨ بيانا بعنوان القنبلة النووية الإسلامية تحت شعار الجبهة الإسلامية الدولية للجهاد ضد اليهود والصليبيين، أعلن فيه أن من واجب المسلمين الإعداد لأكبر قوة ممكنة لترهيب أعداء الله. كما أكد مرة أخرى في مقابلة مع قناة الجزيرة الفضائية "إن عدونا هو كل ذكر أمريكي سواء كان يحاربنا بصورة مباشرة أو بدفع الضرائب".

إلا أن هذه النشاطات بدورها كانت تتناقض مع رغبات المُلا عمر، ورأى في تحركات بن لادن نقضا لما اتفقا عليه، وأرسل له يستفسر عما حدث، وهنا رد بن لادن بأن ظروف التهدئة قد انتهت، واستند إلى فتوى العلماء، وهو الأمر الذي ألزم المُلا عمر بالصمت رغم عدم موافقته. ومما زاد الخلاف بينهما أن بن لادن بدلا من اللجوء

إلى التهدئة اتجه إلى التصعيد من خلال الدعوة لمؤتمر صحفي في مايو ١٩٩٨ في منطقة قرب الحدود مع باكستان حضره عدد محدود من الصحفيين، كما أجرى مقابلة مطولة لمحطة A. B. C الأمريكية قبل المؤتمر، وأشار إلى احتمال حدوث حوادث ضد الأمريكان خلال فترة قصيرة. ومرة أخرى استدعى الملا عمر بن لادن معترضا عما حدث فاستند على الحجة الوحيدة التي يملكها وهي مطالبته بتحكيم العلماء، وهو الأمر الذي لم يرغب الملا عمر في أن يجعله وسيلة لكل من يريد أن يتمرد. والمحصلة تمثلت في توتر العلاقة بين الرجلين.

ثم تعرضت سفارتا الولايات المتحدة في نيروبي – كينيا ودار السلام – تنزانيا للتفجير في ٧ أغسطس ١٩٩٨ من خلال شاحنتين ممتلئتين بالمتفجرات. ونجم عن ذلك مصرع أكثر من ٢٠٠ شخص، منهم اثنا عشر مواطنا أمريكيا، وإصابة ما يزيد على ٤٠٠٠ شخص آخرين، بعضهم من المسلمين. وقد وجهت الحكومة الأمريكية من خلال التحقيقات التي قامت بها مع حكومتي كينيا وتنزانيا قائمة بتهم جنائية ضد بن لادن و١٦ من أتباعه لضلوعهم في التفجيرين وجرائم إرهابية أخرى.

واتجهت الاتهامات سريعا إلى بن لادن استنادا إلى بيانه السابق الصادر عن الجبهة الإسلامية العالمية، كما تم إعلان أمريكا بمسئوليته عن انفجار الخبر وكذلك انفجار الرياض. وربطت وسائل الإعلام الانفجار بالوجود الأمريكي في المنطقة وخاصة سياستها تجاه إسرائيل والعراق، وهي ذات الأسباب التي أعلنها بن لادن بنفسه في تبريره لأحداث ١١ سبتمبر بعد ذلك. إلا أنه لم يصدر بيان مباشر من بن لادن بمسئوليته عن الحدث، وصدر بيان عما يسمى الجيش الإسلامي لتحرير المقدسات، هاجم فيه سياسة الولايات المتحدة، وطالب بمغادرتها للمنطقة العربية، ودعا إلى الإفراج عن الشيخ عمر عبد الرحمن، والمطالبة بالإفراج عن المشايخ المعتقلين في السجون السعودية.

وكان رد الفعل الأمريكي على تفجير السفارتين توجيه ضربات أمريكية ضد السودان وأفغانستان. إلا أن اختيار الأهداف التي تم توجيه الضربات إليها اعتبر عاملا إضافيا مساندا لهذه الجماعات الداعية لمحاربة أمريكا. فقد استهدفت الضربات مصنعا للأدوية في السودان بادعاء أنه يُستخدم من قبل بن لادن لإنتاج السلاح الكيميائي، كما أن ضرب أفغانستان والقول عن استهداف مقر لطالبان لم يكن متماشيا مع حقائق الوضع الميداني للجماعات الأفغانية التي لا توجد في قواعد وأطر مؤسسية واضحة. وعلى العكس أظهرت الضربات الجماعات وكأنها ند للولايات المتحدة. وتحول بن لادن في الإعلام الأمريكي إلى عدو أمريكا الأول، كما أدت الضربات إلى إعلان المُلا عمر في مؤتمر صحفي الحرب على أمريكا إضافة إلى الهند.

وعندما سعت الولايات المتحدة إلى التفاوض مع طالبان حول بن لادن رفض الملا عمر التفاوض معهم، وعندما أرسلوا له رسالة تشرح له أنهم لا يريدون سوى الحفاظ على أمنهم وأمن مواطنيهم رد الملا عمر برد مشابه لحديث بن لادن مطالبا إياهم بالخروج من العالم الإسلامي وخاصة الجزيرة العربية. كما قامت الولايات المتحدة خلال الفترة التالية بحملة اعتقالات ضد شخصيات من العرب والمسلمين بتهمة علاقتهم بأسامة بن لادن، في حين ظل هو نفسه في حماية طالبان خوفا من اغتياله أو اختطافه.

ومن جانبها حاولت السعودية الضغط على طالبان أيضا وأرسلت الأمير تركي الفيصل بصحبة عبد الله التركي وزير الشئون الإسلامية وسلمان العمري القائم بالأعمال السعودي في كابول. وقد قام هذا الوفد السعودي بمقابلة الملا عمر وطلب تسليم بن لادن وقد احتد الحديث وأخبرهم الملا عمر أنهم إذا كانوا يتحدثون باسم أمريكا فلا يلومونه إذا قال إنه يتحدث باسم بن لادن. وعندما ذكر الأمير تركي أنه قدم بناء على دعوة الملا عمر لتسلم بن لادن أنكر الملا عمر ذلك بل ذهب أبعد من ذلك عندما انتقد شرعية مثل هذا الطلب، ومع اشتداد الحديث بين الطرفين في المقابلة طلب الملا عمر من الوفد السعودي اصطحاب القائم بالأعمال السعودي معه، ورفض طلب الاعتذار الذي أرسله له الأمير تركي بعد ذلك وبالتالي لم تجد المملكة سوى إبعاد القائم بالأعمال الأفغاني في الرياض.

وخلال هذه الفترة حدث تطور هام آخر بالنسبة لبن لادن والمجاهدين العرب قوى مركزهم لدى طالبان حيث تمكنوا من حماية إحدى جبهات كابول أمام أحمد شاه مسعود في الوقت الذي كانت طالبان فيه مشغولة بجبهات باميان حيث الشيعة، والشمال حيث دوستم، وقد أدى هذا الأمر إلى حملة دعائية ضد بن لادن قادها مسعود. وإلى جانب ذلك شهدت هذه الفترة انضمام جماعات أخرى غير عربية من باكستان وبنجلاديش وأوزبكستان ودول أخرى إلى صفوف المجاهدين، وجميعهم كانوا يدينون لبن لادن بالتبعية. وبشكل عام وفي معظم الوقت تواجد مع بن لادن ثلاث فئات من الاتباع أو المناصرين: أولا مجموعة تحت إمرته مباشرة وهم مئات قليلة يقيمون في أفغانستان، ثم مجموعة من المجاهدين ينتشرون في كل العالم، ومجموعة من المؤيدين غير الناشطين. وتمثل المجموعة الثانية مشكلة كبرى بالنسبة للدول الغربية والولايات المتحدة بعد أن تلقت تدريبها في معسكرات بن لادن ثم انتشرت في أنحاء العالم خاصة نحو الغرب، وهم يعيشون حياتهم العادية كجزء من المجتمع وليس لهم اتصال مباشر ببن لادن.

وفي بداية عام ١٩٩٩ ظهر بن لادن مرة أخرى في بعض الجرائد الأمريكية وقنوات التلفزيون، مؤكدا في أجوبته وتعليقاته على عدم وجود تغيير في مواقفه - الأمر

الذي تسبب في إحراج طالبان. ونتيجة لذلك ومع تصاعد ضغوط الولايات المتحدة والسعودية مرة أخرى سعت طالبان إلى عزل بن لادن عن العالم بغرض حمايته وحمايتهم من الانتقادات.

وأخيرا جاء الحدث الأكبر في ١١ سبتمبر ضد الولايات المتحدة واتجه الاتهام إلى بن لادن ومنظمة القاعدة وبعد أن رفضت طالبان تسليم بن لادن هاجمت الولايات المتحدة أفغانستان وقضت على حكم طالبان ومازال مصير بن لادن وأيمن الظواهري والكثير من قادة تنظيم القاعدة مجهولا حتى الآن.

ومن أهم التطورات التي شهدتها الفترة السابقة للحرب توحيد جبهتي القاعدة والجهاد في تنظيم واحد. وقد تأكد هذا الوضع من خلال ملازمة الظواهري الدائمة لبن لادن في تنقلاته المستمرة ومؤتمراته الصحفية المذاعة إلى جانب ما يتردد عن تلازمهما معا في ذات المخبأ أثناء الحرب.

اعترافات

عندما وقعت أحداث ١١ سبتمبر بادر بن لادن بنفي أي علاقة له بالتفجيرات التي وقعت في نيويورك وواشنطن. وقال في بيان بثته الوكالة الإسلامية الأفغانية في ١٦ سبتمبر ٢٠٠١: "إنه بعد التفجيرات الأخيرة التي شهدتها الولايات المتحدة توجهت بعض أصابع الاتهام الأمريكية إلينا، واتهمتنا بالوقوف وراءها، وقد عودتنا الولايات المتحدة على مثل هذه الاتهامات في كل مناسبة يقوم فيها أعداؤها الكثيرون بتسديد ضربة إليها" وتابع قائلا : "وبهذه المناسبة أؤكد أنني لم أقم بهذا العمل الذي يبدو أن أصحابه قاموا به بدوافع ذاتية عندهم، أما أنا فإنني أعيش في إمارة أفغانستان الإسلامية، وقد بايعت أمير المؤمنين على السمع والطاعة في جميع الأمور، وهو لا يأذن بالقيام بمثل هذه الأعمال من أفغانستان". ويتضح في هذا البيان تقليل بن لادن من شأن طبيعة العملية التي نفذت من خلال التشكيك في دوافعها التي قامت على أسس ذاتية، وبشكل لا يتم قبوله من قبل أمير المؤمنين.

وفي حديث أدلى به لصحيفة الأمة الباكستانية إجابة عن أسئلة تم توجيهها إليه بواسطة قادة في حركة طالبان في ٢٨ سبتمبر أكد بن لادن مرة ثانية نفيه قيامه بالهجوم، وأكد بالمقابل على تورط بعض العناصر الأخرى مثل الاستخبارات الأمريكية أو المنظمات اليهودية المتطرفة بغرض عمل فتنة بين الإسلام والمسيحية. وقال: "أنا وتنظيم القاعدة ليس لنا يد في انفجارات الثلاثاء". وإن السلطات الأمريكية يجب أن تبحث عن الإرهابيين داخل الولايات المتحدة نفسها مشيرا إلى إمكانية قيام وكالة الاستخبارات الأمريكية نفسها بتدبير الانفجارات للحصول على موارد مالية تقدر

بمليارات الدولارات سنويا لمواجهة أعباء ميزانياتها المتزايدة، وهو الأمر الذي أصبح مشكلة لها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي على حد قوله. كما أشار إلى إمكان قيام المنظمات اليهودية المتطرفة بهذه الانفجارات، أو أي منظمات إرهابية أخرى وهي كثيرة.

وقال بن لادن "أنا لا اكذب، فلم أكن على علم بهذه الانفجارات ولا أؤيد قتل الأبرياء، وربما كانت تلك الهجمات نتيجة لعنة صبها الله على أمريكا بسبب ما ارتكبته بحق الرجال والنساء والأطفال من ديانات أخرى خاصة المسلمين". وأضاف "نحن لسنا أعداء للمواطنين الأمريكيين أو الولايات المتحدة نفسها، ولكننا أعداء هذا النظام الذي جعل الدول الصغرى تحت عبودية أمريكا". وقال "في الحقيقة كان يجب أن تكون تلك الانفجارات ضد إسرائيل وليس أمريكا".

ويتضح أن بن لادن في هذه التصريحات لم يترك مجالا للتراجع مرة أخرى فقد رفض العملية وأكد رفضه لقتل الأبرياء، بل بدا متناقضا في سبيل إبعاد التهمة عنه وعن القاعدة مع تصريحاته السابقة الخاصة باستهداف الأمريكيين، وتحول عن حديثه بأن كل أمريكي ذكر هو عدونا إلى الحديث بأن الأمريكيين والولايات المتحدة ليسوا أعداءنا وأن عدونا هو النظام المستغل للدول الصغرى. كما تبرع بتقديم اقتراحات عن من يكون قد فعلها، وأسبابه لذلك. وبقى التساؤل الأساسي غائبا - أين الاتساق بين الأفكار المعلنة التي تم حشد مئات الشباب من أجلها، وبين ما طرح في هذه البيانات؟

وفي شريط الاعتراف الأول الذي أطلق عليه البعض شريط الانتصار والذي بث يوم السابع من أكتوبر، قال بن لادن "إن الله بارك جماعة من المسلمين الطلائعيين، هم جبهة الإسلام الأمامية، لتدمير أمريكا". لكن بن لادن عاد واعترف بمسئوليته عما حدث في نيويورك وواشنطن في شريط تم بثه في ١٣ ديسمبر دون أن يبدي أسفا على القتلى من المدنيين، ورفع آيات الحمد لله على نجاح العملية. وقد جاء هذا الشريط نفسه مثيرا لكثير من الجدل على أساس أن جزءاً كبيراً من المسلمين والعرب خاصة لم يصدقوا أن يكون بن لادن هو المنفذ للعملية، وأكدوا أنها مجرد اتهامات أمريكية غير حقيقية وهو الأمر الذي ظل البعض يروجه حتى بعد اعترافات بن لادن. وبالنسبة لبن لادن فقد أعرب في الشريط عن سعادته بما تحقق وتبادل التهاني مع أصدقائه، معربا عن سعادته للإنجاز الذي تحقق والنجاح الذي لم يكن يتوقعه باعتبار أنه لم يتوقع إلا انهيار أربعة طوابق في أفضل الأحوال ولكن الانهيار "والحمد لله" طال كلا البرجين. وقد برر بن لادن العملية بقوله "إنني أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا أن لا اله إلا الله ومحمد رسول الله". أما الأمر المثير في توقيت عرض الشريط أنه تزامن مع عودة مقاتلي طالبان إلى قبائلهم بعد أن فقدوا السيطرة وخسروا السلطة في أقل من شهر من

القتال، مما شكك فى طبيعة الهدف الذى كانوا يقاتلون من أجله وأنه السلطة وليس العقيدة والإيمان بالجهاد.

هذا ومع استمرار عدم تصديق العالم العربى لاعترافات أسامة بن لادن فقد أصدر شريطا آخر بثته قناة الجزيرة فى ٢٧ ديسمبر يؤكد فيه مرة أخرى مسئوليته عن الحادث، مُكررا إشادته بالضربات "المباركة"، ودعا مؤيديه لضرب الاقتصاد الأمريكى بكل الوسائل. وفى هذا الشريط الآخر استهدف بن لادن بشكل واضح المشاعر العربية والإسلامية، وربط ما حدث فى نيويورك وواشنطن بما يجرى فى فلسطين والعراق وأنحاء أخرى من العالم الإسلامى. كما كشف فى هذا الشريط عن منفذى العملية وقال إن تسعة عشر من طلاب "الثانويات" هزوا عرش أمريكا وضربوا الاقتصاد الأمريكى فى صميم فؤاده، وضربوا أكبر قوة عسكرية فى عمق قلبها. وأعلن أن منفذى الهجمات هم خمسة عشر سعوديا واثنان من الإمارات ولبنانى ومصرى.

وبهذا الشكل سعى بن لادن فى شريطه الثانى إلى المتاجرة بالقضية الفلسطينية، وربطها كسبب أساسى لهجماته، وقارن بين ما يحدث فى فلسطين من قتل وهجمات إسرائيلية ضد الفلسطينيين وبين هجماته ضد الولايات المتحدة، وتجنب مهاجمة دول الخليج والوجود الأمريكى فيها لتقليل خصومه، وزيادة أنصاره. وفى الجزء الآخر من حديثه حاول بن لادن تبرير العمليات الانتحارية وإكسابها طابعا شرعيا، فوجه حديثه إلى الشباب المسلم لإقناعهم بالأدلة والآيات القرآنية بأن هجمات ١١ سبتمبر ليست إجراما ولكنها "إرهاب محمود" مقارنة بما تفعله الولايات المتحدة فى أفغانستان من ممارسات وحشية وصفها بأنها "إرهاب مذموم"، مؤكدا على أن من نال الشهادة من الشباب السعوديين هم النموذج الذى يجب الاقتداء به.

بن لادن .. أين هو؟

ظل التساؤل حول مصير بن لادن أحد الأمور المثيرة المحيِّرة بعد أحداث ١١ سبتمبر. هل مات؟ هل ما يزال فى عداد الأحياء؟ هل هو فى أفغانستان؟ أم غادرها إلى دولة أخرى قد تكون إيران أو باكستان؟ وقد وقفت الولايات المتحدة فى هذا الأمر حائرة، تحاول أن تدك مواقع الجبال والأماكن التى تتشكك فى وجوده فيها لأنه فى نظرها الجائزة الكبرى للحرب فبدونه لا معنى للانتصار. وسعت الولايات المتحدة إلى حل لغز بن لادن من خلال الإعلان عن جائزة كبرى لمن يرشد عنه فقررت منح مكافأة قدرها ٢٥ مليون دولار لمن يقدم أى معلومة تتيح القبض عليه، وأعرب كولن باول وزير الخارجية عن أمله أن يؤدى هذا القرار إلى الإمساك ببن لادن وهو الأمر الذى لم يحدث رغم الإعلان عن ذلك فى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠١.

ومع تضارب ما يروى أصبح الرجل موجودا فى كل مكان، يشهد عديدون أنهم رأوه، ويؤكد آخرون أنه مات، أو أنه مريض ويعالج. وفى وقت وجوده فى أفغانستان هو أيضا موجود فى مناطق أخرى تبعد عنها. وأصبحت التناقضات والتكهنات سمة للحديث عن مكان بن لادن، وحياته ومماته، ومرضه وصحته. وإذا أذيع شريط فيديو له جرى التشكيك فى تاريخ تسجيله، فإذا توقفت الشرائط أشيع أنه مات نتيجة الضربات الجوية أو لأسباب صحية تتعلق بالفشل الكلوى الذى ذكر أنه يعانى منه.

وفى النهاية وسواء أكان أسامة بن لادن إرهابيا مجرما أو بطلا مجاهدا فإن خطورته الحقيقية تبقى فى أنه نجح خلال سنوات طويلة فى وضع هدف مشترك للعشرات من الجماعات الإسلامية يتمثل فى ضرب المصالح الأمريكية والإسرائيلية فى كل مكان، كما استطاع أن يهيئ المناخ الملائم لميلاد العديد من الإرهابيين الذين يشكلون خطورة على شعوبهم، وعلى الاستقرار والأمن فى العالم.

حـــركـــة طـــالـبـان

كانـت أفغانستان وقـت ظهـور طالبـان تعـانى مـن النزاعـات المسلحة بيـن فصـائل المجاهدين الأفغان المشاركين فى الجهاد ضد السوفييت. وقد استمرت هذه النزاعات إلى أن انتهت بتشكيل حكومـة ائتلافيـة عـام ١٩٩٢ بقيادة برهـان الدين ربـانى إلا أن الحكومة فشلت فى السيطرة على الوضع الداخلى فى البلاد واستمرت مناطق واسعة من أفغانستان بعيدة عن سيطرة الحكومة.

وخلال الفترة من ١٩٩٢-١٩٩٦ اتسمت الأوضاع فى الداخل بالفوضى والعنف، وانتشر السخط بين الجماهير بسبب فشل الحكومة الجديدة فى فرض النظام والأمن داخل القرى والمدن، وانتشرت السرقات، وحوادث السطو والاغتصاب دون أن تبدى الحكومة قدرة على ضبط الموقف. وأسفرت الحروب الداخلية عن خسائر بشرية وصلت إلى أكثر من ٤٠ ألفاً، مع انتشار الفوضى وانعدام النظام، ومظاهر الفساد الأخلاقى، والاضطرابات الأمنية. وبالإضافة إلى أوضاع أخرى خارجية، ساعدت هذه العوامل مجتمعة على ظهور حركة طالبان واستمرارها. ونجحت الحركة فى تحقيق مكاسب سريعة نتيجة لخبرتها الطويلة فى الحرب ضد السوفييت، إلى جانب التعاطف الشعبى المدفوع بالرغبة فى التخلص من الاضطرابات الأمنية وحالة الفوضى، وتنامى الوازع الدينى بعد أن أفتى العلماء للطلاب بان ما يقومون به هو جهاد فى سبيل الله.

وقد نشأت "الحركة الإسلامية لطلبة المدارس الدينية" المعروفة باسم "طالبان" (جمع كلمة طالب فى لغة البشتو) عام ١٩٩٤ فى ولاية قندهار الواقعة غرب أفغانستان قرب الحدود مع باكستان، على يد الملا محمد عمر مجاهد، بهدف القضاء على الفساد الأخلاقى وإعادة أجواء الأمن والاستقرار إلى أفغانستان، وساعده طلبة المدارس الدينية، الذين بايعوه أميراً لهم فى ٣ أبريل ١٩٩٤ فى إطار سعيه لإقامة دولة إسلامية هناك. وكان معظم هؤلاء الطلاب عناصر سابقة فى منظمة حركة الانقلاب الإسلامى التى قاتلت السوفييت ولكنها ضعفت وتفتت بعد الانسحاب السوفييتى.

تطور الحركة وأهدافها

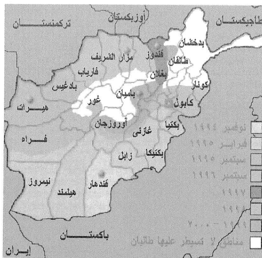
ظهرت أول خلية لطالبان فى يوليو ١٩٩٤ حين قامت مجموعة من طلبة المدارس الدينية بنزع سلاح مجموعات من المقاتلين الأفغان وإزالة مراكز جمع الأموال من الناس فى ولاية قندهار الجنوبية. وقد وسعت طالبان بعد ذلك من سيطرتها حيث سيطرت على مدينة سبين بولدك الحدودية، وعلى مخازن الأسلحة والذخيرة المركزية للولايات الجنوبية الغربية التابعة للحزب الإسلامى بزعامة حكمتيار، وهى من أكبر مخازن السلاح فى أفغانستان.

وجاء الظهور الإعلامى الواضح للحركة فى ٣ نوفمبر ١٩٩٤ حين أنقذت قافلة تجارية باكستانية من قبضة بعض قادة المقاتلين الأفغان. وقد أعلنت طالبان على لسان متحدثها الرسمى الملا عبد المنان نيازى وبعد الاستيلاء على مديرية سبين بولدك، أن هدف حركتهم هو استعادة الأمن والاستقرار، وجمع الأسلحة من جميع الأطراف، وإزالة جميع مراكز الإتاوات من الطرق العامة. وفى ٥ نوفمبر تمكنت من السيطرة على مدينة قندهار، ثم استمرت فى مد سيطرتها إلى العديد من الولايات الأخرى. وفى عام ١٩٩٥ واصلت طالبان زحفها وسيطرت على العديد من المدن الهامة مثل غازنى وميدان شهر المعقل الحصين للحزب الإسلامي بقيادة حكمتيار، وتشار اسياب بالقرب من كابول وبالتالى سيطرت على جميع مناطق النفوذ الخاصة بالحزب الإسلامى، وولايتى بكتيا وبكتيكا الجنوبيتين.

وفى أعقاب اندلاع الحرب بين قوات مسعود وحزب الوحدة الشيعى تدخلت طالبان بين القوات المتحاربة واستولت على مواقع حزب الوحدة الشيعى وقامت بنزع أسلحة الشيعة وأسرت قائد الجبهة عبد العلى مزارى، الأمر الذى عزز وضع طالبان بقوة فى كابول، وهيأها لمواجهة القوات الحكومية. واستمر الصراع بين طالبان ومسعود حتى تمكنت طالبان من السيطرة على مساحات واسعة من جنوب غرب أفغانستان وعلى تشار اسياب وتلال خير آباد المشرفة على جنوب كابول للمرة الثانية، واستطاعت بهذا أن تُحكِم حصارها على كابول، وبلغت أوج سيطرتها حين بايع ١٥٠٠ من العلماء من مختلف أنحاء أفغانستان الملا محمد عمر فى ٣ أبريل ١٩٩٦ أميرا ولقبوه بأمير المؤمنين.

ومع اتساع سيطرة الحركة على المزيد من المناطق تطورت أهداف الحركة لتتحول مدفوعة بزخم الانتشار والتأييد الشعبى إلى إقامة حكومة إسلامية، وهو الأمر الذى أعلنه الملا محمد عمر فى كلمة ألقاها أمام العلماء فى قندهار فى ٤ أبريل ١٩٩٦. وتحددت أهداف الحركة فى مجموعة من النقاط أهمها: إقامة الحكومة الإسلامية على نهج الخلافة الراشدة؛ وأن يكون الإسلام دين الشعب والحكومة جميعا؛ وأن يكون

قـانون الدولـة مستمدا مـن الشـريعة الإسـلامية؛ واختيـار العلمـاء الملتـزمين بالإسـلام للمناصب المهمـة فـى الحكومـة؛ وقلـع جذور العصبيات القومية والقبلية؛ وحفظ أهل الذمة والمستأمنين وصيانة أنفسهم وأموالهم وأعراضـهم؛ والالتزام بالحجاب الشرعي للمرأة فى جميع المجالات؛ والاحتكام إلى الكتاب والسنة فى أى خلاف، وكذلك أسْلَمَة اقتصاد الدولة، واختيار منهج إسلامى شامل للمدارس والجامعات.



تطور سيطرة طالبان داخل أفغانستان

وفى عام ١٩٩٦ دخلت قوات طالبان هيرات على الحدود الإيرانية الأفغانية ونجحت فى طرد القوات الحكومية من كابول وبسطت سيطرتها عليها فى ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦ بعد انسحاب القوات الحكومية منها إلى الشمال. وفور دخول طالبان إلى كابول قامت بإعدام الرئيس الأفغانى الشيوعى نجيب الله، وأعلن الملا عمر عن تكوين لجنة من ستة أشخاص برئاسة ملا محمد ربانى النائب الأول له لإدارة الأمور فى كابول.

واستمرت قوات طالبان فى توغلها داخل الولايات الأفغانية وصولا إلى مدخل وادى بانجشير وجبل السراج وهما من المعاقل الحصينة لأحمد شاه مسعود. وفى ١٠ أكتوبر ١٩٩٦ وقّع كل من دوستم قائد المليشيات الأوزبكية وعبد الكريم خليلى زعيم حزب الوحدة الشيعى اتفاقا للدفاع المشترك وأعلنوا عن ائتلاف جديد للدفاع عن أفغانستان برئاسة دوستم. وفى ١٢ أكتوبر اندلعت انتفاضة شعبية ضد طالبان فى شمال كابول، كما شن أحمد شاه مسعود هجوما استرد فيه منطقة جبل السراج وتشاريكار، كما استعاد قاعدة بجرام الجوية فى ١٨ أكتوبر. ولكن طالبان كانت قادرة على استعادة هذه المناطق مرة أخرى فى ١٧ يناير ١٩٩٧. وتمكنت القوات المتحالفة مع طالبان بقيادة الجنرال عبد الملك بعد انشقاقه على دوستم من الدخول إلى مزار الشريف فى ٢٤ مايو والسيطرة على العديد من الولايات الأخرى. وفى ٢٥ مايو اعترفت باكستان بحكومة طالبان، ثم اعترفت بها السعودية والإمارات. وفى ٢٧ مايو ١٩٩٧ حدثت خلافات شديدة بين قوات الجنرال عبد الملك وقوات طالبان أسفرت عن قتل وأسر آلاف العناصر من طالبان، وإجلاء طالبان عن بعض المناطق الشمالية، إلا أن طالبان عادت واستولت على أجزاء من ولاية قندوز وبغلان فى الشمال.

وفى عام ١٩٩٨ عادت قوات طالبان إلى المناطق التى انسحبت منها فى الولايات الشمالية مثل فارياب ومزار الشريف وطالقان، كما قامت الولايات المتحدة بضرب أفغانستان بالصواريخ مستهدفة ما اعتقدت أنه معقل لأسامة بن لادن فى قندهار وذلك بعد اتهامه بتفجير سفارتيها فى كينيا وتنزانيا. واستمرت الولايات المتحدة فى مطالبة طالبان بتسليم أسامة بن لادن الأمر الذى أصرت الحركة على رفضه. وفى ٨ أكتوبر ١٩٩٩ قامت الولايات المتحدة بفرض عقوبات اقتصادية وسياسية على أفغانستان بسبب رفض طالبان تسليم أسامة بن لادن، واستمرت فى حشد الرفض الدولى لها. وفى نفس الوقت أقدمت حكومة طالبان على عدد من التصرفات المثيرة للرفض والعداء الدولى مثل تدمير تمثال بوذا التاريخى فى مارس ٢٠٠١، وفرض لباس معين يميز المسلمين عن غير المسلمين. وعندما تعرضت الولايات المتحدة لهجمات ١١ سبتمبر اعتبرت أسامة بن لادن هو المشتبه فيه الرئيسى، وطالبت حركة طالبان مرة أخرى بتسليمه، ولم يكن لطالبان وقتها وجود دولى معترف به سوى من ثلاث دول إسلامية فقط هى باكستان والسعودية والإمارات وذلك رغم سيطرتها على حوالى ٩٠% من

الأراضي الأفغانية. وقد أدى رفض طالبان إلى تطورات متتالية في الموقف السياسي بلغت ذروتها في الحملة العسكرية الأمريكية على أفغانستان.

الأصول العرقية والفكرية لطالبان

ينتمي معظم أعضاء حركة طالبان إلى القومية البشتونية التي يتركز معظما أفرادها في شرق وجنوب أفغانستان ويمثلون حوالي ٣٨% من تعداد أفغانستان البالغ عدد سكانها ٢٧ مليون نسمة تقريبا. أما من الناحية الفكرية فتنتمي الحركة إلى المذهب الحنفي ، وقد تعلم الملا محمد عمر وكل زعماء حركة طالبان في المدارس الدينية الديوبندية، وهي اتجاه سني في المذهب الحنفي تأسس في مدينة ديوبند في الهند، وقد ركزت هذه المدارس على العلوم الإسلامية الأساسية كالتفسير والسيرة والحديث إلى جانب بعض العلوم العصرية التي تدرس بطريقة تقليدية تعود إلى المنهج الكلاسيكي القديم الذي وضعه في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) الشيخ نظام الدين بن قطب السهالوي. وبعد قيام دولة باكستان زاد عدد المدارس الدينية الديوبندية والتحق بها عدد كبير من الأفغان الذين شكلوا بعد ذلك عصب حركة طالبان. وتتميز المدرسة الديوبندية بآرائها الفقهية المتشددة عن المرأة والعديد من الشعائر الإسلامية، وتعتبر الحكم الشرعي في مذهبها حكما واحدا لا يحتمل الأخذ والرد حوله، مما يعني ضرورة تنفيذ الأحكام الشرعية لدى طالبان حتى على المذاهب أو الآراء الأخرى المخالفة باعتباره واجبا دينيا.

ويتدرج الطلاب في هذه المدارس عبر عدة مراحل أو مستويات حيث يبدأ بالمرحلة الابتدائية ثم المتوسطة فالعليا والتكميلية، وفي المستوى الأخير يقضي الطالب عاما يتخصص فيه في علوم الحديث وتسمى دورة الحديث. كما يمر الطالب خلال دراسته بعدة مراتب علمية فيطلق عليه أولا **طالب** وهو بلغة البشتو كل من يدخل المدرسة ويبدأ في التحصيل العلمي ، ثم **الملا** وهو الذي قطع شوطا في المنهج ولم يتخرج بعد، ثم أخيرا **مولوي** وهو الذي أكمل المنهج وتخرج من دورة الحديث ووضعت على رأسه العمامة وحصل على إجازة التدريس.

وبشكل عام تنسجم صفات أفراد طالبان مع صفات المجتمع الأفغاني كله، من حيث أنهم تعبير عن ظاهرة اجتماعية تقوم على ركائز عديدة منها الروح القومية مثل التعصب للبشتونية أو الطاجيكية أو الأوزبكية. وتقوم هذه الروح على مذهبية ضيقة ترى بعض دوائرها أن المذهب هو الدين، كما تقوم على التعصب المذهبي أو المدرسي وهي صفات موجودة في الشعب الأفغاني كله وليس طالبان فقط.

عملية اتخاذ القرار فى طالبان

لا تتمتع حركة طالبان بتنظيم قيادى قوى، فهى لا تملك هيكلا إداريا واضحا ولا لوائح لتنظيم شئونها الداخلية، ولا برامج لتربية أعضائها، ولا بطاقات عضوية لتسجيل الأعضاء. كما أكدت الحركة أنها ليست حزبا مثل الأحزاب الأخرى، فهى لا تهتم بالهيكل الإدارى أو التنظيمى ولكنهم يريدون أن يخدموا الشعب كله عن طريق تفعيل الدوائر الحكومية.

ووفقا لما ذكره الملا وكيل أحمد متوكل وزير الخارجية الطالبانى فى حوار معه فى يناير ٢٠٠١ فإن المرجع الأصلى والمركزى للإمارة هو أمير المؤمنين، ولابد قبل اتخاذه أى قرار فى أى مسألة أن يعرض الأمر على أهل النظر ومجالس الشورى لتجرى المصادقة عليها وإجازتها. أما عن المجلس فهناك جلسة تعقد بحضور الوزراء والإدارات المعنية فى كابول، ويرأس الجلسة رئيس الحكومة. كما يوجد مجلس شورى للعلماء يستشار فى المسائل المهمة، كما تتشكل مجالس شورى على المستويات المحلية للربط بين الشعب والحكومة. أما الحديث عن تشكيل قيادات الحركة فهناك صف أول أساسى يضم عناصر من المتشددين أو جناح الصقور الأقرب إلى الملا عمر، ومنهم الملا أمير خان متقى وزير التربية والناطق الرسمى باسم الحركة والذى خاض الكثير من الحروب كقائد لقوات طالبان، أما جناح الحمائم فيضم شخصيات مثل الملا محمد ربانى الرجل الثانى فى الحركة والذى توفى فى أبريل ٢٠٠١، وكذلك وكيل أحمد متوكل وزير الخارجية.

ويمكن تصور الهيكل السياسى لحركة طالبان على النحو التالى:

أمير المؤمنين: وهو الملا محمد عمر الذى يتمتع بصلاحيات واسعة، وله حقوق شرعية بما يعنى عدم جواز مخالفته، كما لا يجوز عزله إلا إذا خالف التعليمات الدينية، أو عجز عن القيام بمسئولياته. وغير ذلك فهو يبقى فى منصبه حتى الموت. ولأمير المؤمنين الحق فى تغيير أو تعديل قرارات مجلس الشورى أو مجلس الوزراء لكنه يسعى إلى عدم فعل ذلك وإن ظل التغيير من حقه، فالحركة ورغم إنشائها للكثير من مجالس الشورى إلا أنها تؤمن بأن الشورى معلمة وليست ملزمة، فالقرارات المهمة يتخذها الملا عمر مستأنسا بآراء أهل الشورى، وله كل الحرية فى الأخذ بآراء المجلس أو رفضها.

المجلس الحاكم المؤقت: وهو المجلس الذى عينه الملا عمر لإدارة الأمور فى كابول لفترة مؤقتة بعد سقوط المدينة فى أيد الحركة فى ٢٧ سبتمبر ١٩٩٦. ويعمل المجلس تحت إشراف مباشر من الملا عمر ويتكون من ستة أشخاص كان يرأسهم الملا محمد ربانى ثم خلفه بعد وفاته الملا محمد حسن.

مجلس الشورى المركزى للحركة: وهو مجلس ليس لـه عدد ثابت أو أعضـاء معينون رغم أن الحركة أعلنت عند بداية تشكيله أنه مكون من ٧٠ عضوا برئاسة الملا محمد حسن رحمانى والى قندهار. ويتكون مجلس الشورى من المشايخ والعلماء.

مجلس الشورى العالى لحركة طالبان: ويضم المجلس فى عضويته كل القيادات المعروفة داخل الحركة وإن لم يكن له أعضاء محددون. ومن أعضاء هذا المجلس سيد محمد حقانى ووكيل أحمد متوكل ونور الدين الترابى.

مجلس الوزراء: ويتكون من القائمين بأعمال الوزراء ومعظمهم من الشباب، ويعقد جلساته أسبوعيا ، ويتغير أعضاء هذا المجلس باستمرار. والوزراء عادة من المشايخ غير الفنيين، وقد بررت طالبان ذلك بأن عمل الوزراء يقتصر فقط على المتابعة الإدارية ومراقبة العمل وإصدار الأوامر، ويساندهم فى العمل مجموعة من المستشارين وأصحاب الخبرة لتقديم المشورة الفنية اللازمة للوزراء.

دار الإفتاء المركزى: ويضم المجلس عددا من العلماء لاستفتائهم فى الأمور الشرعية، ومقره قندهار. ويرأسه المولوى نور محمد ثاقب، ومن علمائه المشهورين المولوى عبد العلى الديوبندى والعالم الباكستانى شير على شاه والمولوى نظام الدين شامزى.

مجالس الشورى فى الولايات: ويتمتع الولاة وفقا لقرارات الملا محمد عمر بصلاحيات واسعة، ويقوم كل وال بتشكيل مجلس شورى لمناقشة الأمور المتعلقة بإدارة حكومة الولاية.

مواقف طالبان من بعض القضايا

اتخذت حركة طالبان مواقف غاية فى التشدد من قضايا التصوير الفوتوغرافى والتصوير التلفزيونى، مستندة إلى تعاليم المذهب الحنفى فى تحريم التصوير مع الاعتراف بوجود حالات أخرى يسمح فيها بالتصوير للضرورة مثل التصوير من أجل جواز السفر والحج والعمرة، وإثبات الهويات، وحفظ الأمن والنظام، أما بالنسبة لظهور أعضاء الحركة فى وسائل الإعلام فقد تم تبريره كضرورة لبعض الشخصيات الذين تعتبرهم الحركة بمثابة متحدثين رسميين باسمها علما بأن الملا محمد عمر نفسه لا يقوم بمقابلات إعلامية.

كذلك اتخذت الحركة موقفا متشددا بالنسبة للمرأة ودورها. وأعلنت ضرورة تعليم المرأة باعتبار أن الأنثى والذكر مخاطبان بالأمر الشرعي والإسلام يؤكد على ضرورة تعليم الجميع. كما تؤمن الحركة بالمظهر الإسلامى كما تتصوره فتأمر الرجال بإطلاق اللحى ولبس العمامة، وتمنع إطالة الشعر وتحرم الموسيقى والغناء والصور، كما تمنع

عمل المرأة خارج بيتها ويشرف على تنفيذ ذلك هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن الحركة أكدت في ذات الوقت أن التعليم يجب أن يكون في الإطار الشرعي المتضمن الالتزام بالحجاب، والنهي عن الاختلاط، مع العمل على توفير وسائل المواصلات ومباني الدراسة وأدوات التدريس لضمان تحقيق ذلك.

كما رفضت الحركة لفظ الديمقراطية لأنها تمنح حق التشريع للشعب وليس لله. كما أنها لا ترى أهمية لوضع دستور أو لائحة لتنظيم شئون الدولة، وترى أن القرآن والسنة هما دستور الدولة الإسلامية. كما لا تسمح الحركة بتشكيل أحزاب سياسية جديدة ولا تقبل الأحزاب الموجودة، ويقول الملا عمر في هذا الشأن أنه رفض الأحزاب لأنها "تقوم على أسس عرقية وقبلية ولغوية وهي نوع من العصبيات الجاهلية التي تتسبب في خلق المشاكل ونشر العداء والفرقة بين الناس".

الملا محمد عمر

ولد الملا محمد عمر في بلدة نوده من قرى قندهار عام ١٩٥٤ وهو سليل أسرة من علماء الدين، وكان أجداده من المولوية الذين كانوا يشتغلون بالإمامة في المساجد ويعيشون على مساعدات ضئيلة تقدم لهم من أهل القرية، وقد مات والده وهو صغير وتزوج عمه الأكبر المولوي محمد أنور من أمه وأنجب منها ثلاثة أولاد وأربع بنات.

وعندما دخلت القوات السوفيتية أفغانستان كان الملا عمر يدرس في منطقة سنج سار بمديرية ميوند من ولاية قندهار، فترك الدراسة والتحق بالمجاهدين ضد الوجود السوفيتي. وبسبب تركه للدراسة وعدم استكمالها شكك الكثيرون في قدرة الملا عمر العلمية، ويدللون على ذلك بإحجامه عن الخطابة في الناس، أو السماح بمقابلات صحفية، حتى إنه لم يلتق بأي صحفي غربي وترك جميع مهام الاتصال بالعالم الخارجي لوزير خارجيته وكيل أحمد متوكل، ولم يلتق من الدبلوماسيين الغربيين إلا الأخضر الإبراهيمي المبعوث الخاص للأمم المتحدة عام ١٩٩٨ وسفير الصين في باكستان لو سولين عام ٢٠٠٠. وترى بعض التحليلات أن عدم ظهور الملا عمر يرجع إلى رغبة قيادات طالبان ومستشاريهم في إخفاء ضعفه العلمي والثقافي، وعدم قدرته على التعامل الدبلوماسي، إلى جانب خلق أثر نفسي يتمثل في الهيبة منه لدى الأفغان، كما أتاحت هذه الطريقة درجة من حرية المناورة أمام الحركة تمثلت في إمكانية التنصل من الاتفاقيات التي تبرمها مع المعارضة أو جهات أخرى بعد الاتفاق، بذريعة رفض الملا عمر لها عند عرضها عليه.

وفي أثناء فترة الجهاد ضد القوات السوفيتية تولى الملا عمر قيادة مجموعة مسلحة في جبهة الملا نيك محمد التابعة للجمعية الإسلامية بولاية قندهار بزعامة المولوي

محمد يونس خالص، وجُرح في الجهاد ضد الاحتلال وأصابه العرج وفقد عينه اليمنى، وانتقل من منظمة إلى أخرى حتى استقر في "حركة الانقلاب الإسلامي" لمولوى محمد نبى محمدى. ثم اتجه بعد دخول المجاهدين إلى كابول لإكمال دراسته في مدرسة غيرة بمنطقة سنج سار بمديرية ميوند بولاية قندهار حيث اشتغل إماما لمسجد القرية. وشهدت هذه الفترة بداية تفكيره في محاربة الفساد والقضاء على المنكرات، ولذلك قام بجمع الطلاب من المدارس الدينية والحلقات لهذا الغرض في صيف عام ١٩٩٤ وبدأ العمل في تنفيذ هذه المهمة بمساعدة بعض التجار والقادة الميدانيين.

أما عن إدارة الملا عمر لأفغانستان فتنطلق من وجوب السمع والطاعة للأمير ما لم يأمر بمعصية الله، وهو يعتمد بشكل كلى على مساعديه في معالجة المشاكل وأداء واجبات وظائفه في قيادة الحركة، ويعتبر سكرتيره الأول وكيل أحمد متوكل شخصية محورية في الحركة وقد تدرج مع الملا عمر، فكان في البداية يعمل لديه كسائق ثم طاهٍ ثم عمل في السكرتارية ثم وزارة الخارجية.

هذا وقد ارتبط الحديث عن طالبان بشكل عام والملا عمر بشكل خاص بأسامة بن لادن والعلاقات القوية بينهم حتى إن هناك من ربط هذه العلاقة بعوامل شخصية تمثلت في زواج الابنة الكبرى لأسامة بالملا عمر، وزواج بن لادن من إحدى بنات الملا عمر كزوجة رابعة له وهو الأمر الذى تنفيه طالبان. والمعروف أن الملا عمر قد تزوج ثلاث مرات، وكان زواجه الأول في عام ١٩٩٠، والأخير في عام ١٩٩٥ وله خمسة أولاد.

وقد بدأت العلاقة بين الملا عمر وأسامة بن لادن في الثمانينات عندما بدأ أسامة تقديم دعمه المالى إلى قادة الجهاد وكان عمر واحدا منهم. وفي مواجهة طلبات الدول لتسليم أسامة بن لادن لهم كان الملا عمر يقول "الشيخ أسامة بن لادن مسلم مهاجر إلى أفغانستان وهو ضيف على الأفغان وإخراجه أو تسليمه مخالف للإسلام ولعادات الشعب الأفغانى".

وبعد تفجر أحداث ١١ سبتمبر وبالرغم من إعلان أسامة بن لادن تأييده لها وطلب الولايات المتحدة القبض عليه ظل الملا عمر على موقفه من رفض تسليم أسامة، وعندما عُقد اجتماع لبحث مصير أسامة بعد أحداث ١١ سبتمبر أرسل الملا عمر خطابا قال فيه "دولتنا الإسلامية هي النظام الإسلامي الحقيقي في العالم، ولهذا السبب ينظر أعداء بلدنا إلينا كشوكة في أعينهم ويفتشون عن أعذار للقضاء عليها، وبن لادن أحد هذه الأعذار".

طالبان : القوات والقدرات

لا تملك حركة طالبان قوات خاصة ولا جيشا نظاميا، وكل ما تملكه عبارة عن مجموعة من طلاب المدارس الدينية، ومجموعة من المقاتلين من الجنسيات الأخرى مثل العرب والباكستانيين الذين يتلقون بعض التدريبات فى معسكرات خاصة. وقد وصل عدد المقاتلين التابعين للحركة إلى ما بين ٢٠ و٣٠ ألف مقاتل، إلى جانب قرابة ٢٠٠ دبابة، و١٢ طائرة وعدد من المروحيات والأسلحة الخفيفة التى حصلت عليها الحركة من مصادر مختلفة مثل باكستان وروسيا وأمريكا والصين والهند، كما توجد أسلحة يتم تصنيعها فى مناطق القبائل البشتونية الباكستانية.

طالبان والمجتمع الأفغانى

حققت حركة طالبان بعض الإيجابيات للشعب الأفغانى ومنها إعادة الأمن والاستقرار وتوحيد الأراضى الأفغانية، وإنشاء المحاكم وإيجاد نظام إدارى فى الولايات والقضاء على الفساد الإدارى، ومقاومة الفساد الخلقى، وجمع الأسلحة. أما بالنسبة لسلبيات الحركة فقد قدمت صورة مشوهة للإسلام والتعصب فى الرأى، وعدم وجود كوادر مؤهلة، وقلة الاهتمام بالتعليم العصرى، ومنعت المرأة من التعليم، وتم اتهامها بممارسة مجازر بشرية ضمن سياسة التطهير العرقى التى كانت تتبعها ضد خصومها وسكان مناطق الشمال.

وأدت ممارسات حكومة طالبان الخارجية إلى كثير من العداء مع الدول الأخرى، وتسببت فى استهداف أفغانستان من الخارج خاصة بسبب ما تردد حول مجازر تقوم بها ضد التنظيمات الشيعية على الحدود مع إيران، مثل حادثة قتل الدبلوماسيين الإيرانيين فى مزار الشريف عام ١٩٩٨، إلى جانب تمسكها بحماية أسامة بن لادن وما سببه ذلك من أضرار وخسائر سياسية ومادية فادحة لأفغانيين. وبشكل عام فقد وجه للحركة الكثير من الانتقادات بسبب افتقادها إلى برامج واضحة للحكم فى الميادين المختلفة السياسية والاقتصادية، كما أنها لم تستطع أن تكون حركة معبرة عن كل الشعب الأفغانى بسبب خلفيتها العرقية البشتونية.

تمويل الحركة

ترددت أقاويل كثيرة عن مصادر تمويل الحركة ومنها اعتمادها تجارة المخدرات فى الحصول على الأموال اللازمة لها. وقد ذكر وزير خارجية طالبان الملا وكيل أحمد متوكل أن جميع المزروعات من مواد مخدرة وقمح وأى شئ أخر يتوجب عليه العشر بمقدار الزكاة المفروضة ومصارفها الشرعية ، ونفى اتجار الحركة فى المخدرات

وأوضح أنهم قد قاموا بإزالة الحشيش تماماً، وكذلك الاتجار فيه ونقله، واستخدام المواد المخدرة والهيروين وأوقفت مصانعها.

موقف طالبان من الحملة العسكرية الأمريكية

أعلنت حركة طالبان من البداية عدم مسئوليتها عن الهجمات التي تعرضت لها الولايات المتحدة في ١١ سبتمبر، وقد انقسم قادتها إلى تيارين أساسيين بعد اندلاع الحرب مع الولايات المتحدة واشتداد القصف الجوي ثم تقهقر قوات الحركة أمام قوات تحالف الشمال، فأيد أحدهما وهو التيار المتشدد ضرورة مواصلة الحرب مهما كان الثمن مع الاستمرار في سياسة الكر والفر واللجوء إلى حرب العصابات لتحرير المدن التي احتلتها قوات الشمال. وأيد الاتجاه الآخر وهو التيار المعتدل ضرورة التفكير في رؤية للمستقبل. وقد فسر البعض حالة الانهيار السريع لطالبان أنها مجرد مناورة من جانبها لإعادة ترتيب الصفوف، وهي نفس الرؤية التي سعت طالبان إلى تغذيتها والحفاظ عليها، كما أكد هذا الرأي سفير الخارجية الأفغانية عزيز الرحمن عبد الأحد في ١٣ نوفمبر ٢٠٠١ عندما قال "إن طالبان الآن بصدد تجميع قواتها المسلحة لتبدأ في عمليات الكر والفر وحرب العصابات" وأوضح أحد قادة الحركة في لقاء معه أن هذا الأمر تم إقراره في مؤتمر للحركة قبل الضربات، واتُّفق على أنه يجب ترك المدن الأفغانية والتوجه إلى الجبال، فطالبان جاءت بالأساس لتحقيق الأمن للمواطنين وكان عليها ان تتمسك بهذا.

وفي الحقيقة اتسم موقف طالبان قبل اندلاع الحرب بالتهور الشديد وعدم تقدير عواقب مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية ويتضح ذلك من الشروط التي وضعها الملا عمر في رده على المطالب الأمريكية بتسليم أسامة بن لادن وقيادات تنظيم القاعدة وهي: "سحب أمريكا لقواتها من الخليج، ووضع حد لانحيازها الواضح إلى إسرائيل، ووقف تدخلها في شئون الإسلام" وهدد الملا عمر بأن عدم استجابة الأمريكيين لذلك سوف يعني "أنهم سوف يتورطون في حرب دامية ستحرقهم هم وغيرهم بدون جدوى". وقد قصد الملا عمر من هذا البيان إعطاء الانطباع بقوة الحركة وقدرتها على مواجهة الولايات المتحدة، والقدرة على إلحاق الخسائر بها وليس مجرد ردعها. وقد أدى هذا الموقف المتشدد من طالبان إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة سوف تدخل مستنقعا أفغانيا وأنها سوف تواجه بمقاومة مستمرة الأمر الذي لم يتحقق إلا في مستوياته الدنيا.

وبالنسبة لموقف حركة طالبان من أحداث ١١ سبتمبر فقد تراوح من نفي مسئوليتهم عن الحدث ونفيها عن أسامة بن لادن والرفض المطلق لتسليمه، إلى الحديث عن إمكانية تسليمه ومحاكمته إذا قدمت الولايات المتحدة الأدلة الكافية التي تثبت أدانته، إلى

التأكيد على رفض تسليمه بشكل مطلق بل وإعلان الجهاد ضد الولايات المتحدة وإعطاء أسامة الحق في الرد كما يشاء ضد العدوان الأمريكي. وبشكل عام فإن استعراض مسار التصريحات والمواقف التي اتخذتها طالبان أو أعلنت عنها يبرز درجة من العشوائية والافتقاد إلى موقف واضح للتعامل مع الحدث وتداعياته، وكذلك عدم تقدير حقيقي لحجم القدرات والإمكانات التي تمتلكها الحركة ويمتلكها الخصم "الولايات المتحدة تحديدا" ويمكن إدراك هذا من خلال استعراض أهم التطورات في موقف طالبان ودورها بعد أحداث نيويورك وواشنطن.

بداية وفي نفس يوم الحدث قامت الحركة بإدانة الهجمات ونفت أن يكون لها أو لأسامة بن لادن أي علاقة بها، وأنها تتجاوز قدراته على القيام بها وفي نفس الوقت أكد وزير خارجية طالبان أن الحركة لن تسلم بن لادن. إلا أنه في اليوم التالي ١٢ سبتمبر أعلن سفير طالبان في باكستان عبد السلام ضعيف أن الحركة ستنظر في طلب تسليم بن لادن بناء على إثباتات يقدمها المحققون الأمريكيون، ثم أشار في اليوم التالي إلى إمكانية تعاون الحركة مع الولايات المتحدة لمعرفة المسئول عن الهجمات مؤكدا خضوع بن لادن للإقامة الجبرية في نفس الوقت الذي نفت فيه الحركة صحة هذا النبأ. كما أعلنت إذاعة صوت الشريعة التابعة للحركة في نفس اليوم عن استعداد الحركة لتسليم بن لادن إلى محكمة إسلامية إذا قدمت الولايات المتحدة أدلة إدانته، مع إعادة تأكيد الملا عمر أن أسامة لم يرتكب هذا الأمر وأنه لا يملك القدرة على التخطيط لعملية بهذا الحجم. وبدا التخبط في التأكيد على براءة أسامة وفي الاستعداد لمحاكمته إذا ثبت تورطه بما يعني إدراك الحركة لإمكانية تورطه، بل والتفاوض على إمكانية تسليمه وفقا لشروط. وفي حين قرر مجلس شورى علماء أفغانستان في ٢٠ سبتمبر مناشدة بن لادن مغادرة أفغانستان طواعية وقرر إعلان الجهاد ضد الولايات المتحدة إذا أعلنت الحرب، رأينا سفير الحركة في باكستان يعلن في اليوم التالي أن الحركة لا يمكنها إرغام بن لادن على المغادرة وأن تسليمه إهانة للإسلام.

وحاولت طالبان إضفاء الطابع الديني على الحرب من خلال التحريض المستمر للعالم الإسلامي والمطالبة بإعلان الجهاد في كل أنحاء العالم لمواجهة التهديد الأمريكي، ودعوة الملا عمر مسلمي العالم في ١٠ أكتوبر إلى محاربة الولايات المتحدة واعتبر الذين يرفضون ذلك مرتدين، ودعوة علماء أفغانستان للتوصل إلى قرار شرعي بشأن مواجهة الهجوم الأمريكي ودراسة إمكانية إعلان الجهاد. كذلك تركيز الحركة المستمر أثناء الحرب على خسائر المدنيين الأفغان والتأكيد على بشاعة الهجوم الأمريكي في محاولة كسب التعاطف الإنساني والدعم الإسلامي.

الجـــزء الثالث

الأفـــــكار والمفاهـــــــيم

- العولمة وصدام الحضارات
- طالبان : مصير نظام متطرف
- العمليات الانتحارية
- "الجمرة الخبيثة" والحرب الجرثومية
- ١١ سبتمبر والصراع العربى الإسرائيلى

العـولـة وصـــدام الحضــارات

منذ أن نشبت أحداث ١١ سبتمبر وتم تفجير مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك ومبنى البنتاجون في واشنطن وما تلا ذلك من حرب أفغانستان وانهيار حركة طالبان والحرب ضد الإرهاب حدث بعثٌ فوري لنظرية "صدام الحضارات" التي كان عالم السياسة الأمريكي صمويل هنتنجتون قد روج لها خلال التسعينات. فالمشهد الملتهب بالنار للطائرات المتصادمة مع أبراج نيويورك ومبنى البنتاجون بدا كتجسيد مادي حي لصراع مروع بين جماعات بشرية مختلفة في العقيدة والحضارة والدين. ومع بزوغ نظرية صراع الحضارات مرة أخرى كان طبيعيا أن يثور الحديث أيضا حول "العولمة" ودورها فيما حدث، وعما إذا كانت نهايتها قد حلت، أو أنها لم تكن موجودة على الإطلاق وما كان العالم يحلم به طوال التسعينات لم يكن إلا أضغاث أحلام.

كان ما حدث في ١١ سبتمبر فرصة نادرة للحكم على نظرية أطلقها صاحبها في وقت لم يكن فيه الكثير من الشواهد والأدلة التي تؤيدها بصورة حاسمة. وبشكل عام يمكن الحكم على أي نظرية أو منظومة فكرية من المقولات المنطقية بوسيلتين، أولهما بإثبات قدرتها أو عدم قدرتها على تفسير الواقع، أو القدر الأعظم من الأحداث فيه، وثانيهما من خلال طرح بديل آخر أكثر قدرة على التفسير والفهم للواقع المعقد والمركب. وفي الحالتين فإن ذلك لا يثبت خطأ النظرية أو المنظومة الفكرية، وإنما يثبت أنها غير مفيدة في فهم ما يجري من وقائع وتفاعلات، وينطبق ذلك على ما قاله صمويل هنتجنتون وغيره عن "صراع الحضارات" كما ينطبق على أية نظرية أخرى. وبالتالي فإنها تختلف تماما عن الأيديولوجيات أو النصوص المقدسة التي لا يجوز لدى مريديها إخضاعها لأي نوع من الاختبار أو الحكم المستند إلى الواقع أو إلى وجود البديل. ولذا فإن النقاش حول الأفكار الأيديولوجية صعب للغاية إن لم يكن يستحيل القيام به طالما أن أفكار "الدحض" و "التحقق" و "البرهنة" قد جرى استبعادها منذ البداية.

وبالنسبة لنظرية "صراع الحضارات" فقد قام صاحبها عندما قدمها لأول مرة بعرض قائمة طويلة من الأحداث والوقائع التى تشير إلى أن احتدام الصراع بين البشر يتزايد بسبب الحساسية المتزايدة لحضارات العالم إزاء بعضها البعض، بل وحساسيتها الزائدة تجاه الحضارة الغربية على وجه التحديد نظرا لقوتها المتصاعدة. ويبدو ذلك حاضرا بقوة بين الحضارة الغربية من جانب والسلافية الأرثوذكسية من جانب آخر، وبين الأولى والحضارة الإسلامية التى تتصادم بدورها مع الثانية ومع الحضارة الهندوسية والكونفوشية التى تحتك وتوتر علاقاتها مع الحضارة الغربية أيضا.

والأمثلة الواقعية على ذلك متعددة من أول الخلافات الروسية الأمريكية، وحرب الخليج الثانية، وحرب البوسنة، والصراع الهندى الباكستانى حول كشمير، والغربى الصينى حول حقوق الإنسان. وكان بوسع هنتجتون ومناصريه أن يمدوا النظرية على استقامتها لكى تستوعب أحداثا تالية منها ضرب العراق المتكرر، وصراع حزب الله مع إسرائيل فى لبنان، وحماس والجهاد الإسلامى مع إسرائيل فى فلسطين، وحرب كوسوفو ومقدونيا، والاختبارات النووية الهندية والباكستانية، والعوائق التى وضعت أمام الصين للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وتلك التى وضعت أمام تركيا ومنعتها من الانضمام إلى الجماعة الأوروبية.

ولقد تعرضت نظرية صمويل هنتجتون أستاذ العلوم السياسية فى جامعة هارفرد الأمريكية لانتقادات كثيرة واعتبرها البعض محرضة للصراع أكثر من أنها تتنبأ به. واختار هنتجتون أن يرد عليهم فى مقالة بعنوان "إذا لم تكن الحضارات، فماذا؟" نشرت فى عدد نوفمبر -ديسمبر ١٩٩٣ من مجلة "فورين أفيرز" أو الشئون الخارجية ذائعة الصيت. وبهذا العنوان كان الرجل يلقى القفاز فى وجه الناقدين له ولنظريته ومنظومته الفكرية التى قامت على التأكيد على فكرتين جوهرتين هما: أولا، أن "الحضارة" صارت بشكل متزايد هى وحدة التفاعل فى العلاقات الدولية وبذلك تصبح "الحقيقة التى تستحق الموت من أجلها" وليس الدولة القومية، أو العالم ككل، كما قال بذلك أصحاب نظريات أخرى. وثانيا، أن هذه الحضارات - التى عدّها سبعاً - فى حالة صراع متزايد سوف يُشكل المعالم الأساسية للسياسة الدولية فى المستقبل.

وكان وجه التحدى فى المقال هو أنه لا يمكن استبعاد نظرية أو منظومة فكرية من التحليل ما لم يتوفر شرطان لدحضها هما أن تكف عن تفسير الواقع وأحداثه وتجعله "مفهوما" وإن لم يكن مقبولا بالضرورة، وأن تتوفر نظرية أو منظومة فكرية أخرى قادرة على القيام بهذه المهمة بشكل أكثر كفاءة؛ أو كما قال بالحرف الواحد "هل لديكم فكرة أفضل ؟".

وعندما تفجرت أحداث الهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك وما تلاه من تفاعلات الحرب ضد الإرهاب في أفغانستان بدا أن دليلا إضافيا آخر قد أصبح في متناول اليد لإثبات مدى قدرة النظرية وفائدتها في تفسير الصراعات. فالمشهد الافتتاحي كان معبرا عن الصراع في أنقى صوره، وعندما خرجت تصريحات غربية تشير إلى الحروب الصليبية وتخلف الحضارة الإسلامية، كان هناك في العالم الإسلامي من تلقفها فورا غير قابل لأي اعتذار أو تراجع فيها باعتبارها المعبّر "الحقيقي" عن النوايا الغربية. وعندما خرج أسامة بن لادن على العالم بشرائطه من خلال قناة الجزيرة التليفزيونية أو عن طريق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كان مضمون الرسالة واضحا ومعبرا عن عالم منقسم إلى معسكرين: أحدهما إسلامي والآخر غربي. وربما لم يكن بن لادن يحتاج كثيرا إلى صمويل هنتجنتون ونظريته ومقولاته الفكرية لكي يروج لصراع الحضارات فقد كان وراءه تراث عربي وإسلامي طويل من المقولات المقدسة التي تعبر عن نفس المضمون والغير قابلة للنقاش ولها أتباع كثيرون يستعذبون الموت في سبيلها.

ولاشك أن الأحداث التي تلت هجوم ١١ سبتمبر كانت مفعمة بالتفاصيل التي ترجّح فوز نظرية "صراع الحضارات" وقدرتها على تفسير وفهم الأحداث بأكثر من غيرها. إلا أن الأحداث نفسها كانت مفعمة أيضا بتفاصيل أخرى وحقائق تتناقض مع هذه النظرية. وربما كانت الولايات المتحدة ذاتها أول من قدم مفارقة واضحة مع نظرية صراع الحضارات، فبعد أحداث نيويورك البشعة أجرت مؤسستا رويتر وزغبي استطلاعا للرأي نشر يوم ١٧ سبتمبر – أي بعد ستة أيام فقط من التفجيرات - جاء فيه أن المشاركين في الاستطلاع يُميّزون جيدا بين الإرهابيين وأية جماعة عرقية أو دينية. فقد قال ٨٤% من الأمريكيين إنهم يعتبرون الولايات المتحدة في حالة حرب مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين "ربما يكونون مسلمين" مقابل ٨% اعتقدوا أن أمريكا في حالة حرب مع الإسلام. وعندما أجابوا عن سؤال عما إذا كان الإسلام دينا يشجع على التعصب فإن ٤٢% اختلفوا مع هذه المقولة ووافق عليها ٣٨%. وردا على السؤال عما إذا كانوا يفضلون أو لا يفضلون العرب الأمريكيين، جاءت الإجابة بالتفضيل وقدرها ٦٢% وعكسه ١٢% فقط، وحتى عندما امتد السؤال عن العرب ككل جاءت الإجابة بالتفضيل قدرها ٤٥% وعكسه ٣٣%. وبالنسبة للمسلمين الأمريكيين كانت نسبة التفضيل ٥٦%، وعدم التفضيل ١٩%، أما بالنسبة للمسلمين على عمومهم فقد كان التفضيل ٤٥% وعدم التفضيل ٣٠%.

معنى ذلك أنه لم توجد حالة نقية من العداء "الحضاري" مع العرب والمسلمين في الولايات المتحدة حتى في ساعة السخونة الكبرى للحدث ووسط الاندفاع المحموم لليمين المسيحي الذي انطلق في تكرار مقولات تاريخية عن صراعات أبدية مع

الإسلام لا يفتر لها حماس. كانت مؤشرات استطلاعات الرأي العام تحت وطأة الأحداث المفاجئة معبرة عن حالة من التفضيلات والاختيارات الموزعة بين مواطني الدولة، ولها بعد ذلك أن تتغير باختلاف الظروف والأحوال والمصالح والأهواء، بل إنه على الأرجح كانت هذه النتائج النافية لحتمية الصراع بين الحضارات والأديان المختلفة وراء التعديل الذي جرى في خطاب السياسيين نحو الاعتدال ورفض ومقاومة العبارات المتطرفة التي تدفقت بدون وعي من أفواه بعض السياسيين في اللحظات الأولى.

وبالمثل كان الحال في العالم العربي والإسلامي، ورغم عدم وجود استطلاعات مماثلة للرأي العام، فإن هناك الكثير من الشواهد التي تدل على أن الشعوب لم تتحمس كثيرا لنظرية صراع الحضارات أو على أقل تقدير لم يحدث لديها إجماع أو حتى توافق اجتماعي وسياسي على الصدام مع الغرب. فخلال الأسابيع الأولى التي تلت أحداث ١١ سبتمبر كانت الصيحة هي أن العرب والمسلمين لن يتركوا أفغانستان تقف وحدها في المعركة، وأن عملية الاستقطاب الحضاري سوف تأخذ مداها بين المسلمين والغرب. لكن ذلك لم يحدث، وبعد مجموعة من المظاهرات الأولية لتأييد أفغانستان في عدد من العواصم الإسلامية فإن الظاهرة برمتها تلاشت سواء في الجامعات أو أثناء صلوات الجمعة رغم الجهود الدعوية من جماعات الصدام الحضاري والفضائيات التلفزيونية العربية التي لم تكف لحظة عن حث الجميع على الخروج والمواجهة. وكان المشهد في باكستان بالذات موحيا للغاية، فقد قيل إن الشرعية الباكستانية تستند في الأساس إلى هذا النوع من الصراع الحضاري، كما قيل إن الجماعات السياسية الإسلامية مهيمنة ومسيطرة على الشارع السياسي، وقيل كذلك إن القضية في إسلام أباد ليست فقط هوية وحضارة وإنما مصالح استراتيجية في الفناء الخلفي للدولة. ومع ذلك فقد تصرفت باكستان كدولة قومية من الدرجة الأولى، ووقفت إلى جانب الولايات المتحدة كما لم تقف دولة أخرى في العالم، وعندما دعى أنصار الصراع الحضاري إلى مظاهرة من مليون شخص، لم يصل إلى ساحة التظاهر سوى خمسين ألفا، ومن بعدها اختفت التظاهرات كلها، اللهم إلا من مسيرات سلمية مؤيدة للحكومة الباكستانية التي ذهب رئيسها برويز مشرف إلى الولايات المتحدة للقاء مع الرئيس جورج بوش المفترض أنه منتم إلى الحضارة الأخرى المعادية للإسلام.

وجاءت أبلغ المشاهد المناقضة لنظرية صراع الحضارات من داخل أفغانستان نفسها. فبالإضافة إلى حقيقة وجود عراك مميت بين الفصائل الأفغانية الإسلامية نفسها والتي تنتمي إلى نفس الحضارة جاءت وقائع حرب أفغانستان لتبين أن التحالف الشمالي - وكثرته من المجاهدين- لم تقبل بفكرة الصراع الحضاري ومن ثم تكوين جبهة مع طالبان لمواجهة الولايات المتحدة، بل اختارت بدلا من ذلك أن تكون في جبهة واحدة

مع الولايات المتحدة ومن معها من الدول الغربية. والأعجب من ذلك أنه خلال الحرب نفسها تولت جماعة البشتون - وهى نفس الجماعة العرقية التى تنتمى إليها حركة طالبان - تصفية آخر معاقل طالبان فى قندهار. ولم يكن فى ذلك جديد، فقد كانت العداءات موجودة داخل نفس الحضارات طوال سنوات التسعينيات، سواء كانت إسلامية فى الخليج (الحرب العراقية - الإيرانية وغزو العراق للكويت ثم حرب الخليج الثانية)، أو مسيحية فى البلقان (حرب كوسوفو) أو فى أيرلندا فى أوروبا.

ولو تتبعنا الأحداث والوقائع لوجدنا جوانب أخرى للصورة لا تقدم لها نظرية "صدام الحضارات" أى تفسير، وقد تقودنا إلى نظرية أخرى بديلة أكثر كفاءة فى تفسير العالم ومتغيراته. فلم يكن العالم – بكل حضاراته - متحدا من قبل كما اتحد فى مواجهة الإرهاب، فبعد فترة قصيرة كانت هناك ٣٦ دولة على استعداد للمشاركة فى العمل العسكرى ضد قواعد إرهاب "القاعدة" فى أفغانستان، وكانت هناك ٤٤ دولة على استعداد لتقديم حقوق عسكرية لمرور القوات وتسهيلات لوجيستية، أما بقية دول العالم فقد قدمت قدر الطاقة من المساعدة بالمعلومات ومتابعة المصادر المالية للإرهابيين. وفيما عدا جماعات قليلة فى العالم العربى والإسلامى، فإن شعوب العالم كلها كانت مؤيدة للقضاء على الإرهاب.

والحقيقة أن نظرية "صراع الحضارات" تعانى من عوار داخلى أساسى يتمثل فى أنها تسلم بأن الصراع بين الحضارات خلال العقد الماضى لم يكن أقل مما كان داخل الحضارات ذاتها. وهى مفارقة منطقية ومصادرة على المطلوب ليست مقبولة فى بناء النظرية ذاتها التى لا يمكنها علميا أن تفسر الشىء ونقيضه فى ذات الوقت، وإلا فإنها لن تزيد فى حجيتها عن نظرية المؤامرة التى لديها هذه القدرة. فالمسألة هى عما إذا كانت الحضارات تمثل وحدات متماسكة للتفاعل الدولى تتصارع مع بعضها البعض بسبب خطوط تماس وتناقضات كثيرة، أم أنها ليست كذلك وتتصارع فى داخلها بسبب الانقسام إلى دول وإلى مصالح متعددة تشكل تحالفات "عبر حضارية" لا تختلف إطلاقا عن التحالفات "عبر القومية" المعروفة .

والأخطر من ذلك ما قاله هنتجتون بعد تفجر أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى مقالة له نشرت فى مجلة "النيوزويك" الأمريكية عدد ٢٥ ديسمبر ٢٠٠١ تحت عنوان "زمن حروب المسلمين" فقد انحدر بنظريته تماما وأفقدها أية قدرة على التفسير الكلى للعلاقات الدولية عندما كاد يقصرها على الحضارة الإسلامية وحدها بقوله إن "السياسات الحالية فى العالم تتمحور حول زمن حروب المسلمين. فالمسلمون - من وجهة نظره - يتقاتلون فيما بينهم ويقاتلون غير المسلمين أكثر بكثير مما تفعله شعوب من حضارات أخرى". هنا تتحول النظرية من "صراع الحضارات" إلى نظرية حول

نزعة حضارية بعينها للصراع سواء مع نفسها أو مع الآخرين، وهذه قضية تختلف جوهريا – نظريا وعمليا – عن النظرية الأصلية.

وبهذا المعنى فإن مجموعة الأرقام والإحصائيات التى أوردها حول تورط المسلمين فى ثلثى النزاعات العالمية عام ٢٠٠٠ بينما هم يشكلون خُمس سكان الأرض فقط كانت نوعا من البهلوانيات الإحصائية التى لا تقول شيئا وإنما تشارك فى حرب دعائية مبتذلة. فلم تقل تلك الإحصاءات شيئا عن المعتدى والمعتدى عليه فى هذه الصراعات، ولم تبين صاحب المبادأة فى عملية الصدام، ولا توازن القوى فيها، ولا حتى طبيعة التحالفات الدولية التى جرت بشأنها وضمت تحالفات مع غير المسلمين. وبهذا المعنى فإن الغرب كان متورطا فى كل الصراعات التى تقع ما بين المسلمين، وبينهم والحضارات الأخرى، فقد تحالف معهم فى البوسنة وكوسوفو والكويت، وضدهم فى فلسطين وتيمور الشرقية. وهكذا لو تم الحساب بذات الطريقة لصار الغرب – الأقل عددا من المسلمين – له النصيب الأكبر من الصراعات، ولكانت طريقة الحساب كلها خاطئة، وقائمة على عملية عد متعسفة للأحداث العالمية، وهى تعطى عددا للظاهرة ونقيضها فى ذات الوقت ثم تجمعهما معا. ومن المدهش أن عالم السياسة الشهير كانت لديه حالة من "الانتقائية" الشديدة للوقائع التى يرغب فى تفسيرها، فقد استبعد أحداثا ووقائع بالغة الأهمية من دائرة الدلالات الخاصة بالنظرية، وكان المشهد الآسر لديه هو مشهد المظاهرات الإسلامية الغاضبة، وأربطة الرأس الحمراء والخضراء الدالة على الرغبة فى الاستشهاد، والأهم من ذلك صور أسامة بن لادن وشرائطه التلفزيونية التى برهنت - من وجهة نظره - كما لم يبرهن شئ من قبل على صدق نظريته عندما أشار بن لادن إلى انقسام العالم إلى "فسطاطين" لا يوجد بينهما إلا الصراع والحرب، ويعب كلاهما من بئر الحروب الصليبية التى لم تنته بعد.

ومع ذلك استمر التحدى الذى طرحه هنتنجتون قائما وبشدة، فلم يكن كافيا إثبات عدم فائدة النظرية فى تفسير واقع بعينه بالإشارة فقط إلى الوقائع التى تعجز عن تفسيرها، بل كان لابد من طرح نظرية أخرى بديلة لديها قدرة على تفسير عدد أكبر من الأحداث.

موقف العولمة

تمثل نظريتا "نهاية التاريخ" لفوكوياما و "صدام الحضارات" لهنتجنتون أبرز المحاولات النظرية لتفسير عالم ما بعد انتهاء الحرب الباردة. فبينما حاولت الأولى التأكيد على أن هذا العالم قد بات أسير موجة واحدة للتطور الإنسانى فى شكل الرأسمالية والليبرالية لا يناقضها ولا يقف فى طريقها شىء، فإن الثانية رأته عالما تتقاسمه موجات حضارات متصادمة ومتناقضة ويتزايد تصادمها وتناقضها مع الوقت

والزمن. ومن الواضح - كما تمت الإشارة سابقا - أن نظرية صدام الحضارات لم تفسر الوقائع التى صاحبت نشوب الأزمة العالمية فى ١١ سبتمبر ولا حتى السابقة عليها خلال العقد الماضى. وفى المقابل بدت نظرية "العولمة" هى الأكثر قدرة على تفسير وقائع قيام التحالف الدولى لمحاربة الإرهاب والذى قام عبر علاقات حضارات متعددة، بالإضافة إلى أحداث أخرى تعلقت بالتجارة والعلاقات الاقتصادية الدولية فى أوروبا ومنطقة آسيا والباسفيك.

فمثلا لم يكن سهلا تفسير حالة التأييد الكبير من قِبَل دول مثل الصين وروسيا والهند للولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب بدون اعتبارات تُغَلِّب العولمة الجيو اقتصادية على الخصوصية الجيوبولتيكية. وأيضا لم تَحُلْ ظروف الحرب فى أفغانستان من انعقاد مؤتمر منظمة التجارة العالمية فى الدوحة – قطر برغم تصاعد الدعوة إلى إلغائه. وجاء انعقاد المؤتمر فى عاصمة عربية هى الدوحة، وفى بلد إسلامى يشغل فى نفس الوقت رئاسة منظمة المؤتمر الإسلامى، وعلى مسافة ليست بعيدة من موطن ميلاد أسامة بن لادن فى المملكة العربية السعودية المجاورة، لكى يدل على أنه مهما تنوعت الثقافات والحضارات، فإن كلها راغبة فى توسيع وتعميق العلاقات الاقتصادية فيما بينها. وكان من المدهش للغاية أن ينجح مؤتمر الدوحة – وهى دولة عربية إسلامية ومن دول العالم الثالث - فى التوصل إلى توافق دولى على البيان الختامى وينجح فى ضم الصين إلى المنظمة، بينما فشل مؤتمر سياتل تماما من قبل فى قلب أمريكا والعالم المتقدم فى تحقيق ذلك. وقد واكب ذلك نجاح آخر لمسيرة التجارة العالمية على طريق العولمة، فقد ابتعد العالم عن حافة الانهيار الاقتصادى الكلى بعد أحداث نيويورك، وانعقد فى الصين – وبنجاح - مؤتمر قمة "الأبيك" – التى تضم دولاً إسلامية ومسيحية وكونفوشية وبوذية وهندوسية. وفى ذات الوقت استمرت مسيرة الاندماج الاقتصادى والسياسى عبر حضارات متنوعة بالتطبيق الفعلى لاستخدام "اليورو" على ١٢ دولة من دول الاتحاد الأوروبى، وبدأ العد التنازلى لانضمام دول أوروبا السلافية الأرثوذوكسية، وتركيا الإسلامية، إلى الاتحاد الأوروبى.

ورغم استمرار قدر من المواجهة بين الولايات المتحدة من جانب وحركة طالبان وتنظيم القاعدة من جانب آخر - مما قد يفسَّر بصراع للحضارات - إلا أنه لا يمكن النظر إلى هذه الواقعة دون النظر فى التعاون الأمريكى القائم مع القوى الأفغانية المتنوعة بما فيها قبائل البشتون. كذلك لا يمكن تجاهل عملية الهندسة "العالمية" للتغيير السلمى فى أفغانستان والتى وضع تصميمها عربى مسلم هو الدبلوماسى العربى الجزائرى القدير الأخضر الإبراهيمى، وتنفذها الآن حكومة نصف أعضائها تقريبا من أصحاب الجنسية المزدوجة، والأمريكية تحديدا، ولا يبدو حتى الآن – كما حدث فى

مجتمعات أخرى – أن الأفغان قد اعترضوا عليها كما توقع الكثيرون. وكذلك فإن نظرية صدام الحضارات تفقد أقدامها بقرار الرئيس الأمريكي جورج بوش بتقديم مساعدة اقتصادية لمصر – العربية المسلمة -قدرها ٩٥٩ مليون دولار لأنها "شريك رئيسي" في الحرب ضد الإرهاب.

هل معنى ذلك أن فوكاياما قد انتصر في النهاية على هنتجنتون وأن مسيرة "العولمة" وانتشار النموذج الرأسمالي الليبرالي في العالم لا يزال مستمرا، ومن ثم فإن التاريخ الذي انتهى منذ أكثر من عقد لا يزال منتهيا، وما حدث في سبتمبر في نيويورك وتوابعه في أفغانستان لا يزيد على كونه جملة اعتراضية في نص كبير لم يعد فيه نقيض يبرر الحديث بالمعنى الديالكتيكي عن استمرار التاريخ؟ هنا لا توجد إجابة سهلة وبسيطة، ومن الضروري الإشارة إلى عدد من الأمور الهامة، أولها أنه ليس صحيحا علميا الحديث عن انتصار نظرية على أخرى، وإنما يمكن القول أن أحدهما أكثر فائدة من الأخرى في تفسير وقائع بعينها . وثانيها، أن نظرية "العولمة" أكثر شمولا من مجرد النموذج الليبرالي الرأسمالي، بل لعلها تشمل فكرة الحضارات أيضا، لأنها لا تقصرها على الهوية الثقافية فقط كما فعل هنتجنتون، بل لأنها شملت أيضا المنتج الكامل لجماعة بشرية بعينها، وبالتالي فإنها لا تركز على حدود الثقافات، بل تشارك تلك الثقافات معابر المصالح وجسور الجغرافيا، وتفسير التاريخ بمعنى المستقبل وليس معنى الماضي.

وبرغم ذلك لم يكن فوكاياما أقل سوقية وابتذالا عن هنتجنتون عندما اقترب من حالة العالم الإسلامي – كما جاء في مقاليهما في أحد أعداد مجلة النيوزويك – فبينما رآه الثاني جماعة تنزع إلى العنف بعضها مع بعض ومع الآخرين، فإن الأول رآه عاجزا عن التحديث والاندماج في النظام المعاصر. وبشكل ما فإن كليهما يتخلى تماما عن القواعد الرئيسية للنظرية السياسية عندما يقدم حالة استثنائية للمسلمين تقع خارج العلم وخارج التاريخ، وكأن "الفاشية الإسلامية" لا يوجد ما يماثلها من فاشيات أخرى متعددة داخل جماعات وحضارات غربية وغير غربية، ونجد لها رموزا من دعاة التفوق العنصري الأبيض في الدول الغربية المختلفة، ومن أتباع سلوبودان ميلوسوفيتش في يوغوسلافيا وجيرنوفسكي في روسيا، وأمثال أرييل شارون في إسرائيل.

ويبدو – وهذا هو أهم الأمور – أن هذه الفاشيات مجتمعة ربما كانت هي التي توفر لنظرية "العولمة" تناسقها واتساقها التاريخي، وتجعلها أكثر فعالية وقدرة على التفسير. فما جاء به فوكاياما - على عكس ما شاع من كتابات في العالم العربي والإسلامي - لم يكن انتهاء التاريخ بمعنى انتهاء الأحداث والوقائع، بل ولا حتى انتهاء الصراعات،

وإنما انتهاء الجدل أو الديالكتيك الخاص بوجود النقيض التاريخي للنموذج الليبرالي الرأسمالي. والحقيقة فإن النقد الغربي لنظرية فوكاياما - وليس العربي - قام أساسا على محاولـة البحـث فـي الواقـع عـن هـذا النقـيض، وبينمـا رآه هنتجنتـون فـي "صـدام الحضـارات" فـإن جيمس روزنـاو مـثلا رآه فـي التفكك والانقسـام خاصـة علـى أسس عرقية وإثنية، باعتبار ذلك هو النقيض لعملية الاندماج العالمية. وربما كانت المشكلة أن كلاهما لم يأتِ من قلب "العولمة" ومن ذات نسيجها حتى يوفر نقيضا عضويا لها، ولكن الفاشيات المتعددة الأعراق والحضارات والعابرة للقوميات، والمستندة إلى قواعد اقتصـادية واجتماعيـة وفكريـة تـرى فـي "العولمـة" شـرا مسـتطيرا، وتنافسـا صـعبا، وتسامحا مع ما لا يجب التسامح فيه ومعه، وانفتاحا حيث يجب إقامة الأسوار، وربما كانت هي في النهاية ذلك النقيض الذي يعيد للنظرية قدرتها على تفسير العالم وفهمه في تقدمه وتراجعه على حد سواء.

طــالبان : مصير نظــام متطرف

يكتسب تأمل ما جرى لحركة طالبان الأفغانية أهمية خاصة فى ظل صعودها السريع على المسرح السياسى وانتكاسها المفاجئ على مسرح القتال واختفائها بعد ذلك تقريبا كأنها لم تكن. ورغم استمرار عمليات المطاردة للملا محمد عمر، ولأسامة بن لادن، وغيرهم من قادة طالبان والقاعدة إلا أن تنصيب الحكومة المؤقتة فى كابول تحت رعاية دولية، وانتهاء سلطة طالبان فى كل المدن والولايات الأفغانية يشير إلى أن قصة هذه الحركة قصيرة العمر قد وصلت إلى فصلها الأخير. وربما كان مشهد عبد السلام ضعيف – سفير أفغانستان أو طالبان لدى باكستان– وهو يطلب حق اللجوء السياسى موحيا للغاية، بعد أن ظل هو المصدر الوحيد الرسمى من حركة طالبان الذى ينقل الأخبار عنها للعالم. وكان هو وحده الذى يجلس أمام حشد هائل من المراسلين، ومحطات التلفزيون والإذاعة لكى ينقل رواية كابول الطالبانية للأحداث. ومع تقدمه بطلب اللجوء السياسى كان ذلك يعنى – على الأقل – أن واحدا من ملفات الحرب الأفغانية، والمتعلقة بحركة طالبان، قد انتهى أو شارف على الانتهاء.

فحركة طالبان تمثل نوعا من الحركات الإسلامية التى برزت خلال العقود الأخيرة على الساحات السياسية العربية والإسلامية لكى تقدم مشروعا للخلاص من هوة التخلف وضعف المكانة فى العالم وما تراه نوعا من العدوان الغربى المستمر على أمة العرب والمسلمين. ومن بين هذه الحركات التى تغطى كل ألوان الطيف ما بين الاعتدال والتطرف، فإن طالبان حاولت تقديم نفسها على أنها تمثل الحالة "النقية" من التيار الإسلامى التى لم تلوثها إغراءات الغرب المتنوعة، ولا حتى مست عفتها أموال النفط والبنوك الإسلامية والفضائيات التلفزيونية. وبهذا المعنى كانت طالبان منظمة "جهادية" تؤمن بالجهاد المستمر ضد النفس الأمارة بالسوء من خلال سلسلة من أعمال التقشف والزهد، والجهاد ضد عالم شرير أخذ صورا متنوعة ما بين الغرب وتحالف الشمال الذى ضم "المجاهدين" السابقين.

ولذلك لم يكن مدهشا أبدا أن تتحالف طالبان مع تنظيم القاعدة وباقى التنظيمات الجهادية الأخرى على مستوى العالم. وعندما قام الأمريكيون وأنصارهم من الأفغان بأسر ما يسمى بالأفغان العرب، ظهر أن التسمية لم تكن دقيقة، فقد كان هناك باقة من المجاهدين ينتمون إلى العالم أجمع من الشيشان والبوسنة وكوسوفو وبريطانيا وأستراليا وفرنسا وحتى الولايات المتحدة الأمريكية. وبمعنى من المعانى كانت الحركة "الدولية" أو "عالمية" تذكرنا بالحركات التروتسكية الماركسية التى رفضت أفكار لينين عن الاشتراكية فى بلد واحد، وفضلت بدلا عنها فكرة "الثورة المستمرة" و"الثورة العالمية". وإذا كانت عباءة تروتسكى قد أفرزت فى الماضى جماعات ثورية من أنواع الألوية الحمراء فى إيطاليا، والجيش الأحمر فى اليابان، وبادر ماينهوف فى ألمانيا، والفهود السود فى الولايات المتحدة، وشخصيات من نوعية "تشى جيفارا"، فإن عباءة سيد قطب ربما كانت هى التى أفرزت فى النهاية جماعات الجهاد المختلفة، ومعها شخصيات أسامة بن لادن والظواهرى ومن شاركهم الفكرة والمنهج.

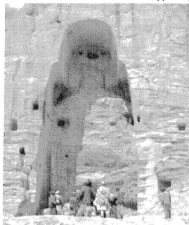
وعلى أى الأحوال فإن مصير الحركات الإسلامية والجهادية كان واحدا، ونجح العالم بطرق مختلفة فى الحد من وجودها، وإن لم يكن ممكنا الزعم أبدا أنه تم القضاء عليها. ولكن من الناحية العملية فقد أفل نجم طالبان ومشروعها، وأصبح من الواجب وضعها تحت المجهر، ليس فقط كحالة تاريخية تستحق ذلك، وإنما لأن فكرها لا يزال موجودا فى الساحة، ولأن لدى عدد غير قليل من العرب والمسلمين مَيْلا لتكرار التجارب الفاشلة.

فكر طالبان

أهم ما يميز فكر طالبان والجماعات التى تسير على دربها أنه يدفعا فى اتجاهات بعيدة عن معارك التنمية والبناء المادى والروحى للأمم، فنقطة البداية فيه أن الدولة فى حالة صراع وعداء دائم مع الآخرين، وأن الإسلام ليس مجرد دين من أديان البشر، ولكنه دين خاص لا يكف الآخرون عن الكيد والعداوة له. وهو الأمر الذى ظهر واضحا عندما ذهب وفد من علماء المسلمين إلى أفغانستان من أجل حث طالبان على عدم هدم تماثيل بوذا فى باميان والذى أورده الأستاذ فهمى هويدى فى كتابه الهام "طالبان، جند الله فى المعركة الغلط ، القاهرة ، دار الشروق ، ٢٠٠١" حين قال لهم الملا نور ثاقب: "نحن لا نفهم تلك الضجة المثارة حولنا بسبب ما قررناه ـ يقصد هدم التماثيل ـ إذ غاية ما فعلناه أننا تمسكنا بديننا وطبقنا تعاليمه. إننا لم نعتد على أحد، ولم نظلم أحداً، وإنما تصرفنا بوحى من عقيدتنا وفى حدود بلادنا. ونحن نعلم أنهم حانقون علينا فى الخارج ولا يكلون من الكيد لنا بسبب إصرارنا على إقامة الدين فى البلاد. ولذلك أصبح الدين هو محور خلافنا مع الآخرين". وعندما رفض الشيخ القرضاوى هدم التماثيل، ليس على أسس فقهية وإنما على أسس عملية لتجنب الإضرار بمصالح

الأقليات المسلمة فى بلدان أخرى – وهو ما يعد مفسدة أكبر ، كان رد الملا هو أن "العالم الذى تتحدثون عنه هو عدونا فى كل الأحوال، هدمنا الأصنام أم لم نهدمها. وامتناعنا عن الهدم لن يغير شيئا من موقفه إزاءنا".

إن هذه النظرة للذات وموقعها من العالم تكاد تكون شائعة فى كل الحركات الإسلامية، بل إنها تكاد تكون صنو كل الثورات والحركات السياسية العربية. ورغم أن تاريخ العالم يشهد بصراعات طويلة بين أمم وقوميات وحضارات كثيرة، ورغم أن العالم الغربى استعمر أمما كثيرة بحجم الهند، والعالم اللاتينى، بل وضغط ضغطا هائلا على أمة عظمى مثل الصين،فإننا لا نجد مثل هذه الحالة من العداء الأبدى بين هذه الدول وبين الدول التى استعمرتهم. ولو تأملنا موقفا آخر حدث بعد غزو العراق للكويت وتحرك العالم الغربى، والعربى أيضا، ضد هذا العدوان لوجدنا أنه فى هذه الحالة أيضا كان الدفاع عن الموقف العراقى أن غزو الكويت لم يكن هو القضية، لأن العالم كان ضد قوة العراق وكفى، وأن العالم لا يمكن أن يقبل بأمة عربية قوية، ولن تتوقف محاولاته من أجل تصفيتها.



هدم تمثال بوذا – مارس ٢٠٠١

هذه النظرة العدمية التى ترى "أن العالم لن يرضى عنا أو يرحمنا فى كل الأحوال" كما قال الملا نور ثاقب هى التى تدفع دفعا باتجاه الصدام، لأنها تعتبره نوعا من تصديق للنبوءة التى ترقى إلى مرتبة الإيمان. وطالما أن الموضوع كله يقع فى دائرة الدين والاعتقاد، فإن طلب المعركة بالنسبة للحركة الثورية، وهى فى هذه الحالة تحديدا طالبان، يمثل نوعا من السعى نحو "الشهادة" التى تعتبر المحك الرئيسى للحالة النضالية. هنا فإن "السياسة" و"الدبلوماسية" تصبح أدوات لا معنى لها، ونوعا من "الكلام" الذى لا طائل منه، ويظهر ذلك كثيرا من موقف الحركات الإسلامية المختلفة من عملية السلام فى الشرق الأوسط حيث تبدو دوما وكأنها نوع من التغطية المستترة للاستسلام. وفى حالة أفغانستان كان ذلك موجودا بالنسبة لحركة طالبان منذ تداعت الحوادث التالية للحادى عشر من سبتمبر حينما لم ترفض فقط تسليم المشتبه فيه أسامة بن لادن وصحبه، بل أنها بدت غير مكترثة تماما بالتحالف الدولى، والإقليمى أيضا، الذى يتجمع ضدها.

إن هذه النوعية من جند الله تذهب دائما بإصرار شديد ليس فقط إلى المعركة الخطأ، بل أيضا إلى المعركة التى كان يمكن تجنبها. فالنوعية الأصولية التى مثلتها طالبان لم تكن تشغل بال أحد فى العالم، بل ربما نظر العالم لها باستحسان لأنها وفرت قدرا من الاستقرار لأفغانستان. وبشكل ما لم يكن ذات العالم ينظر بالقبول إلى المناوئين لهم من المجاهدين نظرا للتجربة بالغة السوء التى قدموها من قبل وأدت إلى حرب أهلية طاحنة بين الفرق والشيع المختلفة. ولكن طالبان لم يكن بإمكانها الإحساس بالقبول العالمى، بل ولم تجد غضاضة فى أن تكون المأوى ليس فقط لشبكة القاعدة، بل لكل المناضلين فى العالم. وإذا كان العالم سوف يقف ضدها فى كل الأحوال، فإنه من الطبيعى التحالف مع كل من يقف ضده من المجاهدين والمكافحين بل وحتى المغامرين من الأمريكيين والأستراليين والفرنسيين.

إن هذه الحالة من القدرية المذهلة فى الاستسلام لفكرة الصراع مع العالم، والغرب تحديدا، لا تجعله حتميا فقط بل تجعله أيضا ضرورة لمصداقية حركة طالبان أو من شابهها من حركات. وفى كثير من الأحيان فإن هذا الصراع يصير جوهر عمليات المزايدة بين أقطابها إلى الدرجة التى تضيع معها كل القضايا "الصح" الأخرى. فعندما ذهب الوفد الإسلامى إلى كابول لمحاولة إنقاذ التماثيل البوذية وقبل أن يقابل الملا عمر طلب منهم أعضاء من حركة طالبان أن يشمل الحديث مع الملا عمر بجانب موضوع التماثيل إيضاح أن الإسلام ليس أفغانستان فقط، ولا هو الفقه الحنفى فقط، ولا المحكمة الشرعية فى كابول وحدها، وأن يقترحوا توسيع دائرة التشاور مع علماء العالم الإسلامى، والعمل على تطوير مناهج التعليم، لأن ذلك سوف يساعد كثيرا فى تخريج أجيال مدركة لحقائق الدين والدنيا معا. وأضافوا أيضا "إنكم تحدثون أمير المؤمنين فى

ضـرورة التواصل مـع الإعـلام فـى العالم، لأن الإعـلام عندنا ضـعيف وفاشل؛ ولـذلك افترسنا الآخرون وشوهوا صورتنا".

والمشكلة أن الذهاب للمعركة "الخطأ" كان حتميا لأنه لم يكن ممكنـا طـرح القضـايا "الصح"، وكأن أعضـاء الحركة نفسها فى حاجة إلى وفد الخارج يملك الشجاعة لطـرح المواضيع التى يرونها ضـرورية أمام الأمير. ولم تكن طالبان استثناء من الحركات الثورية والجهادية فى العالم العربى والإسلامى، ففيها جميعا سوف نجد هذه الصـورة ليس فقط من غياب الحرية، بل وحتى غياب قدرة أعضاء الحركة والمناضلين فيها على طرح القضايا الصحيحة. ولكن الاعتقاد فى عدوانية العالم ليس وحده الذى يقود إلى المعركة "الخطأ"، وإنما هناك دواع أخرى لا تقل أهمية.

منها مثلا تغلب نزعة الخطيئة والمعصية فى ماهية الإنسان وجوهره على كل جوهر آخر خاص بالعمران والإنتاج والإضافة إلى الفكر الإنسانى خلال فترة حياة البشر القصيرة، ومن هنا تأتى المركزية الشديدة لقضية المرأة التى يوليها الفكر الإسلامى السياسى المعاصر أهمية خاصة ، وهو لا يكف من جانب عن القول "بتكريم النساء"، ولكنه فى ذات الوقت لا يتركها حرة لتحديد نوعية هذا التكريم فى إطار الشريعة. وبشكل ما فإن فكر طالبان وتطبيقاته يتصور أن الخطيئة والمعصية هما النتيجة الطبيعية لاختلاط النساء والرجال.



وتكتمل هذه الصورة لدى طالبان عندما يتم الربط بين قضية المرأة، ومن ورائها موضوع الخطيئة، وبين قضية العداء المستحكم مع الغرب حيث تعتقد طالبان أن موقفهم من المرأة في أفغانستان يستفز اكثيرين في الغرب، وأن قضية الغرب ليست هي الدفاع عن المرأة، وإنما هي عداؤهم الدفين للإسلام ورغبتهم الدفينة في أن نقلدهم ونتبع ملّتهم في كل شيء.

هذه النوعية من الفكر السياسي الإسلامي قادرة وبشكل ما على القيام بهذا الربط، ولما كانت مهمتها هي مخالفة الغرب الذي لا يريد بنا خيرا، فإن القضية تصبح محسومة تماما. ولعل ذلك هو ما حدث لطالبان خلال عام ٢٠٠١ وقبل أحداث ١١ سبتمبر الدامية، فقد تواترت القضايا التي كان ممكنا لطالبان فيها أن تتجنب نصيبها المؤلم – من أول موضوع التماثيل البوذية وحتى اعتقال العاملين في مجال الإغاثة – وحصلت على التحذيرات الكافية من علماء المسلمين وفقهائهم، ومع ذلك سارت طالبان في طريقها مفتوحة العين تماما إلى المعارك التي قادتها إلى النهاية التراجيدية.

والأهم من ذلك أن هذه النظرة قادت نظام الحكم الطالباني كله إلى الجهة التقليدية التي تذهب لها معظم الحركات الإسلامية والثورية في العالم العربي والإسلامي، حينما تتم السيطرة الكاملة على الإنسان وتعبئته للمعركة مع الخارج ومع الغرب تحديدا. هنا يصبح واجبا على الإنسان الدخول في آلة ضخمة للانصهار في أتون معركة كبرى حتى يتخلص من ذنوبه ويقيد من نوازعه الدافعة إلى المعصية، ويخضع للتعقيم الكامل حتى لا يتعرض للجراثيم والميكروبات والشرور العامة التي تأتي من التعرض للثقافات والحضارات الأخرى. وفي رحم هذه الفكرة تولد الدولة الشمولية، وهي دولة لا تترك للفرد شيئا يفعله وفق تفكيره الذاتي وتفضيلاته الشخصية، ولا يصير الموضوع تحديد الاقتراب أو الابتعاد عن المرأة، وإنما الاقتراب أو الابتعاد عن الفكر، والصور والفنون، بل وحتى السلوكيات الشخصية من أول طول الذقن وحتى الاستماع إلى الموسيقى. الدولة الشمولية هنا لديها تصور لكل شيء ولديها خطة ما لكل عمل، ولديها حكمة لكل طريق، وهي في ذلك تعلم تماما ما هو الجيد وما هو السيئ، ما هو طيب وما هو خبيث، وما هو حلال وما هو حرام بالطبع. وباختصار شديد فإن الدولة تصبح هي المسئولة تماما عن إدخال مواطنيها الجنة بوسائل شتى منها الجهاد بالطبع، ومنها التأكد من الابتعاد عن الخطيئة.

وعندما تتصور أية حركة سياسية أنه بمقدورها فعل ذلك فإن طريقها إلى المعارك الخطأ لا شك فيه، ومع ذلك فقد فعلتها طالبان. فمن خلال هذه الأفكار الأساسية الحاكمة لطالبان فإن التربة تصبح مُعَدَّة بشكل أساسي لنمو الشمولية التي تستند إلى توافر أيديولوجية وأفكار معينة لدى النخبة الحاكمة تتضمن بُعْدين رئيسيين، أولهما أن الخارج لا يأتي منه خير أبدا، وإنما يأتي منه العداء والشر المستطير، وثانيهما أن

الإنسان ضعيف وقاصر تماما تجاه المفاسد، وجوهره مُعَرَّض للإغراء والإفساد طوال الوقت. هنا فإن هذه النخبة تتقدم لكى تقوم بالمهمة المقدسة التى تحمى الوطن والمجتمع من شرور الداخل والخارج، من خلال عملية منظمة للتحكم فى كل ما يخص الفرد والمجتمع من أمور، حتى يبقى معقما سليما من الميكروبات والجراثيم. هنا أيضا لا يوجد مكان لما يسمى بالمجتمع المدنى، ولا للمبادرة الفردية، فهذا يُعَدُّ دوما من الأمور الإجرامية التى يكون ثمنها غاليا. والخطر القادم من الخارج، ونزعة الضعف الإنسانى، تفرضان أن يبقى كل شئ تحت سيطرة النظام العام، أو الحزب القائد، أو تركيبات مختلفة منهما، وفى ذلك يكون خلاص الإنسان فى الدنيا والآخرة. ولم يحدث أبدا أن خرج النظام الشمولى عن هذه القواعد، سواء كانت السيطرة فى ألمانيا النازية، أو إيطاليا الفاشية، أو روسيا الشيوعية، أو العراق البعثية، أو إيران الإسلامية، حيث "الأخ الأكبر" يعرف تماما صالح المواطنين.

من النظرية إلى التطبيق

ولم يختلف نظام طالبان أبدا عن أى من هذه النظم، اللهم إلا أنه وقد جاء إلى بلد متخلف تماما كان عليه أن يتكب مسالك أكثر قسوة من كل من سبقوه من النظم الشمولية. فلم يحدث أبدا أن أوقف أىٌّ من النظم المذكورة تعليم النساء، بل أن جزءا من فخر النظام الشمولى عادة أنه نشر التعليم، أو أنه حرر المرأة، كما لم يحدث أبدا أن قام نظام شمولى بوقف التلفزيون ومنع الموسيقى. بل على العكس فقد رأت كل النظم الشمولية أن تستخدم هذه الأدوات للدعاية لنفسها، وحشد الجماهير حولها من خلال الأغانى الحماسية، والنداءات الحارة، والشعارات الساخنة التى تتحدث عن مكر الأعداء ومنجزات الوطن. وبالتالى فإن شمولية طالبان كانت فريدة من نوعها، فهى لم تعتمد على أساليب المدنية الحديثة فى التحكم فى المجتمع، بل إنها قررت أن تعيد المجتمع كله إلى العصور البدائية الأولى، حتى يمكن إدارته والسيطرة عليه.

وبجانب الحظر الإعلامى امتد الحظر فى أفغانستان ليشمل الكثير من أمور الحياة، فسفور النساء ممنوع، وهو ليس السفور الذى نعرفه فى المجتمعات الغربية ولكنه يشمل أيضا ما تلبسه النساء فى إيران ومنطقة الخليج من عباءات، ويعاقب على الجريمة فيه الزوج وسائق السيارة الذى يسمح به. والموسيقى ممنوعة، وحلق اللحى كذلك، ومع المخدرات والقمار يمنع تربية الحمام واللعب بالطيور والطائرات الورقية، ومع منع التعامل بالفائدة على القروض يمنع على النساء غسل الثياب على ضفاف الأنهار، ويمنع استخدام الموسيقى والرقص فى حفلات الزفاف، ويمنع استخدام الطبول، ويحظر على الرجال خياطة ثياب النساء، كما يحظر ممارسة مهنة التنجيم والعرافة.

الشمولية البدائية هنا لا تقوم فقط على "الحظر" الكثير، وإنما أيضا على الاستبعاد الكامل، ليس فقط على أساس ما هو معروف من تقريب أهل "الثقة" واستبعاد أهل "الخبرة" إذا لم تكن الأهواء موالية، وإنما أيضا استبعاد قطاعات سكانية بأكملها مثل المرأة التي تُستبعد من التعليم والعمل من أجل المحافظة على كرامتها!. وكلاهما ــ الحظر والاستبعاد ــ يقوم على أساس فكرة الضعف الفردي أمام الإغراء، وتتقدم السلطة من خلال القوة والنظام لكي تقوّم هذا الضعف وهذا الإغراء. ولكن ذلك عادة ما يكون هو نقطة البداية لنهاية النظام، وربما كان نظام طالبان الشمولي هو أسرع النظم الشمولية في الانهيار حيث لم يبق إلا خمس سنوات فقط، وبعدها انهار في فترة قصيرة.

وربما يقال إن النظام لم ينهر من تلقاء ذاته، وإنما حدث ذلك بسبب تدخل قوى خارجية على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن معظم النظم الشمولية واجهت بشكل أو بآخر قضية التدخل الأجنبي، فقد حدث ذلك مع روسيا البلشفية، وإيران الإسلامية من خلال الحرب العراقية الإيرانية، والعراق القومية من خلال حرب الخليج الثانية، ففي العادة نجد أن معظم النظم الشمولية قادرة على استفزاز قوى دولية كثيرة للمواجهة العسكرية معها. ومع ذلك تظل طالبان حالة خاصة ليس فقط لأنها شكلت حالة من الشمولية البدائية، وإنما أيضا لأنها افتقرت إلى أي وعد من وعود الحياة الأفضل، اللهم إلا إذا أدخلنا وعد الحياة الآخرة في الحسبان.

أصول المسألة الدينية

أن تناول مسألة طالبان لا يكتمل ما لم نَعُدْ بأصول المسألة إلى ما هو أبعد من أفكار طالبان نفسها، لأن هذه الأفكار ذاتها، في خطوطها العريضة على الأقل شائعة للغاية في جنبات الفكر السياسي "الإسلامي"، وسارت على دربها بدرجة أو بأخرى الثورة الإسلامية في إيران، وحاولت حتى جماعات "إسلامية" شتى أن تطبقها في نطاقات ضيقة بفرضها على المسلمين ــوغير المسلمين أيضا ــ في قرى ومدن وأحياء على اتساع العالم الإسلامي. والقضية قديمة للغاية، طرحها الفكر السياسي الإغريقي قبل أكثر من ألفين من الأعوام، عندما تناولها الفيلسوف اليوناني أفلاطون في كتابه القوانين الذي ناقش وفحص كيف تُصنع القوانين في دولة حقيقية. وفي هذا الكتاب الذي جاء على شكل حوارات بين رجل وصاحبه، لعله كان أفلاطون نفسه وأستاذه سقراط، كانت الدولة المتحضرة هي تلك التي تحكم بالقوانين أو القواعد التي تصنعها السلطة السياسية لكي تنظم الحياة العامة. فالرجل المسمى "غريب أثينا"، ولعله سقراط، يسأل صاحبه، ولعله أفلاطون، عما إذا كان مصدر القانون هو "الآلهة" أم "البشر"، وبهذا السؤال كان أول من طرح على الفكر السياسي واحدة من أهم إشكالياته ومعضلاته التي لا

تزال تشغلنا حتى اليوم. هل مصدر القانون ـ القاعدة المنظمة لأعمال الجماعة ـ وأصوله المعرفية يعود إلى حكمة عليا جاءت من خارج الذات الإنسانية، أم أنها نابعة منها، لأنها أعلم بشئون دنياها؟ وعندما توقف الفكر الأوروبي عن طرحه لهذه التساؤلات دخلت أوروبا في العصور الوسطى المظلمة حتى جاء الوقت الذي طرحت فيه مرة أخرى في العصور الحديثة وبشكل قطعي أعطى مصدر القوانين وصنعها للبشر، مع خلق آليات المحافظة والتغيير، منها توازن السلطات، ومنها الانتخابات العامة، ومنها الأحزاب السياسية والمجتمع المدني، إلى آخر الأليات التي اعتمدتها حركات التنوير الأوروبية خلال القرون الأربعة الأخيرة.

الحكم لله أم للبشر تلك هي القضية، أو تلك هي المسألة إذا استعرنا ذلك التعبير الشكسبيري المعبر، وهي الموضوع الذي ألح بشدة على الفكر السياسي في البلدان الإسلامية ووضعته في مواجهات درامية طوال القرن العشرين. ولم يكن ظهور الجماعات الإسلامية المختلفة في درجات اعتدالها وتشددها من أول حركة الإخوان المسلمين وحتى حركة طالبان، ونشوب الثورات الإسلامية من أول ثورة المهدي في السودان في نهايات القرن التاسع عشر وحتى ثورة الترابي في ذات البلد في نهايات القرن العشرين، إلا تعبيرات مختلفة عن تلك المعضلة التي لا تزال مطروحة على المسلمين بإلحاح شديد. فالأصل في الموضوع أن البلدان الإسلامية كانت محكومة بالفعل بقواعد الشريعة الإسلامية منذ قامت دولة الخلافة عبر مراحلها المختلفة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وادعى الخلفاء والملوك والأمراء كل في موقعه أنه كان يمثل بيضة الدين وأوتاد الملة. ولكن القرن التاسع عشر، ومن بعده القرن العشرين شهدا هوان المسلمين، وزوال دولة الخلافة في استنبول، وسقوط الدول الإسلامية الواحدة بعد الأخرى تحت الاحتلال الأجنبي القادم من بلدان غير إسلامية، ولكنها تفوقت في أساليب صنع الحياة.

وما أن بدأت الأقطار الإسلامية المختلفة في الدخول في مرحلة الاستقلال حتى طرح عليها السؤال بإلحاح مرة أخرى، فقد كان عليها أن تعيد صياغة حياتها وتصنع بالتالي قوانينها. ويشهد التاريخ أن القرن العشرين شهد ثلاث إجابات قلقة لم يحسم أيٌّ منها السؤال الحائر في العقل الإسلامي، ومن ثم فإن الإجابات، وأبواب الاجتهاد، لا تزال مفتوحة. أولى هذه الإجابات جاءت من تركيا الكمالية، وقامت على القطيعة الكاملة مع الإسلام، فالقانون بات مصدره الكامل ما يقرره البشر، وليس الشريعة أو النص القرآني، وحتى اليوم فإن نصوص الدستور التركي العلمانية هي التي تحكم الحياة التركية وبقسوة مبالغ فيها، ليس فقط ضد كل ما يتعلق بالشريعة وإنما في كل ما يتعلق برموزها. وعندما منع البرلمان التركي مروة قاوجچي من دخول البرلمان لأنها كانت تضع غطاء للرأس، فإنه لم يكن يتدخل في الحرية الشخصية لمواطنة، فضلا عن

أنها نائبة منتخبة في البرلمان، وإنما كان يعترض على بيان سياسي بأن هناك مصدرا آخر للحياة العامة غير ما يقرره المجلس التشريعي.

وثانية الإجابات جاءت على طرف النقيض ومن المملكة العربية السعودية التي تشكلت كدولة في توقيت مقارب، ورفضت أن يكون لها دستور منظم للحياة السياسية، ومحدد لقواعد التشريع وإصدار القوانين، لأن ذلك كله تم تحديده بالفعل في القرآن الذي بات هو دستور الدولة ومصدر تشريعاتها كما تحددها السلطة السياسية بمعاونة جماعة العلماء والفقهاء. وهكذا قام في العالم الإسلامي نموذجان يجسدان تماما تلك الإشكالية التي عبر عنها أفلاطون منذ زمن بعيد، وراح المسلمون يتأرجحون بينهما بدرجات مختلفة من النقاء ومحاكاة النموذج الأصلي.

الإجابة الثالثة جاءت من مصر التي كان عليها أن تجابه هذا السؤال بصورة حاسمة حينما كان عليها أن تقرر مصيرها مع صدور تصريح ٢٢ فبراير ١٩٢٢، الذي شكل - مهما كانت عيوبه - بداية الاستقلال المصري في العصر الحديث. وجاءت الإجابة في شكل دستور ١٩٢٣ الذي حاول تقديم إجابة مبتكرة تعبر بجسر من الإبداع القانوني والفكري الفجوة بين الدين اللازم للسلامة النفسية والقلبية للإنسان المسلم، والحياة التي تفرض على المسلمين اتباع القواعد العصرية في صنع القوانين. ومن هنا كانت المادة الأولى في الدستور هي أن الإسلام هو دين الدولة، وبعدها جاءت المادة التي تنص على أن الشريعة هي مصدر التشريع، ولكن الدستور من جانب آخر لم يوكل أمور التشريع، وصنع القوانين للملك أو للخليفة، وإنما للسلطة المدنية المنتخبة التي بات عليها أن تقرر وهي عالمة بشئون دنياها ما هو الأصلح لحياة البشر وفلاحهم. وربما عاد هذا الحال لطبيعة مصر الوسطية، وتعبيرا عن قدم الدين فيها ومعرفتها بالحداثة على مدى أكثر من قرن قبل وقت الإجابة على السؤال، وربما كان ذلك أيضا عائدا إلى توارد كوكبة من المجتهدين على الحياة السياسية خرجوا من عباءة الشيخ الإمام محمد عبده من أمثال الأخوين مصطفى وعلى عبد الرازق.

فالفكرة التي تم التعبير عنها في النموذج المصري كانت هي أن الإسلام قادر على التعامل مع الحياة العصرية ومؤسساتها وابتكاراتها، ولذا بات واجبا تجديد الإسلام بتخلصه من البدع، والتقليد، والبحث عن روحه "الحقة" التي تعيد له فعاليته ومكانته بين الأمم. وإذا كان النموذج التركي يقوم على الانفصال عن الدين، بل ومطاردته، باعتباره مقيدا للتقدم؛ والنموذج السعودي قام على الانفصال القائم على التفرد والخصوصية تجاه العالم الخارجي، فإن النموذج المصري قام على أساس المشاركة مع العالم من خلال الإبداع الذاتي.

وفى عشرينيات القرن الماضى عرفت مصر موجات من الإبداع الصناعى والفنى والفكرى ربما لم يقارنه عقد آخر. وعلى أى الأحوال فقد ظلت النماذج الثلاثة تتجاذب العالم الإسلامى طوال العقود الثمانية الأخيرة، وكان لكل منها امتداداته التى تجسدت فى أشكال متنوعة من النظم السياسية. ولكن الأسئلة الكبرى ظلت معلقة، وظل العالم الإسلامى تتراوحه المعضلة، رغم أن اجتهادات عظمى حاولت عبور الجسور بين الدنيا والآخرة عندما كان هناك من ادعى أنه وحده يملك الحقيقة الدينية، مستبدلا عمامة الشيوخ والأئمة ببندقية المجاهدين.

فالفكر المصرى كان هو الذى أخذ الطريق الصعب الذى يقوم على إعمال الفكر والاجتهاد، وتحقيق الملاءمة بين الدنيا والآخرة معا. وربما كان أول من مهد الطريق إلى ذلك هو الشيخ الإمام محمد عبده ومن بعده الشيخ مصطفى عبد الرازق، والقانونيون والفقهاء الذين ساهموا فى وضع دستور ١٩٢٣ الذى قدم توازنا دقيقا بين كون الإسلام هو دين الدولة الذى يشكل فضاءها التشريعى، وما بين الحكم المدنى الذى يقع بين يديه عملية الاجتهاد فى إصدار القوانين. ولكن ربما كانت أهم وثيقة سياسية عبرت عن الفكر السياسى المصرى والعربى، هى التى جاء بها الشيخ على عبد الرازق وضمَّنها كتابه الذى صدر فى عام ١٩٢٥ "الإسلام وأصول الحكم"، وربما لا تقل أهمية هذا الكتاب بحال عن كتاب جون لوك عن "الحكومة المدنية" فى الفكر الغربى. ففى هذا الكتاب الأخير، كان لوك هو أول من قال – فى حدود ما نعلم - بأن حكم البشر كعملية مدنية تدار من خلال السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية، لا يتناقض مع الإنجيل ولا الإيمان بالله.

وبالمثل فإن الشيخ على عبد الرازق، الأزهرى الذى لم يبلغ بعدُ آنذاك الثلاثين من عمره، بدأ كتابه بالقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أشهد أن لا إله إلا الله، ولا أعبد إلا إياه، ولا أخشى أحدا سواه. له القوة والعزة، وما سواه ضعيف ذليل، وله الحمد فى الأولى والآخرة، وهو حسبى ونعم الوكيل. وأشهد أن محمدا رسول الله، أرسله شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. صلى الله وملائكته عليه وسلموا تسليما كثيرا. ويعد هذه المقدمة الإيمانية يمضى فى دراسة قضية الحكم فى الإسلام التى يقيمها على الوجه التالى: فالقضية التى يدور حولها النزاع اليوم هى بعينها القضية التى واجهها آباؤنا وأجدادنا، قضية الحاكم المعوج والحكومة المستقيمة، وإن شئت فقل إن تلك هى قضية الدنيا من أقدم أيامها، أى منذ قام فيها حاكم ومحكوم وحكومة.

هنا فإن الشيخ لا يضع القضية ضمن مكوناتها المتوافرة عام ١٩٢٥ ومحاولات الملك فؤاد للاستبداد بمصر، وإنما يضعها كقضية تواجه الفكر الإسلامى، بل والفكر الإنسانى فى كل العصور. وربما زاد من حماسه أن بحثه قد أوصله إلى الضعف غير العادى فى حظ المسلمين من العلوم السياسية، رغم احتكاكهم باليونانيين ومعرفتهم

بأفلاطون وأرسطو، ورغم أن قضية الحكم والخلافة كانت مطروحة طوال الوقت بالتنازع عليها بين أكثر من طرف، ورغم أن الحكم والخلافة لم يقوما إلا على أساس من "القوة الرهيبة"، و"أن تلك القوة كانت – إلا في النادر – قوة مادية مسلحة. فلم يكن للخليفة ما يحوط مقامه إلا الرماح والسيوف، والجيش المدجج والبأس الشديد، فبتلك دون غيرها يطمئن مركزه، ويتم أمره".

وبهذه الصراحة والوضوح يضع الشيخ على عبد الرازق بحثه ويصل إلى أهم نتيجة وصل إليها الفكر السياسي الإسلامي وهي أن "الخلافة ليست في شئ من الخطط الدينية، كلا ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها، فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا، لنرجع فيها إلى أحكام العقل، وتجارب الأمم، وقواعد السياسة". ثم بعد ذلك يصل الشيخ العارف الدارس إلى أهم النتائج: "لاشيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى، في علوم الاجتماع والسياسة كلها، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذى ذلوا واستكانوا إليه، وأن يبنوا قواعد ملكهم، ونظام حكومتهم، على أحدث ما أنتجت العقول البشرية، وأمتن ما دلت تجارب الأمم على خير أصول الحكم".

ولم ينس الشيخ بعد التوصل إلى هذه النتيجة أن يؤكد في نهاية كتابه "والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلى الله على محمد وآله وصحبه ومن والاه". وهكذا اجتهد الشخص وهداه الله إلى الحكمة، ولعل ذلك هو ما هدفت إليه المدرسة الإصلاحية التجديدية المصرية من البحث في أمور الدين والدنيا، ومنها خرجت المدرسة القانونية والفقهية العظيمة التى وضعت قوانين الدولة المصرية المدنية والجنائية الحديثة، والتى لا تقوم على أساس من التقليد الأعمى للسابقين، أو التقليد الأعمى للمعاصرين من الدول الأخرى، وإنما اجتهاد مصرى خالص يعتمد على أحدث ما وصلت إليه العقول البشرية وتجارب الأمم. وبهذه الطريقة كان الشيخ على عبد الرازق هو الجسر الذى عبرت به الدولة المصرية ما بين عصور الظلام والاستعمار إلى عصر الاستقلال والحداثة، كما كان هو الطريق الذى سارت عليه عملية التحديث المصرية التى بدأت مع الشيخ محمد عبده ووصلت إلى الدكتور السنهورى ورفاقه وتلاميذه حتى تمت هندسة الدولة المصرية ونموذجها الفريد.

من الإخوان المسلمين إلى طالبان

هذه المسيرة لم تكن كافية لحل الإشكالية التى طرحها أفلاطون في كتابه "القوانين"، ربما لأن الأزهر لم يوافق على ما جاء في كتاب الشيخ على عبد الرازق، وربما لأن مؤسسات الدولة المصرية لم تنضج بالقدر الكافى، وربما لأن التطور الاقتصادى

والاجتماعي كان لا يزال في بداياته الأولى، وربما لأن قواعد الدولة الحديثة تم اختراقها باستمرار من قِبَل المدعين بالإيمان بها من الساسة المصريين والمستعمرين البريطانيين. ومهما كانت الأسباب فإنه لم يمض عامان فقط على صدور كتاب "الإسلام وأصول الحكم" حتى كانت حركة الإخوان المسلمين قد ظهرت إلى الوجود في الإسماعيلية عام ١٩٢٧ لكي تطرح أن الإسلام "دين ودنيا" و"مصحف وسيف"، ومعها نشأت جماعة "إسلامية" خاصة لا تجعل الإسلام هو دين الدولة كلها كما جاء في الدستور، وإنما هو دين من يقدمون فيه اجتهادا خاصا بهم. وكان هذا الاحتجاز للدين والدنيا معها هو نقطة البداية في الطريق الذي قاد في النهاية إلى وجود حركة طالبان.

وربما لم تكن المشكلة في حركة الإخوان المسلمين أنفسهم بقدر ما كانت في منطق الرد على إشكالية الحكم والقانون والتشريع في الدولة. فالشيخ حسن البنا كان متأثرا بالشيخ رشيد رضا، وهو من كان متأثرا بطريقته الخاصة المحافظة بالشيخ الإمام محمد عبده، ولذا فإن الحركة مالت إلى التحديث بدورها، ولكنه كان التحديث الذي يركز على القوة المادية، مع قليل من الاجتهاد في الأمور السياسية. ولكن المشكلة جاءت من دعوة إلى الأمة كلها كما كان الحال في كل الدعوات الدينية السابقة عليها والتي جاءت مع الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وحتى رشيد رضا ذاته، فقد تحول ما يخص الأمة كلها إلى جماعة خاصة، باتت مع الأيام واحدة من الفرق الناجية من النار التي قد يكون لها أحكامها القاسية على من خالفها. ومن المدهش أن الحركة التي جاءت لرفع شأن الإسلام لم تجد – إلا مؤخرا – في الدستور ما يصلح مجالا لتطور الدولة السياسي والاقتصادي، وجعلت من ازدواجية "المصحف والسيف" كناية عن مصدر القانون المباشر وأداته في السلطة السياسية.

وبالتأكيد فإن حركة الإخوان المسلمين وَرَدَت عليها تغيرات كثيرة خلال العقود، بل أن جناحا ليبراليا نشأ من قلبها، وقام من قلب الحركات السياسية في الجامعات والنقابات المهنية، وهم الآن الذين يشكلون مع عدد من الشخصيات العامة ذات التأثير الفكري ما يسمى بحزب الوسط. ولكن فكرة احتجاز جماعة بعينها للدين واعتباره مجالها الخاص ظلت مشكلة في النظام السياسي المصري ونموذجه المتميز، وبعد ذلك فتحت الأبواب لجماعات ظنت أنها أكثر نقاء وأكثر قدرة على تمثيل والدفاع عن الملة حتى من الإخوان المسلمين. وهكذا وجدنا طوابير من الجماعات المختلفة في الشخصيات والأمراء والتأويلات الفقهية، ولكنها كلها تجتمع على أنها هي "الجماعة الناجية من النار" التي أنيط بها تفسير الدين، وفي أحيان أخرى تطبيقه بحد السيف كما فعلت طالبان في أفغانستان ومناصروها في باكستان وعدد من الدول العربية والإسلامية الأخرى.

وربما كان الطريق طويلا بين حركة الإخوان المسلمين وحركة طالبان، وربما أيضا كانت المسافة بين الاعتدال والتطرف تبعد بُعد الأرض عن السماء السابعة، ولكن القضية ليست هى المسافة بقدر ما هى الأصول والمنابع. وربما لو كانت الغلبة للشيخ على عبد الرازق على الشيخ حسن البنا لكانت مسيرة المسلمين فى العالم الإسلامى قد اتخذت مسارا آخر بديلا عن ذلك المسار البائس الذى سارت فيه. وعلى أى الأحوال، وحتى لا يُساء الفهم، فإن الحركات الإسلامية ليست وحدها هى المسئولة عن هذا المسار، فالمسئولية من الجسامة بحيث تتوزع على الأمة كلها.

العمليات الانتحـــاريـــة

ربما لم يحدث من قبل أن برز أسلوب معين فى استخدام القوة على مدى سنة كاملة وعلى مستوى العالم كما برزت "العمليات الانتحارية" خلال الفترة الممتدة من ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ إلى ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ففى الشرق الأوسط، وفى المنطقة العربية على وجه الخصوص، صارت العمليات الانتحارية خلال الفترة المذكورة حدثًا يوميا بعد اشتعال الانتفاضة الفلسطينية فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ على أثر وصول المفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية إلى طريق مسدود فى كامب ديفيد وزيارة شارون المستفزة إلى المسجد الأقصى الشريف. وأمام جبروت الآلة العسكرية الإسرائيلية، وذراعها الطويلة، وقلبها المتحجر، لم يكن أمام المقاومة الفلسطينية إلا خيار العمليات الانتحارية، أو العمليات الاستشهادية كما يطلق عليها البعض، ضمن وسائل أخرى للمقاومة المسلحة ورفض الاحتلال. وقبل أن تمضى سنة كاملة على اندلاع الانتفاضة بأيام قليلة، تعرضت الولايات المتحدة لهجوم انتحارى بطائرات مدنية يقودها أفراد يفترض أنهم جاءوا من العالم العربى، اصطدمت مباشرة بكل ما فيها من ركاب وما تحمله من وقود ببرجين لمركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى البنتاجون مقر وزارة الدفاع الأمريكية فى واشنطن العاصمة. ومنذ هذه اللحظة لم تهدأ الدنيا كلها، واشتعلت الحرب فى أفغانستان، وتتابعت عشرات بل مئات الأحداث الصغيرة والكبيرة، لكن صورة الطائرة-الصاروخ وهى تصطدم بالأبراج وتخسف بها الأرض فى دقائق معدودة ظلت باقية فى خيال الناس وعقول الساسة كمخزن أسرار مازالوا يفتشون داخله عن سبب ما حدث.

والفكرة أنه فى الضفة الغربية وقطاع غزة، كما فى نيويورك وواشنطن، كان هناك من اختار لأسباب معقدة أن يهاجم هدفا بغرض القضاء عليه حتى لو مات هو أيضا فى نفس الوقت. ورغم أن العمليات الانتحارية كانت معروفة من قبل على مستوى الإرهاب المحلى والدولى والاغتيال السياسى، إلا أنها لم تحرك العالم كما حركته خلال

العام المنصرم. فمن الناحية الأكاديمية، وفى إطار العنف السياسى، يمكن تعريف العمل الانتحارى بأنه "الاستعداد للتضحية بالحياة من أجل تدمير هدف معين لتحقيق غرض سياسى". وطبقا لهذا التعريف، تقودنا العمليات الانتحارية إلى إشكالية فكرية تتعلق بعلاقة العمل الانتحارى – كأسلوب مُتصوَّر من أساليب ممارسة العنف – بمفهوم الأمن والسلامة. فالعنف بطبيعته عمل مضاد للأمن، لكن توازن العلاقة بينهما له أهمية جوهرية على الشعور بالأمن حتى بعد اختفاء العنف.

فمجرد حرص من يمارس العنف على حياته بدرجة ما مهما كانت قليلة تُبقى لهذه العلاقة – بين العنف والأمن – معنا مقبولا ومتوازنا. فلو أن الخوف من الموت أو تجنب الضرر بصوره المختلفة قد اختفى من الضمير العام، لتحولت الدنيا والحياة الإنسانية حولنا إلى صور بهلوانية متصلة من التهور الأعمى يُفقدها الاستقرار والنمو. فالردع الأخلاقى والمادى، والخوف من الموت أو فقد الحرية أو الفضيحة والعار، هو أساس مجتمع القانون والحضارة. ولقد وضعت نظريات تحقيق الأمن على أساس أن التفريط الكامل فى الحياة يقع خارج التصور، بل يقع خارج العقد الاجتماعى بين الناس. وحتى فى الحروب، هناك افتراض مقبول من الجميع، أن الفرد يمكنه القتال ربما حتى الموت بدون أن يصل فى ذلك "مسبقا" إلى درجة الجزم المطلق. بمعنى أن غرض الإنسان من القتال ليس أن يموت فى النهاية، ولكن أن يحقق هدفا آخر محددا "حتى لو أدى ذلك إلى أن يفقد حياته فى سبيل تحقيق هذا الهدف".

وتحرم الأديان الانتحار والتخلص المتعمد من الحياة، ليس فقط لأن ذلك يعنى شبهة يأس من وجود الله أو رحمته، ولكن لأنه إهدار لفكرة "حياة الجماعة" نفسها التى تعيش على مجموعة من "الروادع" الأخلاقية والقانونية والاجتماعية، إذا غابت اختفت معها حياة الجماعة نفسها. وعلى سبيل المثال، تقوم نظريات تأمين الطائرات على فكرة أن من يخطط لتفجير طائرة ما سوف يفعل ذلك على أساس أن ينجو هو فى النهاية. فإذا وُجدت حقيبة بدون صاحبها، أو لو تخلف شخص عن الصعود إلى الطائرة فى آخر لحظة، فنظم السلامة والأمن تُحتم الشك فى هذا التصرف، وإخلاء هذه الحقيبة بعيدا عن الطائرة، وربما إنزال الركاب وتفتيش الطائرة كلها. أما إذا كان صاحب الحقيبة لا يريد النجاة لنفسه فسوف تنهار النظرية من أساسها، وتصبح كل الإجراءات – التى وضعت على أساس أن الموت شىء رادع للإنسان وأنه من غير المتصور أن يفرط الإنسان فى حياته بسهولة – بلا معنى وبلا فائدة.

وفى ضوء هذا النقاش يمكن أن نفهم ما أثير من جدل على المستوى الدينى بين مرجعيات دينية فى العالم العربى ترى أن هذا الأسلوب من أساليب المقاومة قد يشوبه انحراف من ناحية أنه عمل من أعمال الانتحار التى ينهى عنها الدين، أو أن العمل نفسه غير مقبول إذا قُتل أو أُصيب بسببه مدنيون أبرياء. وفى الحقيقة لم يصمد هذا

الرأي طويلا أمام حقائق الموقف على أرض الواقع عندما بدا أن الاستسلام لأعمال الإبادة الإسرائيلية وقتل الأطفال والنساء وتدمير المنازل في ظل اختلال رهيب في ميزان القوة هو الانتحار بعينه للفلسطينيين وليس شيئا آخر. ولاشك أن اتباع هذا الأسلوب يمثل وضعا استثنائيا لجأ إليه الفلسطينيون بسبب الطبيعة الاستيطانية القاسية لإسرائيل وسجلها الحافل بالمذابح والطرد، ووقوفها خلف ترسانة من الأسلحة الهجومية لا يردعها إلا وسيلة أخرى تكون في متناول الفلسطينيين حتى لو كان ثمنها باهظا.

وهناك في الحقيقة سبب عسكري محض يجعل من العمليات الانتحارية ملاذا أخيرا مشروعا للفلسطينيين. فتطور تكنولوجيا السلاح وقوة النيران بالذات قد وفر للإسرائيليين أسلحة لها مدى أطول ودقة أعلى في نفس الوقت، وهي معادلة لم تكن موجودة قبل تطوير الذخائر والأسلحة الموجهة الدقيقة والذكية. ففي الماضي كان المدى الأطول يعني دقة أقل في إصابة الهدف وهو شيء فيه قدر من العدل إذا جاز الكلام عنه في الشئون العسكرية، أما الآن ومع تقدم تكنولوجيا السلاح فقد اجتمع المدى الطويل مع الدقة العالية، والنتيجة أنه قد أصبح في استطاعة القوات الإسرائيلية من مسافة آمنة اصطياد مقاتل فلسطيني داخل سيارته أو داخل بيته أو في مكتبه في حتمية جراحية قاسية. لقد أخرج هذا المزيج الجديد من "المسافة" و "الدقة" الحرب من نظريات القتال المعروفة - التي تقوم على فكرة "المباراة" والتي تعطي لأطرافها فرصا للنجاة والحياة حتى لو كانت محدودة - إلى نظرية الاغتيال حيث الاختفاء في الظلام والقتل من ضربة واحدة. وأمام تلك الحتمية الإسرائيلية التي تؤدي لا محالة إلى هلاك الطرف الآخر، كان ولا بد من تفعيل حتمية مضادة طبقا للإمكانيات المتاحة للطرف الفلسطيني تقوم أيضا على مزيج "المسافة" و "الدقة" ولكن بشكل معكوس، أي أن تكون المسافة "صفرا" بأن يلتصق المقاوم الفلسطيني بالهدف وبالتالي وبشكل أتوماتيكي تصبح الدقة أعلى ما يمكن وهو ما توفره في الحقيقة العمليات الانتحارية.

وفي خضم الجدل الدائر حول العمليات الانتحارية بدا جليا أن هناك مشكلة لغوية في وصف الظاهرة. فترجمة التعبير الإنجليزي Suicide operations المستخدم في تسمية هذه النوعية من العمليات لا يقابله إلا تعبير "عمليات انتحارية" في اللغة العربية. ويبدو أن اختيار هذا التعبير في اللغة الإنجليزية كان لتأكيد أن من يتصدى لتنفيذ هذه العمليات سوف يموت بدرجة يقين عالية جدا مثله مثل من يقدم على الانتحار "كأنما يقتل نفسه"، بدون الالتفات إلى الجوانب النفسية أو الفلسفية أو الصحية أو العاطفية الأخرى المصاحبة عادة لعملية الانتحار، متناسين أن من يقوم بعملية انتحارية لا يريد في الحقيقة التخلص من حياته، ولكن التخلص من حياة عدوه "حتى لو دفع حياته ثمنا لذلك".

وهذا الوضع موجود فى عمليات القتال العادى (غير الانتحارى) عندما يحرص المرء على الاستمرار فى القتال "حتى الموت" بدون أن يصفه أحد أنه مارس الانتحار. والأقرب للصواب، أن نعتبر تلك العمليات نوعاً من "العمليات الخاصة بالغة الخطورة" على حياة المشاركين فيها، ومن المعروف أن بعض عمليات قوات الصاعقة أو المظلات خلف خطوط العدو أو داخل منشآته الحيوية قد لا يعود منها أحد، والمُقْدِمون عليها يعرفون مسبقا طبيعة ما ينتظرهم من خطر ومع ذلك لا يترددون فى القيام بها. أما موضوع إصابة المدنيين أو موتهم من جراء تلك العمليات فهو أمر آخر ليس له علاقة بالموضوع، فتعرض المدنيين للخطر مرفوض أخلاقيا وقانونيا فى العمليات الانتحارية وغير الانتحارية، والأمر يتوقف فى الأساس على تصرفات العدو، فكثيرا ما ردت إسرائيل على عمليات عسكرية للمقاومة الفلسطينية بقصف المدنيين الفلسطينيين وقتلهم بلا رحمة والأمثلة كثيرة.

والعمليات الانتحارية ليست وليدة اليوم، لكنها اكتسبت دلالات جديدة مع تطور أحوال العالم السياسية والاقتصادية والثقافية. وإذا ركزنا على التاريخ القريب سوف نلاحظ أن معدلات حدوثها قد زادت مع نهاية عقد الستينات من القرن العشرين. فقد وقعت خلال الثمانينات عمليات مشهورة فى لبنان والكويت وأيضا فى سريلانكا، ثم انتقلت بعد ذلك خلال التسعينات وحتى الآن إلى إسرائيل والهند وبنما والجزائر والأرجنتين وكرواتيا وتركيا وتنزانيا وكينيا. وكانت أوروبا الغربية وشمال أمريكا بعيدة بشكل عام عن تلك النوعية من الممارسات، إلا أنها لم تعد كذلك بعد أحداث ١١ سبتمبر. وكثير من جماعات المقاومة والجهاد والتمرد اعتمد أسلوب العمليات الانتحارية فى إنتاج العنف مثل منظمة حماس والجهاد وفتح فى فلسطين، وحزب الله فى لبنان، والجماعة الإسلامية فى الجزائر، ونمور التاميل فى سريلانكا، وحزب العمال الكردستانى فى تركيا، وأيضا شبكة القاعدة بقيادة بن لادن.

ونتيجة للتأثير الفعال الذى تحدثه العمليات الانتحارية حاولت بعض الدول مثل إسرائيل والهند وسريلانكا التعامل معه بأسلوب علمى، إلا أن البدائل أمامهم حتى الآن كانت محدودة. يقول اللواء "إيزاك بن إسرائيل" مدير إدارة البحوث والتطوير فى وزارة الدفاع الإسرائيلية: "لقد طورنا أشياء كثيرة لمواجهة الحرب التى نخوضها مع الفلسطينيين، وتوصلنا لحلول مبتكرة لمعظم الأشياء، لكننا لم نجد للعمليات الانتحارية حلا ناجعا". ويضيف اللواء بن إسرائيل أن الاهتمام بأبحاث غسيل المخ والتحكم الذهنى كوسيلة للتأثير والسيطرة على الثائرين لم يفد كثيرا فى حل المشكلة.

وبالإضافة إلى ما سبق، عقدت إسرائيل "المؤتمر الدولى الأول لمقاومة الإرهاب الانتحارى" The First International Conference on Countering Suicide Terrorism خلال الفترة ٢١-٢٣ فبراير ٢٠٠٠ حضره حوالى ثمانين خبيرا أمنيا دوليا من دوائر

الشرطة والجيش والمخابرات. وتحدد هدف المؤتمر فى تبادل الرأى والخبرة حول موضوع أصبح مطروحا بقوة أمام بعض الحكومات التى تواجه هذا التهديد، والنظر فى كيفية تعاونها معا على المستوى التكتيكى والاستراتيجى للتغلب عليه، ولم يخرج المؤتمر إلا بتوصيات وقائية عامة.

أنواع العمليات الانتحارية

هناك نوعان من العمليات الانتحارية: الأول يحدث داخل ميدان المعركة - إذا كانت هناك معركة عسكرية دائرة بين الطرفين - والثانى خارجه. وفى النوع الأول يكون الفرد المكلف بالعملية الانتحارية ضمن مجموعة عسكرية مهاجمة، أما فى النوع الثانى من العمليات - خارج ميدان القتال - فعادة ما يعمل الفرد المكلف بمفرده. وبالنسبة لنوعية الأهداف، فهى تتنوع بين أهداف بشرية أو بنية أساسية حيوية أو معدات عسكرية ثابتة أو متحركة. ويمكن أن يكون طابع الهدف المراد تدميره عسكريا أو سياسيا أو اقتصاديا أو ثقافيا أو تاريخيا. وتشير بعض التقارير أن أكبر عدد من العمليات الانتحارية فى الحقبة المعاصرة قام بها نمور التاميل فى سريلانكا، ويتلوهم حزب الله وحماس وحزب العمال التركى. أما "مدى" العملية -وهو مسافة مكان تنفيذ العملية من قاعدة التنظيم - فكثير من العمليات نُفذت بعيدا عن قاعدة التنظيم، ولعل عملية ١١ سبتمبر خير مثال لعملية نفذت فى نيويورك وواشنطن فى حين أن قائد التنظيم المسئول موجود فى أفغانستان. وبعض تلك العمليات يتم بتخطيط فردى وبدون دعم خارجى، وبعضها الآخر يتلقى دعما ماديا ولوجيستيا ومعلوماتيا من جماعات أخرى مساندة قريبة من مكان تنفيذ العملية.

ويختلف الدافع من عملية انتحارية إلى عملية أخرى، ومن مكان إلى مكان آخر، ومن مجموعة إلى مجموعة، ومن شخص إلى شخص. فربما يكون الدافع دينيا أو طائفيا أو عرقيا أو قوميا. وقد يقوم بالعملية الانتحارية رجل أو امرأة، ومع ذلك نجد أن معظم من قام بتلك العمليات من الرجال. والسبب فى قلة عدد النساء مرتبط ببعض التقاليد والعادات الإسلامية التى تميل إلى أن تُوكل مهمة القتال بشكل عام إلى الرجال، ومع ذلك يمكن أن نسجل خمس عمليات انتحارية نسائية على الأقل فى جنوب لبنان. كما يُذكر أن تنظيم الجهاد قام بالتخطيط لنسف منزل رئيس الوزراء الإسرائيلى بعملية انتحارية تنفذها امرأة فلسطينية لكن العملية أحبطت.

ومعظم العمليات الانتحارية التى قامت بها فتيات أو سيدات حدثت بعيدا عن ميدان القتال. ولا شك أن توظيف النساء فى بعض العمليات قد ساعد فى اختراق أماكن "حصينة" كان من الصعب اختراقها بدونهن. فعادة لا يتم تفتيش جسد المرأة، كما أن جسد المرأة بطبيعة شكله يسهل إخفاء شحنة المتفجرات ووسيلة التفجير. والأمثلة

كثيرة، فقد اغتيل راجيف غاندى رئيس وزراء الهند فى عملية انتحارية قامت بها امرأة، وحوالى ثلث عمليات نمور التاميل فى سريلانكا نفذتها سيدات، كما أن نسبة عالية من عمليات حزب العمال التركى نفذتها نساء متطوعات. وبشكل عام، تميل الجماعات العلمانية التى لا يشكل الدين خلفياتها الأيديولوجية إلى إسناد بعض العمليات إلى النساء لقدرتهن على الاختراق والنفاذ إلى الأماكن الحساسة.

ولقد اهتز وجدان العالم العربى والأجنبى بالعملية التى قامت بها الشهيدة وفاء إدريس فى القدس الغربية فى ٢٧ يناير ٢٠٠٢، فقد تمكنت وفاء من تفجير نفسها فى شارع يافا بالقدس الغربية، واستطاعت بمهارة فائقة أن تتخطى كل الحواجز الأمنية من نابلس حتى القدس، وأسفرت العملية عن مقتل إسرائيلى وإصابة ١٥٠ آخرين وخسائر مادية أخرى جسيمة. ولم تكن تلك العملية النسائية بالعملية الأولى، فقد قادت من قبل دلال المغربى فى ١٩٧٨ عملية هجوم على حافلة مدنية على طريق بين حيفا وتل أبيب قتل فيها ٣٧ إسرائيليا.



الشهيدة وفاء إدريس

مراحل العمل وعناصر النجاح

يتسم التخطيط والتدريب والتنفيذ للعمليات الانتحارية بسرية شديدة، ربما أكثر من أى نشاط عسكرى آخر. والسبب أن نجاحها متعلق بقدرة الوصول إلى "المسافة صفر" من الهدف المراد تدميره. فالعمليات العادية "غير الانتحارية" لا يعطلها تماما كشف سرها، لكن العمل الانتحارى لا يمكن تصور نجاحه فى حالة انكشاف سره قبل العملية بوقت مناسب، فجوهر الفكرة الالتصاق بالهدف والموت معه. ويعتمد النجاح بشكل عام على السرية المطلقة، والاستطلاع الدقيق، والتدريب المتأنى على كل التفاصيل.

ويجب أن يشتمل التدريب على إجراء بروفات كثيرة على كل الخطوات من البداية حتى النهاية. والاستطلاع الجيد ضروري للتخطيط الجيد، وقد يتطلب الأمر في بعض العمليات بناء نموذج "ماكيت" للهدف، ويحتاج ذلك إلى معلومات دقيقة تفصيلية توفرها مرحلة الاستطلاع. أما عملية "التمثيل الحي" أو "إجراء البروفات" فغرضها اكتساب السرعة والطبيعية والخفاء عند التنفيذ. فالارتباك والتوتر هما أول علامات انكشاف العملية وفشلها.

يمر الوصول إلى الهدف بمرحلتين: الأولى مرحلة النفاذ إلى منطقة الهدف أي الدائرة الصغيرة المحيطة به، والثانية الوصول إلى الهدف نفسه والقضاء عليه. وطبقا لدرجة تعقيد العملية تقوم خلايا معينة بنقل منفذ العملية إلى منطقة الهدف، وتوفير الإقامة والطعام والسلاح له حتى تحين ساعة التنفيذ. وتتولى تلك الخلايا أيضا مهمة القيام بعمليات استطلاع مستمرة للهدف لرصد أية تغيرات تكون قد طرأت عليه وتأكيد أن الخطة الموضوعة مازالت صالحة للتطبيق. وقد يبقى المهاجم في منطقة الهدف لفترة قصيرة وقد تمتد لسنوات. وعلى سبيل المثال ظل "الانتحاري" الذي نفذ عملية السفارة الأمريكية في نيروبي ١٩٩٨ مقيما بالمدينة لمدة أربع سنوات، وتزوج هناك قبل أن ينفذ العملية. كما أن الرجل الذي اغتال رئيسة وزراء سيريلانكا ظل مقيما في العاصمة كولومبو لفترة طويلة قبل أن ينفذ المهمة.

والخطوات السابق ذكرها ليست مقدسة، فقد يتولى الفرد بنفسه كل الإجراءات بدون مساعدة إذا عزم على الأمر، وقد يوفر ذلك درجة أعلى من السرية لكن الأمر يتوقف في كل الأحوال على طبيعة الهدف ومدى صعوبة الوصول إليه. فلا تقتصر أهمية الخلايا المعاونة على توفير الدعم اللوجيستي أو المعلوماتي فحسب ولكنها أيضا تعمل على خلق أوضاع من الألفة والاطمئنان بينها وبين دوائر الحماية المحيطة بالهدف، مما يمكنها وقت اللحظة الحاسمة من دفع المكلف بالتنفيذ إلى المنطقة المحرمة حول الهدف بسهولة. وكثيرا ما يدهش المراقب من نجاح عملية ما في الوصول إلى الهدف رغما عن كل دوائر الحراسة، ولكن الأمر في الواقع لن يتعدى مجرد لحظة قصيرة من الاسترخاء وحسن الظن ليجد الهدف نفسه فجأة وجها لوجه أمام منفذ العملية، وربما كان الاختراق ثمرة تخطيط طويل الأمد لخداع أو خيانة بعض المكلفين بالحراسة.

ولا شك أن العمليات الانتحارية من الأعمال المركبة الصعبة التي تتداخل فيها أشياء ومشاعر غير موجودة في العمليات الأخرى. ومع ذلك تتسم تلك العمليات على المستوى الفني ببعض الظروف المخففة. فلا توجد خطة انسحاب أو هرب أو إنقاذ للمهاجم، وهي الجزء الأصعب في العمليات الهجومية الخاصة أو التقليدية. وبالنسبة لمنفذ العملية، فلن يقلقه ما قد يلقاه من تعذيب وإهانة في حالة أسره أو استجوابه.

وبالنسبة للتنظيم التابع له، فلن يبقى بعد العملية من يمكن إكراهه بالتعذيب على إفشاء أسرار التنظيم.

الأدوات

تتكون الأدوات الأساسية المستخدمة فى العمليات الانتحارية من شحنة متفجرات ووسيلة لتفجير هذه الشحنة. وتأخذ هذه المجموعة أشكالا متعددة يمكن تصنيفها إلى ستة أنواع:

١ مجموعة تفجير يلبسها الإنسان فوق جسمه (سترة أو قميص متفجرات) Suicide Bodysuit.

٢ مجموعة تفجير محمولة على سيارة

٣ مجموعة تفجير محمولة على دراجة بخارية

٤ مجموعة تفجير محمولة على زورق أو مركب

٥ مجموعة تفجير مثبته فى وسيلة غطس تحت الماء

٦ مجموعة تفجير محمولة بواسطة طائرة بأشكالها المختلفة

والنوع الذى يلبسه الإنسان فوق جسده "النوع الأول" هو أكثر الأنواع شيوعا فى العمليات الانتحارية لرخص ثمنه وبساطته وسهولة إخفائه وتشغيله وأيضا فى دقة إصابته للهدف، لكن العمليات الانتحارية المسجلة حتى الآن تغطى كل الأنواع. وفى الحقيقة لا يجب أن نتجاهل أنواعا أخرى من العمليات لا تستخدم أسلوب تفجير الذات مع الهدف بشحنة متفجرات ومع ذلك فهى قريبة جدا من العمليات الانتحارية. فكيف يمكن أن نصف عملية اقتحام موقع حراسة بواسطة فرد واحد أو فردين مستخدمين الأسلحة النارية العادية وهم يعرفون أنهم سوف يموتون لا محالة بعد أن يقتلوا عددا من أفراد العدو. إن مجرد وجود منفذ العملية وحيدا فى "حضن" العدو هو مشروع كامل لعملية انتحارية، أو بتعبير آخر يمكن اعتبار أية عملية بدون خطة عودة أو انسحاب قبل أن تبدأ هى عملية انتحارية حتى إذا لم يمُت منفذها.

العمليات الانتحارية الجوية

كان الهجوم الكبير على الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر قمة العمليات الانتحارية. ليس فقط لأن العالم قد شاهدها حية على الهواء فى التليفزيون ولكن لأنها كانت تحدث لأول مرة داخل الأرض الأمريكية نفسها وضد معاقل فريدة حضارية واقتصادية وعسكرية. كانت غير مسبوقة أيضا لأنها جاءت هذه المرة من الجو وليس من البحر أو الأرض، كما حدث من قبل ضد أهداف أمريكية خارج الولايات المتحدة عندما تعرض معسكر مشاة الأسطول الأمريكى فى لبنان لعملية انتحارية جاءته من البحر فى ١٩٨٣، وعندما دُمرت سفارتا أمريكا فى كينيا وتنزانيا فى ١٩٩٨، والمدمرة الأمريكية كول على ساحل عدن باليمن فى أكتوبر ٢٠٠٠. وهى أيضا المرة الأولى التى تنجح فيها مجموعة انتحارية طائرة فى الهواء فى مهاجمة وتدمير هدف على الأرض باستخدام طائرات ركاب مدنية.

ومن المسلم به أن التحرك جوا يعطى العمليات العسكرية بعدا إضافيا ومرونة زائدة مقارنة بالحركة المقيدة فوق الأرض والتى قد يعترضها موانع أرضية كثيرة بعضها جغرافى والآخر دفاعى فى صورة حراسات أو نقاط قوية. ويتميز الانقضاض الجوى أيضا بعنصر المفاجأة خاصة إذا جاء الهجوم من جماعات إرهابية لا يتوقع أحد أنها تمتلك الإمكانيات الفنية واللوجيستية التى تمكنها من الوصول إلى مسرح الهدف جوا. وبرغم ندرة العمليات الانتحارية الجوية مقارنة بالعمليات الأخرى الأرضية والبحرية، إلا أن عملية ١١ سبتمبر قد أضافت إلى سجل هذه العمليات حالة تاريخية جعلت منها مصدر رعب هائل، بعد أن شاع الاعتقاد خلال السنوات القليلة الماضية أن العمليات التقليدية - غير الانتحارية - لخطف الطائرات وأخذ الرهائن مقابل تحقيق مطالب معينة من الممكن التغلب عليها، بعد أن تطورت كثيرا أساليب مقاومتها. ولقد تضافرت فى الحقيقة عوامل كثيرة فى عملية ١١ سبتمبر الانتحارية جعلتها نموذجا لتلك النوعية من العمليات الجوية. فبالإضافة إلى التوفيق والحظ وحالة الشلل والغيبوبة التى أصابت وسائل التنبؤ والإنذار والتصدى الأمريكية، كان التخطيط الجيد والتدريب الدءوب والتنسيق المحكم والمعرفة الدقيقة بمسرح العمليات والاستغلال الرائع لكل الثغرات المتاحة والحزم لحظة التنفيذ من العوامل الحاسمة فى نجاح المهاجمين. وليس بعيدا مع مرور الوقت وتداعى النتائج، أن تصبح عملية ١١ سبتمبر أول عملية انتحارية يرتبط بها تحول عالمى كبير ينقل العالم من عصر إلى عصر آخر، فالتاريخ عادة ما يحتفظ بجانب العوامل الموضوعية العميقة للتحولات الكبرى بحادثة معينة صغيرة لا تحتل فى العادة مساحة زمنية طويلة لكنها تقوم بواجب تفجير التحولات، أو تؤدى مهمة الرمز للتأريخ بها أو لكل هذه الأسباب معا.

ومنذ أن بدأت موجة الإرهاب المعاصرة مع أحداث القلق العالمى فى ١٩٦٨ جرت حوالى ٢٤٠ عملية انتحارية أرضية وبحرية فى منطقة الشرق الأوسط وآسيا. وكان من الطبيعى نتيجة لذلك أن تطور الدول من ناحيتها طرقا وأساليب وتكنولوجيات لمواجهة تلك العمليات وحماية الأهداف المحتملة المعرضة لها. ومع ذلك لم يمتد هذا الجهد بالقدر الكافى إلى العمليات الانتحارية الجوية، وظلت هاجسا يؤرق أجهزة الأمن تستبعده تارة ولا تريد التفكير فيه بشكل عملى تارة أخرى. وقد تحول هذا الهاجس إلى حقيقة عندما ارتطمت طائرة صغيرة بأحد أجنحة البيت الأبيض فى سنة ١٩٩٤. فى ذلك الوقت قامت أجهزة الأمن الأمريكية بعملية تقييم لما حدث، حاولت أن تحسب من خلاله كمية المتفجرات اللازمة والواجب حملها بواسطة هذه الطائرة الصغيرة لتدمير البيت الأبيض واغتيال الرئيس إذا كان موجودا به. واستمرت الطائرات الصغيرة مصدر قلق دائم لأجهزة الأمن نتيجة صغر حجمها وقلة كمية المعادن الموجودة فى هيكلها مما يجعلها صعبة الاكتشاف بواسطة الرادار.

وتبدو خطورة الموضوع من سهولة شراء الطائرات الموجهة بدون طيار من غير تعقيدات ومن السوق التجارى المفتوح بسبب استخداماتها المدنية المتعددة، ومن أجل ذلك صارت الطائرات الموجهة بدون طيار موضع اهتمام الجماعات الثورية والانفصالية، مثل الجيش الجمهورى الأيرلندى الذى قام بشراء طائرة لاستخدامها فى حمل عبوة ناسفة فى إطار عملية كان مخططا لها أن تتم فى ١٩٨٢ إلا أنها أحبطت بواسطة المخابرات الأمريكية والكندية. وتكرر نفس الخوف فى الهند بعد اغتيال راجيف غاندى رئيس وزراء الهند فى ١٩٩٣ فى عملية انتحارية، الأمر الذى دفع أجهزة الأمن الهندية إلى التفكير فى احتمالات استخدام المجال الجوى فى عمليات اغتيال القيادات الهندية. كما عثرت أجهزة المخابرات الهندية على عدد قليل من مكونات هذه الطائرات فى حوزة المجموعات المناوئة لها فى كشمير.

وكذلك اهتمت جماعة نمور تحرير التاميل بسيريلانكا بقدرات الهجوم الجوى لعملياتها الانتحارية خاصة فى مجال الاستطلاع والانقضاض. وكان لتلك الجماعة جهود ومحاولات دءوبة لبناء طائرات بدائية، وتدريب طيارين فى باريس وبريطانيا والولايات المتحدة. ونتيجة لاستشعار حكومة سيريلانكا لخطورة استخدام مجالها الجوى فى ضرب الأهداف الحيوية أو اغتيال قيادات الدولة بواسطة الجماعات الإرهابية، منعت الحكومة الطيران الخاص، وأحاطت الأهداف الحيوية ببطاريات المدفعية المضادة للطائرات.

وأول محاولة لعملية انتحارية جوية باستخدام طائرة ركاب مدنية كبيرة كانت فى ٢٤ ديسمبر ١٩٩٤ عندما قامت مجموعة من الإرهابيين الجزائريين التابعين "للجيش الإسلامى" باختطاف طائرة إيرباص-٣٠٠ تابعة لشركة إيرفرانس فى رحلتها رقم

٨٩٦٩ مـن الجزائـر إلـى بـاريس. كـان بالطـائرة لحظـة اختطافهـا علـى الأرض وقبـل إقلاعهـا ٢٢٧ راكبـا منهم ٤٠ فرنسيا، وقـام المختطفون بـإطلاق سـراح بعض النسـاء والأطفال، وبعد مقتل ثلاثة من الركاب صرحت لهم السلطات الجزائرية بالإقلاع إلى فرنسا، وكانت نية المجموعة الإرهابية بقيادة عبد الله يحيى هي الاصطدام ببرج إيفل الشهير في قلب باريس. وفـي نفس الوقت تقريبـا وصـل إلـى السلطات الفرنسية تحذير بأن هدف الإرهابيين هو تفجير الطائرة فوق باريس، ولم تنجح المحاولة الإرهابية بعد أن نجح المفاوضون في إقناع الخاطفين بعدم كفاية الوقود لوصول الطائرة إلى بـاريس، وعند هبوطهـا فـي مدينـة مرسيليا الفرنسية للتزود بـه طلب خاطفوهـا تزويدهـا بسبعة وعشرين طنا من الوقود، لكن قوة من العمليات الخاصة الفرنسية نجحت في اقتحام الطائرة وقتلت الخاطفين الأربعة وحررت ١٦١ راكبا. وانتقاما لما حدث قتلت جماعة الجيش الإسلامي داخل الجزائر قسيسا بلجيكيا وثلاثة من القساوسة الفرنسيين.

وكالعادة كان الشرق الأوسط من المناطق الرائدة في محاولة تطبيق الأفكار الجديدة في مجـال العمليات الانتحاريـة ومنهـا العمليات الانتحاريـة الجويـة. واتخذ هذا التطور مراحل متدرجة، بدأت بتطوير أداة جوية في صـورة طـائرات صـغيرة بـدون طيـار، أو بالونـات لاستخدامها بواسـطة المقاومـة الفلسطينية فـي محاولـة اختـراق المجـال الجـوى الإسرائيلي من لبنان. ومن بين المحاولات الفاشلة محاولة عبور الحدود الإسرائيلية في ٢٠ يوليـة ١٩٨٠ بواسـطة بـالون محمـل بمجموعـة مـن المهـاجمين مـزودين بأسـلحة أوتوماتيكية ومتفجـرات وألغـام مضـادة للأفـراد والـدبابات، لكن البـالون سـقط وتحطم داخـل الأرض اللبنانيـة قبـل عبـوره إلـى إسـرائيل. وغيرهـا حـدثت محـاولات أخـرى باسـتخدام طـائرات شـراعية فـي ١٦ إبريـل ١٩٨١ وفـي ٢٥ نـوفمبر ١٩٨٧، وفـي المحاولـة الأخيـرة اسـتطاع المهـاجمون قتـل سـتة جنـود إسـرائيليين وجـرح ثمانيـة مسـتخدمين الأسـلحة الصـغيرة والقنابـل والمتفجـرات. وقـد حـاول حـزب الله أيضـا استعمال الطائرات الشراعية والطائرات بدون طيار في عمليات المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي فـي جنـوب لبنـان. وبشكل عام كـان عدد العمليات الناجحة أقل كثيرا من العمليات الفاشلة بسبب الصعوبات الفنية، ولسهولة كشف هذه الطائرات بطيئة الحركة.

وتلا تلك المرحلة مرحلة أخرى تزايد فيها الاهتمـام بضـرورة تطوير تلك الوسائل لتصبح أكثر قدرة على النجـاح في مهامهـا، وتـردد فـي تلك الفترة قيام جبهـة التحرير الفلسطينية بشراء ١٠٠ طائرة خفيفة وشراعية من أوروبا بتمويل ليبي. ومع أن الخبرة في هذا المجال كانت قد تراكمت بقدر ملحوظ إلا أن الخبرة على جانب الدفاع ضدها في إسرائيل كانت قد تحسنت أيضا بنفس القدر، مما جعل كـلا من حزب الله والفصـائل الفلسطينية تهجر تلك الوسيلة إلى وسـائل أخـرى. وانتقلت تلك الخبـرة بعد ذلك إلى منظمة القاعدة التي اكتسبت خبراتها من مسرح قتال مختلف كـان الخصم فيـه الاتحاد

السوفيتي – الدولة العظمى بكل إمكانيتها التقليدية وغير التقليدية من طائرات ومدفعية وصواريخ وحرب إليكترونية.

وكانت البداية بالنسبة لأسامة بن لادن شراء طائرة تدريب عسكرية خاصة "تي-٣٩" من الولايات المتحدة الأمريكية حولها إلى طائرة مدنية خاصة له يقودها الطيار عصام الريدي وكان من قبل معلما للطيران في مدرسة "بوردمان" في تكساس. وقام عصام بدور بارز في مجال الإمداد والمشتريات الخاصة بمنظمة القاعدة، لكنه سقط بالطائرة في مطار الخرطوم بعد شراء الطائرة بسنة واحدة.

أضافت منظمة القاعدة للعمليات الإرهابية الانتحارية بصرف النظر عن نوعها أبعادا جديدة، منها أن يكون أعداد الضحايا كبيرا mass murder، وأن تستهدف أهدافا مهمة تحدث ضجة إعلامية على المستوى العالمي، وأن ترفع مستوى التحدي ضد الخصم إلى مستوى المساس بسيادة الدولة المستهدفة بالعملية، وفي نفس الوقت إظهار قدرتها على التنسيق بين مجموعات مختلفة في أكثر من دولة. والمثال على ذلك عمليتها ضد سفارتين للولايات المتحدة في شرق إفريقيا وفي دولتين مختلفين وفي نفس التوقيت. ثم بعد ذلك تنفيذ نفس التكتيك على هدف بحري محصن بدرجة كبيرة عندما نجحت في تدمير المدمرة الأمريكية "كول" في أكتوبر ٢٠٠٠. ثم بعد ذلك إظهار قدرتها على تدمير أربعة أهداف في عملية واحدة وفي أماكن مختلفة وبفريق دولي قادم من أماكن مختلفة وباستخدام طائرات ركاب مدنية كما حدث في ١١ سبتمبر داخل الولايات المتحدة في نيويورك وواشنطن.

"الجمرة الخبيثة" والحـــرب الجـــرثومية

لم يكن قد مر على هجوم ١١ سبتمبر إلا خمسة وعشرون يوماً، وقيل أن تبدأ الولايات المتحدة حملتها العسكرية على أفغانستان بأيام قليلة، حتى تفجر فى الولايات المتحدة بعد جديد للإثارة والخطر لم يكن يتوقعه أحد. فقد أعلنت وسائل الإعلام الأمريكية فجأة فى الخامس من أكتوبر ٢٠٠١ إصابة المصور الصحفى روبرت ستيفن ببكتيريا الجمرة الخبيثة "الأنثراكس" بسبب تعرضه لخطاب ملوث بهذه البكتريا وصل إلى عنوان شركته التى يعمل بها مصوراً فى جنوب فلوريدا، ومات روبرت ستيفن وأصبح أول الضحايا. وفى ٩ أكتوبر أعلن الرئيس بوش أن هذه الحالة الوحيدة لا تعطى مؤشراً كافياً بأن البلاد قد تعرضت لهجوم بيولوجى شامل بميكروب الجمرة الخبيثة، وأن الحالة المكتشفة فى فلوريدا تبدو كحالة منعزلة ربما لأسباب طبيعية غير متعمدة. إلا أن ظهور حالة أخرى فى ١٢ أكتوبر فى محطة "إن بى سى" للأخبار بنيويورك، ثم فى نفس المدينة فى مقر صحيفة "نيويورك تايمز"، ثم تعرض مكتب السيناتور توم داشل زعيم الأغلبية فى الكونجرس لهجوم مماثل أكد أن هناك محاولة مقصودة لنشر هذا الخطر على أوسع نطاق عن طريق استخدام البريد. وفى ٢٣ أكتوبر مات عاملان فى مكتب بريد واشنطن العاصمة بسبب استنشاقهم لمسحوق ناعم ملوث بالميكروب الأمر الذى أثار احتجاج العاملين فى البريد لتجاهل الحكومة واستخفافها بالمخاطر المعرضين لها. وفى ٣١ أكتوبر ماتت "كاثى نجويين" أيضاً بسبب استنشاقها للمسحوق الملوث. وحتى الآن مازالت خطابات الجمرة الخبيثة تصل إلى أماكن وأشخاص على فترات متباعدة داخل الولايات المتحدة وأحياناً خارجها وآخرها وصول خطاب يشتبه أنه ملوث إلى مكتب نائب الرئيس الأمريكى السابق آل جور. والحصيلة النهائية حتى نهاية أغسطس ٢٠٠٢ موت خمسة أشخاص ومرض ثلاثة عشر شخصاً خضعوا للعلاج.

وبعد أسابيع قليلة من بدء الهجوم البيولوجي أعلن روبرت مولر مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي أن الحكومة تعترف بأنها لا تعرف الشخص أو الجهة التي تقف وراء هذا الهجوم البيولوجي، وأنها تطالب المواطنين بتقديم العون والمعلومات لعلها تستطيع من خلال ذلك التوصل إلى الأشخاص الذين في موضع اشتباه. وفي ٢١ نوفمبر ماتت الضحية الخامسة والأخيرة وكانت امرأة عجوز يصل عمرها إلى أربعة وتسعين عاما دون الوصول إلى تفسير معقول لكيفية وصول الميكروب إليها. والمهم أن أصابع الاتهام الأمريكية لم توجه إلى منظمة القاعدة أو أية منظمة أخرى خارجية حتى توصلت مجموعة من العلماء الأمريكيين في ٩ مايو ٢٠٠٢ إلى بعض الأدلة التي تشير إلى أن مصدر جرثومة الجمرة الخبيثة من داخل الولايات المتحدة وليس من خارجها، وثارت الشكوك حول الدكتور "ستيفين هاتفيل" المعروف بشخصيته الغريبة وكان الرجل قد عمل لفترة من الزمن داخل أحد معامل الجيش الأمريكي المتخصصة في مجال الأسلحة البيولوجية. لكن استجوابه لم يؤدّ إلى اكتشاف قرينة قوية تتيح لهم التحقيق معه أو القبض عليه. وكانت وسيلة التعرف على الدكتور هاتفيل - بعد عدد من الشكوك الأولية منها طبيعة عمله السابقة - الكلاب البوليسية المدربة على شم رائحة الجمرة الخبيثة، حيث أعطت الكلاب ردود فعل إيجابية عند تفتيش منزله وفي المطعم الذي أكل فيه في اليوم السابق للتفتيش. وغير ذلك لم تجد المباحث الفيدرالية شيئا يمكن أن يتيح لها فتح تحقيق قانوني معه. ومن بين القرائن القليلة اللافتة للنظر أن تاريخه المرضي يحتوي على أنه أصيب بالمرض من قبل، وكذلك وجود مخطوط قصة من تأليفه على حاسبه الخاص تدور حول عملية هجوم بيولوجية وكيف أن مرتكبها رتب عملية إخفاء الآثار الدالة عليه.

ولم تكن هذه التجربة هي الأولى بالنسبة للشعب الأمريكي فقد تعرض من قبل لعملية إرهاب بيولوجية قرب نهاية عام ١٩٨٤ عندما قامت جمعية "راجنيشي" البوذية Rajneeshee Buddhist Cult برش نوع من السائل الملوث بميكروب "السالمونيلا" Salmonella فوق الفاكهة والخضراوات في أحد مطاعم البيتزا في مدينة دالاس بولاية أوريجون، واستخدموا نفس المادة في تلويث بعض كريمات القهوة وسلاطة البطاطس في أحد عشر مطعما وسوبر ماركت في نفس المدينة. وتسبب ذلك في إصابة ٧٥١ شخصا بحالات مرضية شديدة دون أن تحدث حالة وفاة واحدة. وخلال سنوات الحرب الباردة لم يتوقف الحديث أيضا عن النشاط السوفييتي الواسع في تطوير الأسلحة البيولوجية بأنواعها المختلفة، وتكرر الحديث أثناء حرب الخليج عن الخوف من استخدام العراق لأسلحة بيولوجية ضد قوات التحالف الدولي وضرورة تطعيم الجنود بالأمصال المناسبة لحمايتهم من أي هجوم جرثومي أثناء الحرب. وفي سنة ١٩٩٥ استمع الرئيس كلينتون في اجتماع مغلق إلى تقرير من بيل باتريك رئيس برنامج الجيش الأمريكي لتطوير الأسلحة البيولوجية أكد فيه أن هجوما بيولوجيا بواسطة

جماعة إرهابية على مركز التجارة العالمى فى نيويورك من خلال فتحات الهواء أو نظام التكييف الموجود فى المبنى يمكن أن يؤدى إلى مقتل ٢٥ ألف شخص، ويومها لم يكن أحد يعرف أن تلك المحاولة نفسها سوف تحدث فى نفس المكان ولكن بطريقة أخرى.

كشفت هذه التطورات عن مستوى السهولة المقلق للغاية اللازم لشن هجوم بيولوجى واسع النطاق باستخدام المسحوق الملوث، ومن خلال نظام البريد الواصل إلى كل قرية ومدينة بل إلى كل بيت وإنسان، وكشفت التجربة أيضا عن صعوبة تحديد المصدر أو الفاعل وضحالة الخبرة المتراكمة فى مجال حماية السكان والنبات والحيوان ضد هجوم "متعمد" بالأسلحة البيولوجية. فى هذا السياق من المهم تحديد القصد من كلمة "متعمد" حيث أن كثيرا من المخاطر البيولوجية يمكن أن تحدث بشكل طبيعى وبدون تدخل من الإنسان، ومن المعروف أن البشرية فى أماكن كثيرة من الأرض قد عانت فى فترات معينة من التاريخ انتشار أمراض قاتلة مثل الطاعون والكوليرا دون أن يحدث ذلك "عمدا" بل كان انتشار المرض طبيعيا لأسباب تتعلق بعوامل بشرية وبيئية وطفرات جينية. هذا الوضع لا يوجد له مثيل فى حالة الانتشار النووى أو الكيماوى من حيث أنهما يحدثان دائما بطرق متعمدة. والنتيجة أن مسألة الدفاع ضد الأسلحة البيولوجية يمكنها الاستفادة من أنشطة الوقاية الصحية التقليدية ومن تقوية المناعة عند الناس، وأيضا من تطور وسائل العلاج خلال السنوات الماضية لمواجهة الأمراض المعدية الخطيرة.

ولقد أوضحت تجربة الولايات المتحدة فى مواجهة الجمرة الخبيثة أهمية تطوير وسائل الدفاع الوطنية فى هذا المجال، ومنها على سبيل المثال الاحتفاظ بكميات كافية من الأمصال والأجسام المضادة للعديد من الأمراض، وكذلك تطوير وسائل الاستطلاع والكشف المبكر عن وجود الأمراض والأوبئة. وبسبب طبيعة الانتشار البيولوجى الذى لا يعرف فى الحقيقة حدودا جغرافية معينة، أصبح من الضرورى الالتفات للبعد الإقليمى والدولى للانتشار البيولوجى عند وضع استراتيجية للدفاع ضد هذه الأسلحة.

ويقع الخطر البيولوجى ضمن مجموعة من الأخطار غير التقليدية تتميز بقدرتها على إنتاج القتل الجماعى الكثيف للمدنيين والعسكريين. ولقد اتفق على تسمية الأسلحة المنتجة لهذه المخاطر بأسلحة الدمار الشامل Weapons of Mass Destruction (WMD). وتتكون من الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية وأضيف إليهم مؤخرا الأسلحة الإشعاعية، وأخذت المجموعة الاسم المختصر NBCR اختصارا للتعبير "نووى-بيولوجى-كيماوى-إشعاعى" (Nuclear-Biological-Chemical-Radiological). ومقارنة بباقى عناصر المجموعة تبدو الأسلحة البيولوجية الأصعب من ناحية التحكم فى انتشارها أو مقاومتها بعد ذلك. ولقد تحقق بعض التقدم فى هذا المجال من خلال اتفاقية

وقعت فى ١٩٧٢ عن الأسلحة البيولوجية والمواد السامة The Biological and Toxin Weapons Convention (BWC)، والتى تمنع إنتاج وتخزين الأسلحة البيولوجية بالإضافة إلى بروتوكول جنيف الموقع فى ١٩٢٥ الذى يمنع بدوره استعمالها. وبجانب ذلك تكونت "مجموعة استراليا" من مجموعة دول متقدمة منتجة للمواد والتكنولوجيا المطلوبة لإنتاج الأسلحة البيولوجية بهدف إحكام السيطرة على تصديرها إلى أطراف أخرى.

وبرغم كل ذلك يظل تحقيق نظام محكم لمنع الانتشار البيولوجى من المهام الصعبة نظرا لاعتماد الأسلحة البيولوجية على مواد وتكنولوجيات مزدوجة الاستعمال يمكن استخدامها فى تطبيقات سلمية عادية مثل صناعة الدواء ويمكن أيضا استخدامها فى إنتاج أسلحة بيولوجية قادرة على الفتك بالإنسان والحيوان والنبات. وسوف يتصاعد الخطر إلى مستويات أعلى إذا تمكن العلماء من إنتاج أجيال جرثومية أكثر خطورة فى مسار بحوثهم العادية ذات الأهداف السلمية. والمعروف أن بعض المعامل المتخصصة فى بريطانيا وأمريكا قد قامت بتوزيع عينات من بكتيريا الأنثراكس من نفس الفصيلة المستخدمة فى هجوم خريف ٢٠٠١ على بعض المعامل المتعاونة معها. ولا يمثل المعمل المصدر الوحيد للحصول على جراثيم أمراض معينة "العنصر البيولوجى المسبب للمرض Biological Agent" بل يمكن الحصول عليها من المرضى أنفسهم عند انتشار الأوبئة، وكذلك من آثار التلوث المنتشرة فوق بعض المقتنيات الأثرية التى عاشت فترات انتشار بعض الأمراض الفتاكة.

وخلال سنوات الحرب الباردة كان سلاح الجمرة الخبيثة هو المفضل بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، ويقدر الآن عدد الدول العاملة فى مجال تطوير أسلحة جرثومية بحوالى سبع عشرة دولة. ولقد اعترفت العراق لبعثة تفتيش الأمم المتحدة UNSCOM فى ١٩٩٥ بعد سنوات من الإنكار أنها أنتجت ٨٥٠٠ لتر من سائل الجمرة الخبيثة المركز، وحوالى ١٩ ألف لتر من مادة بوتولينيوم botulinum السامة، وقامت فرق التفتيش بتدميرها. ويعتقد الخبراء الغربيون أن العراق يخفى أربعة أضعاف كمية الجمرة الخبيثة وضعف كمية مادة بوتولينيوم المدمرة بواسطة الأمم المتحدة.

والخطوة الحاسمة بعد تحضير العنصر البيولوجى المؤثر من البكتيريا أو الفيروس هى تحويله إلى "سلاح" فى صورة سائل أو مسحوق ناعم يمكن رشه أو نثره فوق مساحات واسعة أو توزيعه بسهولة داخل الأماكن المغلقة. لذلك عندما تحققت السلطات فى الولايات المتحدة من أن مسحوق الجمرة الخبيثة المستخدم فى الهجمات الأخيرة من النوعية الخاصة المجهزة لإنتاج الأسلحة Weapon-grade Anthrax توصلت بسهولة إلى أن الفاعل - سواء كان فردا أو جماعة - قد نجح فى سرقته أو الحصول عليه من أحد

برامج الدول الأخرى، أو أن الجماعات الإرهابية نفسها بعيدا عن معامل الدول قد نجحت فى عبور تلك الخطوة الصعبة تكنولوجيا فى تحويل العنصر البيولوجى إلى مواد يمكن التعامل معها فى صورة سلاح حتى يمكن إرسالها إلى مسافات بعيدة من خلال البريد مثلا أو قنابل الطائرات أو رءوس الصواريخ. والمستقبل يعد مع تقدم الهندسة الجينية بأخطار أشد فتكا إذا نجح العلماء فى إنتاج جراثيم مقاومة للأمصال أو المضادات الحيوية أو الأدوية بشكل عام فى حالة حدوث المرض.

وهناك شبه إجماع بين المتخصصين أن الحماية من الخطر البيولوجى تختلف كثيرا فى جوانب جوهرية عن الحماية من الخطر النووى أو الكيماوى. وأن خبرة الدول المتراكمة فى المجال البيولوجى أقل كثيرا من المجالين الآخرين. لقد أدى التقدم الكاسح فى العلوم البيولوجية، والاكتشافات المستمرة لأسرار الخلية الحية، إلى جعل القرن الواحد والعشرين قرن "الخلية الحية" ومكوناتها من الكروموزومات والجينات، بعد أن كان القرن العشرون قرن "الذرة" ومكوناتها من الإلكترونات والبروتينات والنيترونات وغير ذلك من الجسيمات الدقيقة. وكما انحرف العلم فى عصر الذرة وصنّع القنبلة الذرية، يشهد العالم الآن إرهاصات انحراف آخر للعلوم البيولوجية فى صورة إنتاج قنابل بيولوجية قادرة على إبادة أو إعلال الحياة بصورها المختلفة فوق سطح الأرض. ومن هنا تظهر ضرورة وضع استراتيجية للأمن البيولوجى Biological Security لحماية الإنسان والحيوان والنبات فوق أرض الوطن.

وبرغم الاختلاف بين طبيعة الخطر البيولوجى وبين الخطر النووى والكيماوى والإشعاعى لكنها جميعا تتفق فى العناصر الأساسية لاستراتيجية الأمن فى أنها تقوم على ثلاثة عناصر: "منع الانتشار"، و"الردع"، و"الدفاع". والمعنى أنه لتحقيق الأمن البيولوجى يجب العمل على منع وصول تلك الأسلحة إلى العدو أو انتشارها إلى أطراف يمكن أن يسيئوا استعمالها، وفى حالة نجاح بعض الأطراف فى الحصول عليها فيجب أن تكون هناك قوة كافية "لردعهم" من استخدامها وإلا سوف يدفعون ثمنا غاليا، وفى حالة فشل الردع مع بعض الأطراف، كما فى حالة الجماعات الإرهابية أو قادة الدول المتهورين، فلا بد من توفر وسائل "الدفاع" الكافية لحماية السكان، وتقليل الخسائر فى حالة تعرض البلاد لهجوم بيولوجى واسع. وتختلف استراتيجية الأمن البيولوجى عن استراتيجية الأمن النووى أو الأمن الكيماوى فى نسب الاهتمام بكل عنصر من عناصر الاستراتيجية الثلاثة: "منع الانتشار" و "الردع" و "الدفاع".

وبالنسبة لواجب "منع الانتشار" تتولى اتفاقية "الأسلحة البيولوجية والمواد السامة" توفير الجانب القانونى على المستوى الدولى لعملية منع الانتشار، لكن الطريف أن إدارة الرئيس بوش رفضت فى يولية ٢٠٠١ - قبل ١١ سبتمبر بشهرين تقريبا - التوقيع على البرتوكول التنفيذى للاتفاقية، مضيعة بذلك جهدا دوليا استمر لمدة ست سنوات،

بحجة أن البروتوكول يُعرّض حقوق الملكية الفكرية للشركات الأمريكية العاملة في مجال التكنولوجيا الحيوية للانكشاف، ويعرض برامج تطوير وسائل الدفاع ضد الأسلحة البيولوجية للخطر. وعلى صعيد آخر قامت الولايات المتحدة بتوقيع "البرنامج التعاوني لخفض التهديدات" Cooperative Threat Reduction Program (CTR) مع جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق لاستيعاب العلماء العاملين من قبل في تطوير الأسلحة البيولوجية داخل هذه الجمهوريات، ومنع توجههم للعمل في الدول المناوئة للولايات المتحدة، والحصول في نفس الوقت على معلومات دقيقة حول مشاريع تطوير الأسلحة البيولوجية داخل هذه الدول، ونوعية الفصائل الجرثومية وسلاسلها المختلفة، حتى يمكن تتبعها واكتشافها إذا تسربت إلى أطراف أخرى.

ويواجه جانب الردع في استراتيجية الأمن البيولوجي معضلتين أساسيتين: الأولى صعوبة رؤية الخطر مبكرا حتى يمكن إجهاضه قبل أن يستفحل، فالأدوات المستخدمة في تطوير الأسلحة البيولوجية ليست بنفس وضوح المفاعلات النووية أو المعامل الكيماوية. أما المعضلة الثانية فتتمثل في صعوبة معرفة "الفاعل" بسبب تأخر ظهور آثار الهجوم البيولوجي في بعض الحالات، وأيضا بسبب دخول الأفراد والجماعات الخفية كمصادر تهديد ضد الدولة التي قد تبدو عاجزة أمام التهديد لأن قدرتها على بث الردع لن تعرف عنوانا يمكنها إرساله إليه.ومن اللافت للنظر أن الولايات المتحدة قد تعرضت خلال شهر أغسطس ٢٠٠٢ إلى انتشار سريع لمرض "غرب النيل" الفيروسي، وتسبب انتشار المرض حتى نهاية أغسطس في موت ثمانية وعشرين شخصا وإصابة ٥٥٥ آخرين. وينتشر المرض بسرعة كبيرة بين الولايات الأمريكية عن طريق البعوض الذي ينقل الفيروس إلى الإنسان من نوع معين من الطيور. وقد حدث نفس الشيء من قبل في صيف ١٩٩٩ في نيويورك وتوفى بسبب مرض "غرب النيل" سبعة أشخاص.

وفي الحالتين يمكن أن نتبين صعوبة التمييز بين الانتشار الطبيعي للمرض وبين العمل المتعمد، خاصة أن مرض "غرب النيل" لم يحدث إصابة به من قبل في النصف الغربي من الكرة الأرضية. وتشير بعض التقارير أنه عند انتشار المرض في إبريل ١٩٩٩ اعترف منشق عراقي بأن صدام حسين قد خطط لتحويل فيروس "غرب النيل" إلى سلاح. ومن هنا يتضح أن تفعيل الردع أو العقاب يتطلب تطوير طرق فعالة لإرجاع الفيروس أو الميكروب المكتشف إلى مصدره عن طريق تبني مشروع مكتبة لكل فصائل العنصر البيولوجي المسبب للمرض ومعرفة أماكن استنباطها وإنتاجها. ويتطلب ذلك بجانب أعمال المخابرات تعاونا بين الدول وتبادلا نشطا للمعلومات. وفي حالة بكتيريا الجمرة الخبيثة تمكن العلماء على مدى عقود من تجميع حوالى ١٢٠٠ عينة من الحيوانات المريضة على مستوى العالم خلال فترات الأوبئة ويجرى بعد ذلك

دراستها وتصنيفها. والبكتيريا المكتشفة فى فلوريدا والتى تسببت فى موت المصور روبرت ستيفين تماثل بدرجة ما فصيلة اكتشفت من قبل فى الخمسينات فى هايتى وفى جامعة أيوا بالولايات المتحدة.

ويرى البعض أن الردع بالدفاع والاستعداد فى المجال البيولوجى ربما يكون أكثر تأثيرا من الردع بالهجوم مقارنة بالمجالين النووى والكيماوى. فعندما تكتشف الجهة العازمة على شن هجوم بيولوجى استعداد الخصم وقدرته على مواجهة الهجوم بكفاءة وفاعلية فربما تحجم عن المحاولة. ولحسن الحظ أن بناء دفاع قوى ضد الأخطار البيولوجية يصب فى النهاية فى بناء نظام صحى منضبط وقوى على مستوى الدولة وأيضا على مستوى الأسرة الدولية. والمقصود أن المنظومة الصحية داخل الدولة سوف تستعير نفس مفاهيم المنظومة العسكرية من خلال تزويدها بقدرات "استطلاع" للخطر البيولوجى والتعرف عليه وتمييزه واتخاذ الإجراءات المضادة له بكفاءة وسرعة وفى كل مكان محتمل لتواجد هذا الخطر. ويتطلب ذلك بطبيعة الحال قدرات تكنولوجية خاصة للاستشعار البيولوجى والاتصال ونشر الوعى والإدارة والسيطرة على الأزمة. كما يتطلب توفر استراتيجية محكمة لتخزين كميات هائلة ومكلفة من الأمصال والمضادات الحيوية والأدوية حتى يمكن مواجهة انتشار وباء يتحرك مثل النار فى الهشيم.

١١ سبتمبر والصـراع العربـى الإسرائيلى

منذ اللحظة الأولى وفور وقوع الهجوم على الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر ركزت إسرائيل جهودها على ترسيخ الانطباع بأن الولايات المتحدة وإسرائيل يجمعهما التعرض لخطر مشترك هو خطر الإرهاب. وعبر شارون عن ذلك بأن كل طرف لديه بن لادن الخاص به، أو كما قال شيمون بيريز وزير خارجية إسرائيل: "إذا كنتم أنتم تواجهون بن لادن واحدا، فإننا نواجه نسخا متعددة من بن لادن، فالشيخ ياسين هو بن لادن، وعرفات بن لادن، وقادة الجهاد الإسلامى كل منهم بن لادن آخر". ومن هنا تحول ما تقوم به إسرائيل فى مواجهة الانتفاضة الفلسطينية إلى دفاع عن النفس ضد الإرهاب. وبهذا تعاملت إسرائيل مع أحداث ١١ سبتمبر باعتبارها فرصة نادرة يتوجب استغلالها إلى أقصى حد لخدمة أهدافها الاستراتيجية وانطلقت فى ممارسة ضغوط مكثفة على الولايات المتحدة الأمريكية لإدراج حركات المقاومة فى فلسطين ولبنان ضمن التنظيمات الإرهابية طبقا للتصنيف الأمريكى مما يجعلهم كأهداف محتملة للحرب الأمريكية ضد الإرهاب. واستطاعت إسرائيل وعبر جهود مستمرة منذ لحظة الهجوم الأولى أن تتحرك فى اتجاهين: تشويه صورة العرب والمسلمين وتوجيه القطار الأمريكى المندفع لدهس المقاومة الفلسطينية، مع تحسين صورتها وكسب تعاطف الغرب ودعمه من خلال تأكيد أن الانتفاضة ليست إلا أعمالا إرهابية، وأن ما تقوم به إسرائيل إنما هو من قبيل الدفاع الشرعى عن النفس.

لم يكن غريبا أن تفرض أحداث ١١ سبتمبر المفاجئة انعكاساتها على القضية الفلسطينية منذ اللحظة الأولى. فالولايات المتحدة أو الضحية فى هذه الأحداث تضطلع بدور محورى فى عملية السلام ولاشك أن تعرضها لمثل هذه الأحداث الخطيرة سوف يغير من أولوياتها بدرجة كبيرة، وفى نفس الوقت نجد على الجانب الآخر أن بن لادن وغيره من الجهات المشتبه فيها بارتكاب تلك الأحداث تجعل من القضية الفلسطينية سببا من أسباب السخط على أمريكا نتيجة انحيازها الدائم لإسرائيل. لذلك حاول بن

لادن في تصريحاته أن يؤكد أن الحرب سوف تستمر ضد الولايات المتحدة حتى يتم تحرير فلسطين.

ورغم أن السلطة الوطنية الفلسطينية استفادت من تجربة حرب الخليج واتخذت موقف الإدانة الكاملة لما حدث، إلا أن رفع المتظاهرين الفلسطينيين لصور بن لادن مثل فرصة ذهبية لإسرائيل للربط بين ما يقوم به الفلسطينيون من عمليات انتحارية ضدها وبين ما قام به المهاجمون في نيويورك وواشنطن. ولولا حاجة الولايات المتحدة الأمريكية إلى الدعم العربي والإسلامي في حربها ضد أفغانستان لظهر تأثير السياسة الإسرائيلية للربط بين الانتفاضة و ١١ سبتمبر من اللحظة الأولى بشكل واضح. بل لقد بدت إسرائيل وتصرفاتها ضد الفلسطينيين خلال فترة الحملة العسكرية على أفغانستان عبئا على صانع القرار الأمريكي، ولم تتوقف لهذا السبب زيارات المسئولين الغربيين والأمريكيين للمنطقة في تلك الفترة لتهدئة المشاعر العربية والإسلامية وإعطاء الوعود ببذل الجهد بعد انتهاء الحرب لحل القضية الفلسطينية الأمر الذي أزعج إسرائيل لدرجة كبيرة.

وداخل إسرائيل وجد تقييمان للتعامل المستقبلي مع الحدث: الأول ويؤيده شارون رأى أن إسرائيل أصبح لديها فرصة كبيرة للاستمرار في مخططها تجاه السلطة وعدم وجود حل ذي طابع دائم مع التخلص من عملية المفاوضات. والثاني عبّر عنه بيريز وتمثل في إدراك مختلف للتعامل مع الموقف من خلال تنازل إسرائيل عن الأراضي الفلسطينية وعودتها إلى التفاوض مع السلطة وعرفات تحديدا لأن البديل يمكن أن يكون مع عناصر أكثر تشددا. إلا أن إسرائيل اتبعت الاتجاه الأول، مما أدى إلى توتر معلن في العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، وفشل سعي إسرائيل للحصول على ضوء أخضر أمريكي للقيام بعمليات القمع والإرهاب بسبب عدم رغبة الإدارة الأمريكية في أن تقوم إسرائيل بإحداث تأثيرات سلبية على جهود تشكيل التحالف الدولي وعلى العكس تعرضت الحكومة الإسرائيلية لضغوط شديدة أسفرت عن انسحابها من أحياء الخليل التي سيطرت عليها.

وخلال هذه الفترة نجحت القيادات العربية في التأكيد على نقطتين أساسيتين: أهمية التمييز بين الإرهاب والمقاومة المسلحة، وأن عدم الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط وما يرتبط به من عنف سوف يستمر ما دام الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية مستمرا. وانعكس ذلك على تغير لهجة ومضمون الخطاب الأمريكي فجاءت التصريحات الخاصة بإنشاء الدولة الفلسطينية بجانب إسرائيل مع التأكيد على أنها كانت مطروحة باستمرار على الأجندة الأمريكية، وأن الولايات المتحدة كانت تعد لإعلان ذلك في اجتماع الجمعية العامة في ٢٨سبتمبر إلا أن حدوث التفجيرات منع ذلك. لكن الموقف لم يتطور إلى الأفضل بعد اقتراب انتهاء الحملة العسكرية على

أفغانستان، وبدا أن الولايات المتحدة ترغب فى توجيه اهتمامها إلى العراق كجزء من حربها ضد الإرهاب. ومما ساعد على ذلك أن الإدارة الأمريكية فضلت النظر لما حدث باعتباره دليلا على حقد الآخرين ورغبتهم فى ضرب منظومة القيم الأمريكية، ولم تنظر إليه باعتباره نتيجة لوجود أخطاء فى سياستها الخارجية تجاه العالم. كما رأت أن مجرد تغيير الموقف الأمريكى تجاه القضية الفلسطينية بدون توقف العنف يعنى مكافأة للعنف والإرهاب.

ولكن مع تحرك العمليات العسكرية فى أفغانستان بدأت إسرائيل فى طرح صيغة الدفاع عن النفس تشبها بالدور الأمريكى فى أفغانستان واقتداء به، وأصبحت الظروف متاحة بشكل عام أمام شارون واليمين لمتابعة استراتيجية التخلص من السلطة الفلسطينية. وتحركت إسرائيل لتغيير الظروف على أرض الواقع من خلال استهداف مستمر للسلطة الفلسطينية بشكل يومى يحيى باستمرار فكرة العدو والصراع بين الخير والشر، ويتوازى مع أحداث الحرب الأمريكية ضد الإرهاب ويتطور معها حتى يستقر فى الذهن العالمى باستمرار حالة المقاربة بين العضو فى تنظيم القاعدة الذى تقتله القوات الأمريكية، والفلسطينى الذى تقتله إسرائيل أو تدمر منزله.

وتمثلت أحد النتائج الأساسية لأحداث ١١ سبتمبر بالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى فى تأثيراته على المقاومة من خلال الربط بين ما تعرضت له الولايات المتحدة وما يحدث فى فلسطين من جماعات المقاومة، وأن السلطة الفلسطينية بل وحتى الشعب الفلسطينى ليسوا إلا إرهابيين يماثلون أسامة بن لادن وأتباعه من تنظيم القاعدة، كما أن من يؤويهم مثل دور سوريا أو إيران يماثل دور طالبان فهو يحمى إرهابيين. وأن إسرائيل تحملت الكثير من هؤلاء الإرهابيين وقد حان للولايات المتحدة أن تقوم بمقاومتهم، ومساعدة الضحية "إسرائيل" فى حماية أمنها خاصة مع محاولة إسرائيل لترويج أن ما تتعرض له ليس لأنها احتلت أراضى الفلسطينيين والعرب بالقوة ولكن لأنها تمثل فى نظر العرب حضارة الغرب وثقافته فى المنطقة.

وتركز محور التحرك على حماية أمن إسرائيل وضرورة وقف العنف والإرهاب الفلسطينى، وضرورة قيام السلطة بتقويض جماعات المقاومة والقضاء على بنيتها التحتية. وواجهت السلطة الفلسطينية سلسلة من المطالب التى تبنت وصف جماعات المقاومة بالإرهاب، ومطالبتها بمواجهتها وهو الأمر الذى تم التعبير عنه عبر العديد من البيانات والمطالب الدولية. ووضعت الولايات المتحدة حركتى حماس والجهاد ضمن قائمة التنظيمات الإرهابية وتم تبرير ضم الحركتين فى مرحلة لاحقة وعدم تضمينهم منذ الخطوة الأولى بأنه يرجع إلى قيامهم بقتل مدنيين إسرائيليين. وجمدت أرصدة كل الجمعيات الخيرية التى تساعد أعضاء الحركتين مثل مؤسسة الأرض المقدسة التى جمدت أرصدتها فى البنوك الأمريكية، ثم مارست الولايات المتحدة

الضغوط على الرئيس عرفات لتنفيذ ما تراه ملائما للتعامل مع هذه "الحركات الإرهابية" وفقا لتصنيفها. كما تعددت التأكيدات على ضرورة حماية أمن إسرائيل.

من جانبها سعت إسرائيل في إطار استهدافها للسلطة إلى تحقيق مجموعة من الفوائد لعل أبرزها: كسر زعامة عرفات وإظهاره بمظهر العاجز أمام شعبه، والسعي لإبراز وجود صراع على خلافته بين أعضاء السلطة الفلسطينية. كما شككت في قدرة السلطة على القيام بدورها في مواجهة "الإرهاب الفلسطيني" في نفس الوقت الذي وضعت فيه مقار السلطة وأجهزتها في مرمى نيرانها وأعلنت إدراج القوة ١٧ التي تقوم بحراسة الرئيس عرفات والجناح العسكري لفصيل فتح التابع مباشرة للرئيس عرفات - بصفته النضالية- على قائمة المنظمات الإرهابية الفلسطينية. واستمرت التصريحات الإسرائيلية التي تؤكد على عدم قيام السلطة بواجبها في اعتقال الإرهابيين وأن ما تقوم به هو عمليات اعتقال صورية من أجل إثارة الانطباع لدى الجانب الإسرائيلي بصدق كفاحها –أي السلطة- ضد الإرهاب.

ومع استمرار التأكيد على إرهاب السلطة وجماعات المقاومة، جاء الرد ممثلا في مطالب إصلاح السلطة وفق تصور معين قدمه الرئيس الأمريكي بوش وأكد فيه أن عيوب الموقف تكمن في الخوف الذي يشعر به الشعب الإسرائيلي، والفساد السياسي والاحتلال الذي يحيا فيه الشعب الفلسطيني. وعدم القدرة على تحسين صورة الحياة القائمة على أساس أن المواطنين الإسرائيليين سيستمرون في أن يكونوا ضحية إرهابيين، وهكذا فإن إسرائيل ستستمر في الدفاع عن نفسها. وإن وضع الشعب الفلسطيني سيصبح أسوأ فأسوأ. ويترتب على هذا أن السلام يحتاج إلى قيادة فلسطينية جديدة ومختلفة كي يكون بالإمكان ولادة دولة فلسطينية. وطالب الشعب الفلسطيني بانتخاب قادة جدد، قادة لا يتهاونون مع الإرهاب.

الفكرة الحاكمة لخطاب الرئيس بوش تتمثل في ضرورة تغيير القيادة الفلسطينية باعتباره شرطا أساسيا للدعم الأمريكي السياسي والاقتصادي للدولة الفلسطينية المؤقتة، والتخلص من القيادة الفلسطينية الحالية باعتبارها داعمة أو متساهلة مع الإرهاب "المقاومة". وأن السلطة الفلسطينية المطلوبة عليها أن تتخذ بوضوح إجراءات جادة لدفع عملية السلام إلى الأمام في وضع يتضمن من خلال ما ذكر مرحلتين: الأولى خطوة أساسية تتطلب إجراءات لا لبس فيها من قبل السلطة لضمان أنها تفعل كل ما من شأنه منع الهجمات الانتحارية، ثم تأتي الخطوة الثانية من خلال ما ذكره بوش "لو وصلنا إلى هذا الوضع فعندئذ يمكن أن تبدأ عملية سياسية مناسبة".

وضع خطاب بوش زمام المبادرة بيد شارون وأكد أنه لن يكون هناك بحث سياسي قبل وقف العنف والإرهاب وتشكيل قيادة أخرى مختلفة وجديدة. وقد رحب متحدث

باسم الحكومة الإسرائيلية بالخطاب قائلا "إن اختيار الفلسطينيين لعرفات اختيار لاستراتيجية الإرهاب والاستمرار في إرسال الانتحاريين". كما تم الربط مرة أخرى ما بين أحداث ١١ سبتمبر والأوضاع الفلسطينية عندما أكد وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي عوزي لاندو أن عرفات ليس فقط إرهابيا بل هو مسئول عن جرائم ضد الإنسانية وهو بالنسبة لنا أسامة بن لادن، أما بالنسبة للجيل الجديد من الشبان الفلسطينيين ففرص التفاوض معه ضئيلة لأنه ترعرع انتحاريا.

جاء الحديث عن تغيير القيادة بمثابة صدمة لدى البعض من منظور الديمقراطية والسيادة والتدخل في الشئون الداخلية الفلسطينية، وأثار المخاوف من إمكانية أن يمثل سابقة يقاس عليها خاصة في دول المنطقة العربية وفي ظل الحديث عن تغيير القيادة العراقية، وكذلك على أرضية التقرير الذى أصدره برنامج الأمم المتحدة الإنمائي بالتعاون مع الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي تحت عنوان تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢ والذي تم استغلال ما جاء فيه للتأكيد على حاجة العالم العربي لتغيير قياداته، أو كما دعا توماس فريدمان في مقاله في نيويورك تايمز عندما أكد على جودة خطاب بوش بالنسبة لعرفات وأخذ عليه أنه لم يرفع العصا في وجه البلدان العربية الأخرى.

انخفضت حدة رد الفعل على مطالب بوش بتغيير عرفات بعد انقضاء عدة أيام من إثارتها، وتحول الأمر من معارضة الفكرة إلى التمييز بين ضرورة التغيير والإصلاح وصيغة ما تم ذكره وأن الأمر بيد الشعب الفلسطيني ليقرر، في حين تبنى البعض الرؤية الأمريكية بنفس مفردات الخطاب الأمريكي الإسرائيلي حول عرفات وفشله في اغتنام الفرص وهو الأمر الذى تردد حتى على الساحة الفلسطينية ذاتها عندما أكدت بعض الأصوات على خطأ عرفات في عدم استغلال النصر الذى تمتع به بعد فك حصاره من قيامه بضرب الجماعات الفلسطينية ومنع عملياتها ضد الإسرائيليين. أما البعض الآخر فقد رفض الدعوة لإقصاء عرفات من منطلق أنها ليست في صالح إسرائيل مشيرين إلى ما حدث في لبنان عام ١٩٨٢ عندما فرض شارون الذى كان وزيرا للدفاع بشير الجميل رئيسا للبنان ومكان من اغتياله بعد ذلك. كما أعرب البعض في الولايات المتحدة عن رفض هذه الفكرة خوفا من وصول زعيم أكثر تشددا من عرفات، أو أحد أعضاء حركة حماس أو الجهاد الإسلامي كما ذكر جورج ميتشل - واضع خطة السلام التى تحمل اسمه - والذى أكد أن هذا يعني وضعا أسوأ مما هو الآن.

أسهم خطاب بوش إيجابيا في صالح إسرائيل لأنه استطاع أن يحقق الابتعاد عن المشكلة الأساسية للصراع ممثلة في الاحتلال وسياسات إسرائيل في الالتفاف حول الاتفاقيات، ليتركز النقاش حول عرفات واحتمالات وجوده، وليصبح الإنجاز العربي

الممكن هو الموافقة على بقاء عرفات وإن كان بصورة رمزية. كذلك فإن الوقت اللازم لهذا الحوار وما يليه يحقق أيضا مصلحة أساسية لإسرائيل فسواء استمر عرفات أم لم يستمر فإن صورته التى رسمتها إسرائيل حوله كأسامة بن لادن بالنسبة لها لن تمحى، وستؤدى لممارسة "حقوق" واشتراطات إسرائيلية وأمريكية عليه كى يلتزم بها، وهو الأمر الذى من شأنه إثارة الحديث عن الصراع الفلسطينى الداخلى. ويجيء هذا السيناريو مع احتمال تولى سلطة جديدة يتم النظر إليها بكثير من التشكك حول مصداقيتها وولائها للقضية من قبل الشعب الفلسطينى على أساس أنها سوف تتهم بالخيانة والتوافق مع المصالح الإسرائيلية الأمريكية، كما أن هذه السلطة سوف تحتاج إلى إرساء سيطرتها والظهور أمام العالم فى صورة السلطة المسيطرة على الأوضاع، وبالتالى فإن هذا الأمر يطرح إمكانية الصدام مع الفصائل الفلسطينية والجماعات ذات الثقل على الساحة خاصة فى ظل اختلاف التوجهات ما بين تأييد المسار السلمى وتأييد خيار استمرار المقاومة.

أحداث ١١ سبتمبر أثرت بقوة ومنذ اللحظة الأولى على الصراع العربى الإسرائيلى، وإذا كان التأثير قد بدا واضحا على الساحة الفلسطينية إلا أن هناك الكثير من الضغوط التى تمارس على لبنان وسوريا بسبب دعمهم لحزب الله. وقد اكتسبت هذه الضغوط بعدا جديدا بدخولها فى إطار التكتل الغربى بعد أن كانت محصورة فى إطار إسرائيلى فقط أو إطار إسرائيلى مدعوم أمريكيا. وكان من شأن تحويل الانتباه عن الممارسات الإسرائيلية خلال المرحلة الأولى من الحرب ضد الإرهاب إطلاق يد إسرائيل فى ممارساتها ضد الفلسطينيين، كما أن احتمالات ضرب العراق وطبيعة الأوضاع على الساحة الفلسطينية سوف تؤدى إلى المزيد من البطش الإسرائيلى، وإضعاف السلطة الفلسطينية. وربما تشهد الساحة الفلسطينية مزيدا من الصراع مع اقتراب الانتخابات الفلسطينية، وإجراءات الإصلاح الداخلى.

الخاتمة

التهديد والدفاع والأمن قبل وبعد ١١ سبتمبر

لا يتوقف الإنسان أو الجماعة البشرية أو الدولة عن رؤية صور مختلفة لنفس العالم حولنا، ويتوقف شكل الصورة على زاوية النظر والغرض من عملية الرؤية ذاتها. فهناك مثلا صورة للثروات العالم الطبيعية تختلف قبل عصر اكتشاف البترول عنها بعد اكتشافه، وأخرى للتجمعات البشرية الدائمة الترحال والهجرة، وثالثة لحالة المناخ الذى نراه اليوم بصورة تختلف تماما عن صورته قبل عشرين عاما حتى تصل بنا الصور إلى موضوع الأمن والبقاء، فتتركز الرؤية على صور التهديد الموجودة فى العالم. ولا شك أن استشعار الإنسان للمخاطر التى تهدد بقاءه منذ آلاف السنين – وكان معظمها مرتبطا بالطبيعة الغاضبة المستأسدة والحيوانات المفترسة – يختلف تماما عن الأشياء التى يعتبرها الآن تهديدا حقيقيا له، بل إن صور التهديد على مستوى الإنسان أو الجماعة أو الدولة يختلف أيضا بصورة جوهرية منذ خمسين سنة فقط عما هى عليه الآن. وبالنسبة للدولة تمثل صورة التهديد الكلية - وهى مكونة من صور كثيرة فرعية - ورؤيتها الشاملة لها الخطوة الأولى لوضع سياسات الدفاع والأمن وبناء الاستراتيجيات العسكرية وإقامة الجيوش وتطوير الأسلحة. وهناك بالقطع محطات تاريخية تتغير عندها مصادر التهديد وصوره بفعل التكنولوجيا والتطور الحضارى والبشرى، وينشأ عن ذلك بالضرورة تغير فى فكر الدفاع وأساليب الحرب وأدواتها.

صور جديدة للتهديد

ومن بين تلك المحطات المهمة جاءت أحداث ١١ سبتمبر لترسم صورة جديدة للتهديد فى العالم مركبة من عناصر مختلفة لم يعهدها الناس من قبل، يختلط فيها المدنى بالعسكرى، والدولة بالجماعات والأفراد. وفى لحظة قصيرة تحول التهديد بالنسبة للولايات المتحدة - أقوى دولة فى العالم بل فى التاريخ - إلى رجل واحد نحيف اسمه أسامة بن لادن، وإلى منظمة لا يعرف أحد مكانها بالضبط اسمها "القاعدة"، وشُنّت من أجل هذه الصورة - الرؤية حرب كاملة لم تنته بعد، أطلق عليها "الحرب ضد الإرهاب" مازال الجنرالات والساسة يطورون فى استراتيجيتها وخططها، ويشارك فيها دول وجنود وهيئات تختص بالمعلومات والمخابرات، أما مسرح الحرب فممتد باتساع العالم كله من الولايات المتحدة إلى دول أوروبا والصومال واليمن والفلبيين وأماكن أخرى كثيرة.

وقعت أحداث ١١ سبتمبر وأمريكا تضع اللمسات الأخيرة في استراتيجيتها العسكرية الجديدة للقرن الحادي والعشرين بعد نقاش طويل داخل دوائر الرأي حول صلاحية استراتيجيتها خلال سنوات التسعينات - التي تشكلت بعد انتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفيتي - للمستقبل. كانت استراتيجية التسعينات مرحلية انتقالية في فترة اتسمت بافتقاد اليقين، ووقت لم تتضح فيه بعد صورة التهديد في العالم، واحتوت هذه الاستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة على ثلاث مهام أساسية: إعادة تشكيل العالم، والتصدي للتهديدات الحالية الموجودة فيه، والاستعداد للتهديدات الجديدة القادمة. وفي ذلك الوقت كان تصور التهديد بسيطا: مجرد استبدال عدوين صغيرين مثل العراق أو كوريا الشمالية أو كوبا بالاتحاد السوفيتي الذي انهار وتفكك ، وفي إطار هذا التصور حددت أمريكا حجم قوتها العسكرية على أساس أن تكون كافية لدخول حربين إقليميتين متزامنتين تقريبا.

وخلال إدارة الرئيس بوش الأب وبعده كلينتون تركزت همة الرئيسين على تنفيذ مهمة "إعادة تشكيل العالم"، فتم "تفكيك" الاتحاد السوفيتي و"توحيد" ألمانيا بأقل الأضرار الممكنة، و"توسيع" الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو جهة الشرق، وانطلقت حوارات كثيرة بين أوروبا وأمريكا من ناحية وجنوب المتوسط وآسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا من ناحية أخرى. وفوق مسرح الشرق الأوسط حققت السياسة الأمريكية إنجازات لا بأس بها بانعقاد مؤتمر مدريد وانطلاق عملية السلام بين العرب وإسرائيل.

أما مهمة "التصدي للتهديدات الحالية" فاستمرت من بداية التسعينات حتى نهايتها في مواجهة دول صغيرة أرادت انتهاز زمن التحول من نظام عالمي إلى نظام عالمي آخر في تحقيق مكاسب إقليمية والاعتداء على جيرانها أو على أقليات داخلها، فكانت حرب الخليج ١٩٩١ وحرب كوسوفو ١٩٩٩. جاءت نتائج الحربين من الناحية العسكرية حاسمة في الإعلان عن قوة أمريكية تقليدية متقدمة عن العالم أجمع بما في ذلك حلفائها الأوروبيين، تقوم في الأساس على قوة هجومية متعددة المستويات، تمتلك كل إمكانيات التأثير البعيد والدقيق ضد الأهداف الحيوية للقوة المعادية لها. وشاهد العالم من خلال قنوات التليفزيون الفضائية القدرة الأمريكية وهي تطول العدو وتدمر قدراته المدنية والعسكرية وهي في مأمن بعيد. ولم تكن خسائرها البشرية في الحربين - الخليج وكوسوفو - إلا أعدادا قليلة من الجنود.

وخلال فترة رئاسة كلينتون الثانية زادت معدلات العمل في تنفيذ المهمة الثالثة: "الاستعداد للتهديدات الجديدة". وأطلق التقدم التكنولوجي في مجال المعلومات والفضاء والمستشعرات عنان التصورات لبناء قوة أمريكية جديدة أهم ما يميزها "المناعة الكاملة" دفاعا و "الدقة الجراحية الهائلة" هجوما. ووضعت تصورات لقواعد أمريكية تبنى فوق سطح المحيط وسفن عملاقة تحمل المئات من صواريخ الكروز التي

يمكن توجيهها إلى أى هدف على سطح الأرض، وأصبح لكل فرع من أفرع القوات المسلحة مشروعه الخاص للتطوير، البحرية: مشروع "سوناتا" والجوية: مشروع "آفاق العالم الجديد"، والبرية: القوة ٢١. كانت صورة التهديد ورؤية الولايات المتحدة لها مازالت محصورة فى التهديد الصادر من الدولة، دولة صاعدة مثل الصين أو دولة مارقة مثل العراق أو كوريا الشمالية أو ليبيا طبقا للتسمية الأمريكية.

لكن سنوات التسعينات أظهرت للتهديد وجها آخر عندما اجتاح خطر الإرهاب أكثر من دولة وبدت له ملامح جديدة عالمية أكثر منها محلية، حتى أدواته فى العمل والتدمير تغيرت بصورة كبيرة. وتوالت الأحداث من محاولة تدمير مركز التجارة العالمى فى نيويورك (١٩٩٣) إلى استخدام الغاز السام داخل شبكة مترو الأنفاق فى طوكيو باليابان (١٩٩٥)، وتفجير معسكر الجيش الأمريكى فى "الخُبر" بالسعودية (١٩٩٦)، وتفجير سفارتى الولايات المتحدة فى تنزانيا وكينيا (١٩٩٨)، ثم محاولة تدمير المدمرة الأمريكية "كول" أثناء وجودها فى ميناء عدن اليمنى فى أكتوبر ٢٠٠٠ ومقتل ١٧ جنديا أمريكيا من بحارتها، وكادت المدمرة تشرف على الغرق لولا أن الولايات المتحدة عاجلت بسحبها إلى أرض الوطن.

لقد أصبح الخطر خفيا لا يمكن تحديد مصدره بدقة أو توقيت انقضاضه، وصارت قدرته على إحداث الخسائر كبيرة نتيجة تركيزه على الأهداف الحيوية العسكرية والمدنية، وزادت قدرته على إدارة عمليات تقترب فى حجمها وآثارها من العمليات العسكرية الكبرى. ولقد قام الرئيس كلينتون بضرب السودان بالصواريخ الكروز ومهاجمة معسكرات منظمة القاعدة فى أفغانستان ظنا منه أنه يستطيع التعامل مع الخطر الجديد والتصدى لصورة التهديد الجديدة بنفس الطرق التقليدية القديمة.

خيارات التصدى للتهديد

ومع بداية القرن الواحد والعشرين كان لابد من وقفة استراتيجية أمريكية بعد أن تراكم التغيير فى هيئة العالم وفى صور التهديد الموجهة للولايات المتحدة الأمريكية، ولم تعد مبادئ الجغرافيا المعهودة بدولها القديمة تسعف الفكر الأمريكى فى رسم تضاريس التهديد وصياغة نظريات مناسبة للأمن. ففى عام ١٩٩٩ وحده، انتشر فى العالم نحو ٢٦ نقطة صدام مشتعلة أسفرت عن مقتل ٣٠٠ ألف شخص، بالإضافة إلى ٧٨ نقطة عنف أقل حدة و ١٧٨ موضع احتقان داخلية موزعة فوق أرض المعمورة. ووضعت الولايات المتحدة أمام نفسها بدائل استراتيجية ثلاثة للمستقبل:

البديل الأول: أن تجرى الولايات المتحدة وراء مصادر التهديد وتردعها أو تحاصرها أو تصفيها بقوة السلاح، وهو شكل أكثر عنفا من سياسة الاحتواء التى مارستها خلال الحرب الباردة ولكن ضد أعداء متناثرين لا تعرف حتى مكانهم.

البديل الثانى: أن تتبنى سياسة دفاع إيجابية يغذيها عمل سياسى نشط فعال لدعم السلام والاستقرار والعدل والتنمية فى مناطق العالم المختلفة، وهو واجب شاق يحتاج إلى تكلفة مالية ومعنوية ونفسية عالية.

والبديل الثالث: أن تترك العالم وشأنه، وأن تضع سعادة مواطنيها ورفاهيتهم خلف سيف ودرع لا يمكن أن يقترب منه أحد، وأن تقلل من مستوى تعرض قواتها للأذى الخارجى بأن تخفض الوجود الأمريكى فيما وراء البحار، وتبدأ فى إقامة درعها الدفاعى الصاروخى رغم أنف الجميع.

ويبدو أن إدارة الرئيس بوش عندما وصلت إلى البيت الأبيض فى يناير ٢٠٠٠ كانت تميل إلى الخيار الثالث على أساس أن تترك العالم وشأنه، وألا تتدخل إلا بقدر فى المشاكل الإقليمية، لكن ما حدث فى ١١ سبتمبر من هجوم على أهداف حيوية داخل الأرض الأمريكية كان ترجمة واضحة وسريعة على أن العالم قد تغير وأن صور التهديد الجديدة المنتشرة مثل البثور على وجهه لا يناسبها ولا يردعها نظام الدفاع الصاروخى، ولم يعد أمام الإدارة الأمريكية إلا أن تختار الخيار الأول وأن تبادر بالهجوم وتجرى وراء مصادر التهديد مهما انتشرت أو تنوعت. ولم يعد هناك من شك بعد ما حدث إلا التفكير فى تغيير أركان استراتيجيتها الدفاعية على مستوى الفكر والأدوات. وكانت الحرب ضد أفغانستان رد الفعل السريع للكارثة التى حدثت فى نيويورك وواشنطن، لكن التغير الحقيقى فرض نفسه عندما بدأ التفكير فى الحرب ضد الإرهاب أو بوصف أكثر دقة طبقا للرؤية الأمريكية "الحرب ضد عدو مُتخفٍ ومنتشر ومستعد للموت ولا يمكن حسابه على أساس أنه جزء من دولة معينة".

وأول عناصر التغيير فى استراتيجية المواجهة كان إلقاء نظرة جديدة على أسلوب حماية الداخل الأمريكى. وبذلت محاولات فكرية لصياغة مفهوم للدفاع عن أرض الوطن يتفق مع طبيعة التهديدات الجديدة، ومع طبيعة "أرض الوطن" نفسها التى أصبحت أكثر تعقيدا وتكلفة يغطيها شبكات عنكبوتية معقدة من الطرق والأنفاق وخطوط الغاز والطاقة والاتصالات والمعلومات...إلخ. ولا تقتصر هذه الصورة على الولايات المتحدة وحدها ولكن على معظم دول العالم بدرجات متفاوتة. ومع أن تلك الأفكار بدأت جنينية داخل الولايات المتحدة قبل ١١ سبتمبر، لكنها تبلورت وأخذت طريقها للتطبيق بعده مباشرة، وأصبحت هناك هيئة ضخمة مسئولة عن الدفاع عن الداخل Homeland Defense يشارك فيها البنتاجون كما تشارك وزارات الصحة

والسكان والهجرة والاتصـالات والنقل والحدود والداخلية، لأن العدو يمكنه الاختباء وراء صـور كثيـرة، ويمكنـه ضـرب النـاس بـالمتفجرات أو الغـازات السـامة أو الفيروسات: فيروسات الأمراض أو فيروسات الكومبيوتر ونظم المعلومات.

ونتيجة انتشار العدو – فوق مسرح العمليات الضيق أو على مستوى العالم كله – زاد الاهتمام بالعنصر البشرى فى صورة قوات خاصة حديثة تعمل قريبة من الهدف يدعمها طائرات بدون طيار، وعلى اتصال دائم بالقيادة، ومزودة بصواريخ وذخيرة يمكنها اختراق التحصينات والكهوف ويمكنها التعامل مع تعقيدات حرب المدن والأماكن الضيقة. ولنفس الأسباب السابقة كان من الضرورى الانتباه إلى أهمية تطوير نشاط المخابرات والتجسس البشرى والتكنولوجى بصوره المختلفة، وتطوير أدوات التحليل، وتحسين التعامل مع المادة الخام للمعلومات ونشر نتائج التحليل على الجهات المهتمة فى أسرع وقت ممكن.

ولقد وصلت حيرة الولايات المتحدة إلى مداها فى كيفية التعامل مع مصادر التهديد الجديدة حتى إنها انتهت إلى ضرورة إعادة التفكير فى استخدام القوة النووية ضد هذه المصادر. وخلال حرب أفغانستان لجأت القوات الأمريكية إلى وسائل تأثير مساحية لتقضى على أى هدف مختبئ، فقصفت جبال تورا بورا بالقنابل "الارتجاجية"، وهى عبارة عن سحابة واسعة من خليط وقود خاص مع الهواء، يتم نشرها فوق منطقة الهدف وتفجر عن بعد فتحدث موجة انفجارية هائلة وتسحب الأكسيجين من الهواء داخل منطقة الانفجار لفترة قصيرة. كما قامت بإلقاء قنابل تحمل كميات كبيرة جدا من المواد شديدة الانفجار تصل إلى حوالى ١٥ طنا مع أن القنابل المماثلة لا تحمل أكثر من طن واحد، كوسيلة لإحداث ما يشبه الزلزال فى منطقة الهدف (قنبلة هيروشيما النوويـة تكـافئ ١٥٠٠٠ طـن مـن المـواد شـديدة الانفجـار التقليديـة). وفـى ظـل هـذه التحديات ربما تفكر الولايات المتحدة مستقبلا فى استخدام قنابل نووية تكتيكية صغيرة أو تطـوير وسـائل اختـراق نوويـة يمكنهـا النفـاذ إلـى بـاطن الأرض داخـل الأنفـاق والكهوف.

الإرهاصات

للوهلة الأولى بدت أحداث ١١ سبتمبر مفاجأة لم تكن فى الحسبان لكثير من المراقبين، إلا أن ما سبقها مباشرة من مقدمات وإرهاصات كان يشير بجلاء إلى صلة الأحداث الوثيقة بمتغيرات نمت وتطورت على أرض الواقع، ولم تكن تلك المتغيرات فى الحقيقة بعيدة تماما عن إدراك مراكز الفكر السياسى والعسكرى الأمريكى فقد بدت هذه المراكز قبل أحداث ١١ سبتمبر بسنة أو سنتين واعية بالخطر، لكنها اعتقدت أن أمامها وقتا كافيا للاستعداد له، فدهمتها الأحداث بسرعة لم تكن تتوقعها. ويمكن تمييز

تلك المقدمات على مستوى ما حدث فعلا على أرض الواقع من حروب ومواجهات عسكرية كانت الولايات المتحدة طرفا فيها منذ انتهاء الحرب الباردة مثل حرب الخليج وحرب كوسوفو وأيضا على المستوى الفكرى داخل الولايات المتحدة ورؤيتها للتهديدات حولها وعلاقتها بالتحالف الغربى والعالم بوجه عام. ومن خلال الانعكاسات المتبادلة بين المستوى الأول والثانى يمكن استخلاص عدد من المحددات والشواهد التى شكلت فى النهاية الخلفية الاستراتيجية والعسكرية للحملة الأمريكية فى أفغانستان وهى نفسها التى سوف تستمر على الأرجح فى حروبها القادمة مع تعديلات وتطويرات مستمرة تناسب مسرح العمليات وطبيعة العدو الذى تواجهه:

١ـ خلال السنوات الخمسين التى تلت الحرب العالمية الثانية، اختارت الولايات المتحدة أن توظف نتائج الثورة العلمية والتطورات التكنولوجية المتلاحقة والقدرات الصناعية فى تطوير نظم تسليح تعطى الأولوية للحفاظ على حياة الجنود من خلال الاعتماد المتزايد على قوة النيران بديلا عن القوة البشرية. ولقد ساعدت الثورة التكنولوجية فى مجال الإلكترونات والمعلومات والفضاء على تحقيق رؤية أوضح لمسرح العمليات، وتوجيه أدق لقوة النيران إلى مسافات بعيدة داخل هذا المسرح بأبعاده الجديدة. ودعَّم هذا التوجه، بجانب العوامل التكنولوجية والعملياتية المذكورة، تقدير أمريكى بأن الولايات المتحدة يجب أن توازن بين "حجم المصالح" و "حجم التضحية لحماية هذه المصالح"، وأنها لا يجب أن تضحى بحياة أبنائها بشكل "غير محدود" للدفاع عن الآخرين أو عن مصالح خارج أراضيها هى بطبيعتها "محدودة" فى كل الأحوال.

ولقد أكدت التجربة التاريخية بالفعل أن الولايات المتحدة منذ أن صعد نجمها فوق المسرح الدولى مع بداية القرن العشرين قد اضطرت - برغم بعض توجهات العزلة داخلها - أن تحارب بعيدا عن أراضيها فى الحرب العالمية الأولى والثانية والحرب الكورية وحرب فيتنام وحرب الخليج الثانية وحرب كوسوفو، وكان اعتمادها على قوة نيران فعالة فى هذه الحروب حلا مناسبا للقتال من أجل حلفائها بدون أن تضحى بكثير من أبنائها من أجلهم. إلى أن جاءت الأحداث الأخيرة وصارت الولايات المتحدة نفسها ضحية وهدفا للتهديد، فكان لابد أن يعاد النظر فى القاعدة القديمة وأن تصبح الولايات المتحدة أكثر استعدادا لتقبل خسائر بشرية وأن تعدل طريقتها فى القتال تبعا لذلك. ويبين الجدول وزن القنابل والذخيرة بالطن التى استهلكتها القوات الجوية الأمريكية فى عدد من حروبها الشهيرة منذ الحرب العالمية الثانية ومدى تركيزها الملحوظ على قوة النيران فى تلك الحروب. ويلاحظ أنه برغم أن الوزن الكلى لذخيرة القصف الجوى فى حرب الخليج يقل كثيرا عن الحرب العالمية الثانية لقصر فترة الحرب إلا أن معدل

استهلاك الذخيرة فى الشهر الواحد يقترب كثيرا (٨٥%) من معدل استهلاك الذخيرة فى الحرب العالمية الثانية.

استهلاك القوات الجوية الأمريكية للذخيرة في الحروب الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية

الحرب	وزن الذخيرة [طن]	فترة الحرب [شهر]	الاستهلاك [طن/شهر]
الحرب العالمية الثانية	٢١٥٠٠٠٠	٤٥	٤٧٧٧٨
الحرب الكورية	٤٥٤٠٠٠	٣٧	١٢٢٧٠
حرب فيتنام	٦١٦٢٠٠٠	١٤	٤٤٠١٤
حرب الخليج ١٩٩١	٦٠٦٢٤	١,٥	٤٠٤١٦

٢- أعادت حرب الخليج وكوسوفو تأكيد أهمية قوة النيران والقدرة الجوية والفضائية (صواريخ كروز، ذخيرة ذكية، أقمار صناعية) فى إضعاف قوة الخصم الأرضية إلى الدرجة التى تقلل كثيرا من الخسائر عند بدء العمليات البرية، ولقد انكمشت العمليات البرية فى حرب الخليج ١٩٩١ إلى أربعة أيام فقط فى مقابل خمسة وثلاثين يوما من الحرب الجوية، كما أثبتت حرب كوسوفو أن الدفاع عن "جماعة عرقية" لم يكلف الولايات المتحدة وحلفاءها فى حلف الناتو ضحايا بشرية بفضل التفوق الساحق لقوة النيران الأمريكية بعناصرها المختلفة.

٣- استشعر المخطط العسكرى الأمريكى خلال السنوات العشر التى مضت بين حرب الخليج الثانية ١٩٩١ وحرب كوسوفو ١٩٩٩ محاولات الخصوم للتكيف مع التفوق الأمريكى فى قوة النيران، ومحاولة البحث عن حلول مناسبة للتعامل معها. كما رصد تحولات أساسية فى طبيعة التهديدات الموجهة للولايات المتحدة من حيث أنها اتخذت مسارا آخر غير تقليدى و"غير متماثل" بمعنى أنها لا تمثل إجراء مضادا لوسائل النيران التقليدية، بل تعمل على محاور تأثير أخرى لم تكن مطروحة من قبل، فضلا عن ظهور أعداء جدد ضد الولايات المتحدة فى صورة منظمات وجماعات تعمل خارج إطار الدولة القومية. وفى هذا الإطار رصد الخبراء محاولات القيادة الصربية أثناء حرب كوسوفو التعلم من دروس حرب الخليج، وكان معظم الدروس يدور حول نشر وإخفاء القوات والأسلحة البرية بعيدا عن المدن، وإطالة أمد الحرب أملا فى

التحول بعد ذلك إلى حرب استنزاف برية، أو أن يحدث استنزاف مالى واقتصادى للجانب المهاجم، أو أن ينشأ بسبب أحداث الحرب تحول فى الرأى العام ضد استمرارها، أو كما فى حالة العراق أن تستخدم الدولة بعضا من قدراتها الصاروخية المتاحة فى ضرب القوات الأمريكية أو حلفائها خلال حرب الخليج. وفى الحالتين، الصربية والعراقية، وقف الحجم الهائل للقوة الأمريكية العسكرية والاقتصادية والصناعية - وما يعنيه ذلك من قدرة لا تنضب على التزود بالذخيرة والمعدات - حائلا دون جرها إلى حرب استنزاف برية طويلة.

وبرغم ذلك توقعت مراكز البحث الأمريكية أن يتيح عصر المعلومات والانتشار الواسع للمعرفة والتكنولوجيا المتقدمة فرصا لأطراف أخرى مثل الصين وكوريا الشمالية وإيران والعراق أو أى خصم آخر محتمل للولايات المتحدة - مع بعض الإبداع والتجريب - لتطوير إجراءات ووسائل مضادة هدفها تحييد منظومة النيران الأمريكية بعناصرها المختلفة الحديثة. والمتابع لحملة كوسوفو العسكرية يتذكر أن قيادة حلف الناتو كانت قد اقتربت من نقطة نفاذ الصبر بعد أن وصلت فى عدد طلعاتها الجوية إلى حوالى ٧٠٠ طلعة فى اليوم الواحد، وبدأت فى التفكير فى التدخل البرى إلا أن انهيار الطرف الصربى بعد طول تحمل وفر عليها ذلك.

ولقد عبر عن القلق الأمريكى من إمكانية تآكل تأثير قوة النيران دراستان صادرتان من كلية الحرب الأمريكية فى خريف ١٩٩٩. الأولى بعنوان "الأعداء المتكيفون: تحقيق النصر بتجنب الهزيمة" والثانية بعنوان "من كوريا إلى كوسوفو: كيف تعلم الجيش الأمريكى قتال الحرب المحدودة فى عصر الدقة". والدراستان من تأليف الجنرال روبرت سكاليس وظهرتا تحت عنوان واحد "الجيش الأمريكى فى مرحلة تحول: الاستعداد للحرب فى عصر الدقة". وتوصلت الدراستان إلى عدد من النتائج المهمة ليست بعيدة عن الأجواء التى دارت داخلها حرب أفغانستان:

- أن تفوق الولايات المتحدة فى قوة النيران وقدرتها تكنولوجيا على إنهاء التناقض بين المدى والدقة لا يعنى أن ذلك التفوق سوف يستمر إلى الأبد، والمنتظر أن يحاول الخصوم التكيف مع تلك الميزة التى يمتلكها الطرف الآخر ومحاولة تحقيق النصر فقط بتجنب الهزيمة. وهو تصور مماثل لدور القلاع والحصون القديمة عندما كان من الممكن أن تهزم العدو "بالصمود" وتحمل الخسائر، فيرحل بعد أن يمل الحصار ويفقد المدد أو تجرى عليه متغيرات لم تكن فى الحسبان.
- أن العسكرية الغربية، والأمريكية منها فى الطليعة، تعانى من نقاط ضعف وحساسيات تتصل بقدرتها على تحمل خسائر بشرية كبيرة أو تناقص تأييد الرأى العام أو التورط فى حرب طويلة تقاس بالسنين وليس بالشهور.

- تحول الخصوم إلى نشر الأسلحة والمئونة ووسائل الاتصال والنقل على أوسع مساحة ممكنة وإخفائها وحمايتها فى أماكن حصينة، وتجنب استخدام وسائل الدفاع الجوى الثابتة أو المعتمدة على أنظمة قيادة وسيطرة معقدة أو التى تخدمها معدات أرضية ضخمة وثقيلة، مع العمل فى نفس الوقت على امتلاك بعض أسلحة النيران الحديثة بالقدر الذى يمكنها من انتهاز بعض الفرص لتحقيق قدر من الخسائر البشرية فى الجانب الآخر.
- اتجاه الخصوم إلى تطوير أسلحة دمار شامل رخيصة الثمن ووسائل توصيلها والتفكير فى وسائل غير تقليدية للنيل من القوة الغربية المضادة خارج مسرح القتال التقليدى أرضا وبحرا وجوا.

وفى النهاية أوصت الدراستان بإحداث نوع من التوازن بين قوة النيران والمناورة بالقوات، والاستعداد لحروب قادمة قد تحتاج القوة الأمريكية فيها إلى العمل فوق الأرض لفترات طويلة وقد تفقد فيها أرواحا من الجنود، لكنها أكدت على أهمية التمسك بتحقيق النصر بأقل تكلفة بشرية ومادية ممكنة، وذلك عن طريق إحداث ثورة فى أداء القوة البرية كما حدث من قبل بالنسبة لقوة النيران، وتزويدها بأفضل الوسائل للعثور على العدو والوصول إليه فوق الأرض أو فى مخابئه الحصينة. باختصار أن يطبق على القوة البرية نفس معايير قوة النيران من حيث المدى والدقة والتأثير عند الهدف. ومن هنا يصبح للقوة الحديثة فى "عصر الدقة" Precision Age جناحان: جناح جوى (قوة النيران) وجناح برى (قوة الجنود).

٤– تزامن مع هذه الدراسات التى تحذر من أثر التغيير فى فكر وأدوات الأعداء المحتملين على الأمن الأمريكى صعود مفهوم آخر يركز على إعادة النظر فى كيفية حماية الأرض الأمريكية نفسها ضد هجوم محتمل بصور مختلفة غير تقليدية. وفى هذا الإطار تبلور مصطلح "الدفاع عن أرض الوطن" Homeland Defense لأول مرة فى المؤتمر السنوى الاستراتيجى الحادى عشر لمعهد الدراسات الاستراتيجية التابع لكلية الحرب الأمريكية (١١-١٣ إبريل ٢٠٠٠) بغرض بحث ما يجب أن تفعله وزارة الدفاع الأمريكية "التأمين الطمأنينة الداخلية والدفاع المشترك". شارك فى المؤتمر ٢٠٠ من الخبراء والقادة الأمريكيين والأجانب من الأكاديميين والعسكريين والمدنيين والحكوميين ورجال الأعمال.

فخلال عقود ممتدة من التاريخ الأمريكى كانت حماية الأمن القومى بالنسبة للولايات المتحدة يعنى التصدى لهجوم يأتى من الخارج، أما الداخل فتقع مسئولية حمايته على مؤسسات الأمن المحلية والفيدرالية بعيدا عن القوات المسلحة ومهامها التقليدية المعروفة والمرتبطة أساسا بالتهديدات الخارجية. فقد أيقن الأمريكيون لسنوات

طويلة أنهم يعيشون بعيدا عن الخطر خلف مانع طبيعي يمكنهم الاعتماد عليه وصار مفهوم "الدفاع ضد تهديد يأتي من الداخل" غائبا تقريبا عن الوعي الاستراتيجي. ومع ذلك تغير هذا الإدراك بالتدريج خلال النصف الثاني من التسعينات حين فرضت حقائق العولمة وسهولة اختراق أسوار الدولة من مصادر متعددة ضرورة رسم صورة جديدة للتهديدات الموجهة إليها. والنتيجة أن الصورة لم تحتو فقط على "الدول الشريرة أو المارقة" بملامحها المعروفة ولكنها عكست خليطا متداخلا منتشرا من الجماعات والأفراد والأفكار العابرة لحدود الدولة المادية وغير المادية الممتلئة بالثقوب. هذا التهديد المنتشر أخذ صورة خليط متنوع من أسلحة الدمار الشامل الكيماوية والبيولوجية والإشعاعية، بالإضافة إلى فيروسات معلوماتية يمكنها إصابة عصب وقلب حضارة أمريكا الرقمية في الصميم. وقبل أسابيع قليلة من انتهاء رئاسة كلينتون صرح ريتشارد كلارك المنسق العام "للأمن ومحاربة الإرهاب وحماية البنية التحتية" في ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠ أن الرئيس كلينتون يعتقد بنسبة تصل إلى ١٠٠% في إمكانية حدوث عملية إرهابية بيولوجية أو كيماوية داخل الولايات المتحدة خلال السنوات العشر القادمة.

ولاشك أن أحداث ١١ سبتمبر قد فجرت كل المخاوف الحبيسة عن أمن وسلامة الداخل الأمريكي والتهديدات الموجهة إليه وعلى رأسها التهديد البيولوجي والكيماوي والمعلوماتي. فمع غلبة الاعتماد على نظم المعلومات في إدارة كثير من الشبكات الحيوية والمنشآت الاقتصادية تزايد احتمال تعرض تلك الأهداف للاختراق والتخريب بكل ما ينتجه ذلك من أضرار فادحة اقتصادية وأمنية. وقد حدث بالفعل في الولايات المتحدة خلال سنة ١٩٩٩ أكثر من ٢٢٠٠٠ محاولة اختراق لنظم الكومبيوتر العسكرية، ويزيد هذا الرقم ثلاث مرات عن الرقم المسجل في سنة ١٩٩٨، ويتضاعف الخطر عندما يتحالف هذا التهديد الخطير مع أنواع التهديد الأخرى التقليدية وغير التقليدية. لقد أصبحت "جبهة المعلومات" أو "الجبهة الرقمية" جبهة قتال جديدة تتزايد أهميتها يوما بعد يوم ويصل خطرها إلى كل أطراف الجهاز العصبي للقيادة والسيطرة المدنية والعسكرية للدولة خاصة في دولة متقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد لاح في الأفق أكثر من نذير بعد استخدام الغازات السامة داخل مترو الأنفاق في طوكيو، ومحاولة تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك، ومبنى المدينة الفيدرالي في أوكلاهوما، والعديد من الحوادث الأخرى المتتابعة لتخريب البنية المعلوماتية للولايات المتحدة والمؤسسات المالية الدولية والتي اجتمع بسبب واحدة منها مجلس الأمن القومي الأمريكي في عهد كلينتون لاتخاذ إجراءات وسياسات للمواجهة. الخلاصة التي انتهت إليها مهمة إعادة "تعريف التهديد" في الولايات المتحدة أن "مصدر" التهديد و"الهدف" المتجه إليه أصبح من الصعب التنبؤ بهما وتحديدهما بدقة، كما أن الجماهير العادية المدنية وبنيتها التحتية التي تخدمها

وتقوم عليها رفاهيتها وحياتها قد أصبحت هدفا للعدوان بديلا عن الأهداف العسكرية التي كانت موضوعا للحروب خلال القرون الماضية.

ويمكن القول فى النهاية أن شيئا ما فى الحرب نفسها قد تغير منذ حرب الخليج وكوسوفا باختلاط المدنى بالعسكرى، فقد أصبحت قائمة الأهداف المراد تدميرها تحتوى على الكبارى والسدود ومحطات القوى ومستودعات البترول بأكثر مما تحتوى على حشود الجنود والدبابات. ومن هنا فإن أية محاولة لوضع تصور وخطة للأمن القومى لابد وأن تعكس المزيج الجديد "المدنى-العسكرى" فى قضايا الدفاع، وكان المعتاد الفصل بينهما فى إطار الأمن التقليدى. وأهم من ذلك الحاجة لوضع مفهوم جديد "للردع" فى ضوء تلك الصور البازغة للتهديد ومصادرها وأسلحتها والأهداف المتجهة إليها.

رقم الإيداع ١٦٤٧٧ / ٢٠٠٢
I.S.B.N 977-227-217-2

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

هــذا الكتــاب

- ”كانت عملية الهجوم على أمريكا مكتملة الأركان، فلم يقتصر تأثيرها على بث الذعر والخوف كعادة العمليات الإرهابية التقليدية بل دمرت أهدافا محددة مدنية وعسكرية ووضعت الدولة الأمريكية وقيادتها فى حالة طوارئ مستمرة من ساعة الكارثة وربما لسنوات طويلة تالية“

- ”حفرت الأحداث المتسارعة علامات فى التاريخ الأمريكى مؤلمة ومهينة معظمها يسبقه وصف "لأول مرة". فلأول مرة يتعرض مبنى البنتاجون لضربة عسكرية منذ انتهاء بنائه فى ١٩٤٣ ، وكذلك كان يحدث لأول مرة إغلاق بورصة الأوراق المالية، وقاعة الاستقبال، ومترو الأنفاق، وديزنى لاند، وغير ذلك من الأماكن التى تعرف بها أمريكا بين بلاد العالم“

- ”جاءت أحداث ١١ سبتمبر لترسم صورة جديدة للتهديد فى العالم مركبة من عناصر مختلفة لم يعهدها الناس من قبل، يختلط فيها المدنى بالعسكرى، والدولة بالجماعات والأفراد. وفى لحظة قصيرة تحول التهديد بالنسبة للولايات المتحدة إلى رجل واحد نحيف اسمه أسامة بن لادن، وإلى منظمة لا يعرف أحد مكانها بالضبط اسمها "القاعدة“

- ”أهم ما يميز أحداث ١١ سبتمبر أن الأطراف التى شاركت فيها كثيرة وربما غير معروفة بالكامل حتى الآن، كما أنها خليط من هويات متنوعة. فالصراع كما يبدو من تفاصيل الحدث ليس خالصا بين مجموعة من الدول، ولا بين أيديولوجيات سياسية، ولا بين أفراد أو جماعات ولكن من الممكن أن نجد فيه شيئا من كل هذه الصور“

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر